سلسلة الرسائل المكية (١١)



خُطبٌ ومواعظُ مِنَ المسجدِ الحرام

المجموعة الخامسة

بقلم

د. سعود بن إبراهيم بن محمد الشريم

إمام وخطيب المسجد الحرام





الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م



مدار الوطن للنشر

الدائري الشرقي - مخرج ١٥ - ٢ كم غرب أسواق المجد

الرياض : الملز / ت : ٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط) - فاكس : ٤٧٢٣٩٤١
السويدي ت ٤٢٦٧١٧٧ فاكس ٤٢٦٧٣٧٧ فرع جدة ت ٠٢٦٨٧٠٦٧٩ فاكس ٠٢٦٨١٧٣٨٦
مندوب الرياض : ٠٥٠٣٢٦٩٣١٦ - مندوب الغربية : ٠٥٠٤١٤٣١٩٨
مندوب الشرقية والدمام : ٠٥٠٣١٩٣٢٦٨ مندوب الجنوبية : ٠٥٠٤١٣٠٧٢٧
مندوب الشمالية والقصيم : ٠٥٠٤١٣٠٧٢٨
مندوب التوزيع الخيري للمنطقتين الجنوبية والشرقية : ٠٥٠٨٣٩٩٨٥٧
مندوب التوزيع الخيري لباقي مناطق المملكة : ٠٥٠٦٤٣٦٨٠٤
لطلبات الجهات الحكومية : ٠٥٠٠٩٩٦٩٨٧

الموقع على الإنترنت : www.madar-alwatan.com
البريد الإلكتروني : pop@dar-alwatan.com

المقدمـــة

الحمـد لله، والصـلاة والسـلام علـى رسـول الله، وعلـى آلـه وصحبه ومَن اهتدىٰ بهُداه.

أما بعـــد:

فإنَّ هذا هو الجزء الخامس من المجموعة الموسومة بـ(وميض من الحرم)، وهي الخطب التي ألقيتها من على منبر المسجد الحرام، أردت خروجها مطبوعة؛ لتلحق بسابقاتها علَّها تحل محلاًّ لائقاً في النفع العام، غير أن هذه المجموعة انفردت عن مثيلاتها بخلوّها من المقدمة المشهورة التي أصدر بها كل جزء من هذه المجموعة بعنوان (بين يدي الخطيب)، وما ذاك إلا لأنني أفردت مسائل الخطيب والخطبة بكتاب ضخم استقلالاً، ووسمته بـ(الشامل في فقه الخطيب والخطبة)، والذي لاقى رجع صدى في أوساط الراغبين في الإفادة منه، سائلاً المولى جلَّ شأنه أن ينفع به وبهذه المجموعة من الخطب وأن يجعلها في ميزان الحسنات ورفعة للدرجات ومحواً للسيئات، إنه خير مسؤول وأكرم مجيب، وهو المستعان وعليه التكلان.

قاله مقيده

سعود بن إبراهيم بن محمد الشريم
مكـة المكرمـة
ص.ب ٧٥٤٥ - فاكس ٥٢٧٥٨٩٩

نـداء الوحـدة

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مضلَّ له ومَن يُضْلِل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعــد:

فيا أيها الناس، في دنيانا المحيطة بنا، أمثلة وضروب تتلوَّن وتتجدَّد، ثم إن بعضها يتبع بعضاً، على وجه المطالبة الحثيثة، بحيث إن النفوس المؤمنة، تستمرئها بسبب تتابعها رويداً رويداً حتى تألفها، فلا تكاد تتحوَّل عنها، وهذه الأمور عباد الله، إنما هي نماذج لأحزان وأشجان، وقروح تمس بلاد الإسلام حسيَّة ومعنويَّة،

مما يجعلها سبباً لكثير من الناس في أن يَسْعَوْا جاهدين إلى إزالة همومهم وغمومهم بشيء من الكيوف الموقوتة، والسراب الخادع من كل ما هو من زخرف الدنيا وزينتها، والذي يجب على المسلمين جملة، ألا يغتروا بما يرونه من زخرف الحياة الدنيا وزينتها في أُمَّة تقطَّعت روابطها، وانفصمت عُراها؛ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

من أجل الدنيا وزينتها، يَغُش التجار ويطففون، ومن أجل الدنيا يتجبَّر الرفعاء ويستكبرون، من أجل الدنيا وزخرفها، يروِّج الصحفي بقلمه الكذب والزور، ويخفي الحقائق وهي أوضح من فلق الصبح، من أجل الدنيا، يصبح المرء مسلماً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا مقيت، كل الناس على هذه البسيطة يغدو، فبائع نفسه فمعتقها، وبائع نفسه فموبقها؛ من مترف مبطون، يأكل ولا يشبع، داؤه العُضال هو أن تذكره بذوي المسغبة أو المسكنة، أو المصاب الجلل من أمته، ومن قاروني يجمع ويجمع، ثم يأخذ ويمنع، ومصابه الجَلل في أن تحثه على الإنفاق في سبيل الله جهاداً ودعوة وصدقة، ومن شباب وفتيات دُعُوا إلى الفضيلة فأبَوْا، ونودوا إلى صيانة النفس فتمرَّدوا، وألقوا ثيابهم نكل قادم ناهب، وكشفوا أوعيتهم لكل سَبُعٍ والغ.

والحق عباد الله: أن هذا الانطلاق المحموم، في مهامه الحياة ودروبها، أفراداً ومجتمعات، دون اكتراث بما كان وما يكون، أو الاكتفاء بنظرة خاطفة لبعض الأعمال البارزة، أو الأعْرَاض المخوفة، الحق أن ذلك نذير شؤم والعياذ بالله، وقد عدَّه سبحانه، سمةً من سمات المنافقين، الذين لا كياسة لديهم ولا يقين لهم؛ ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦].

أيها المسلمون، في الليلة الظلماء يفتقد البدر، وفي لهيب الشمس وسَمُوم الحر، يُسْتطلب الظلُّ وتُسْتجلب النفحات، وما أروعَ العدلَ حين يطغى الجور، والإنصافَ حين يعلو الغمط، والوقوفَ مع النفس في مكاشفة ومصارحة، في عصر غلبت عليه المجاملات والرتابة، والفرقة والوحشة، والتناثر بين النفوس شذر مذر، ومن هنا يأتي الحديث ضروريًا عن الوحدة والاجتماع، والتآلف والتآخي، والتناصر والتكاتف، في عصر كثرت فيه الموجعات، وقلَّت فيه الرادعات، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أيها المسلمون، لطالما تحدَّث المتحدِّثون، وهَتَفَ الهاتفونَ من أمة الإسلام، بأنه يجب أن تكون هناك وحدة قوية، راسخة الأُسس، شامخة المعالم، تطال أمة الإسلام طُرًّا، حتى تكون بعد ذلك صخراً صلداً تتحطَّم أمامه أمواج الضعف والتخاذل. وهذه

الدعوة في حقيقتها ليست مستحيلة ولا ضرباً من التخييل، أو نزوة من أحلام اليقظة، كلا عباد الله، فلو كان الأمر كذلك، لما حضَّ الباري جل شأنه عباده المؤمنين، على أن يكونوا إخوة في الله متناصرين متعاونين تجمعهم كلمة واحدة، ورابطة واحدة، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، ولَمَا حرَّض رسول الله ﷺ على أن يتلاحم المسلمون ويكونوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، غير أن السؤال الذي قد يشغل بال الكثيرين هو: كيف نبني هذه الوحدة؟ وعلى أي أساس يجب أن تنهض ليشتد عودها ويستقيم ظلها؟

أَتُقَام هذه الوحدة على أساس من اللغة؟ كلاَّ، فاللغة وحدها غير كافية؛ إذ قد يكتنفها مسلم وكافر، فضلاً عن أنه لم يكن اللسان يوماً ما، هو سبيل الاتحاد والوحدة؛ فكم هم الذين يتكلَّمون بلغتنا ومن بني جلدتنا، وهم في الحقيقة شياطين في جثمان إنس، كما وصفهم النبي ﷺ بذلك عند مسلم في صحيحه.

أفتقام إذن هذه الوحدة على الجنس؟ كلا، فالجنس وحده ليس معياراً يعتمد عليه، أو يجعل تكأة للائتلاف العميق، فالإسلام لا يقيم للجنس في تقديره وزناً، فالناس كلهم لآدم وآدم من تراب، وإن كان لهم من أصلهم نسب يفاخرون به، فإنه لا يعدو كونه

الطين والماء؛ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

إذاً على ماذا تقام هذه الوحدة، وبأي شيء تكمل؟ إنها لا تقوم حقيقة، إلا على أساس يجمع الأرواح، قبل أن يجمع الأشباح، ويقنع العقول، إثر سيطرته على القلوب، ويؤلف بين الرغبات والأهواء، كما يؤلف بين النبات والماء.

هذا الأساس كله، هو عقيدة الإيمان المستقرة في الخواطر والصدور، وملة الإسلام التي تظل أبناءها جميعاً ليتفيؤوا ظلالها بلواء العلي الغفَّار، ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

إنه يجب علينا جميعاً أن نؤمن بأن الدعوة للوحدة، ليست عصبية، أو جنسية، أو إقليمية، أو تأليباً على الشر، أو اعترافاً للبطش والعدوان، بل هي الوحدة المؤمنة العادلة، التي يلزمها أن تقوم للناس بالحق والقسط. والدين الإسلامي هو أقوى وَتَر حسَّاس في نفوس المؤمنين على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وتباين أقطارهم وبلدانهم، ولن تجتمع كلمتهم يوماً ما دون أن تؤسلم قضاياهم، وتحدد معاييرها، من خلال الإطار الإسلامي الخالد، والإسلام بحقيقته، ليس إلا.

ثم إن الإسلام في الحقيقة إنما انطلق في وحدته، من خلال توحيد الخالق سبحانه؛ ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[البقرة: ٢٥٥]،

ووحدة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، ووحدة الدين؛ ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ووحدة الكتاب؛ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ووحدة القبلة؛ ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤]، ووحدة الأمة؛ ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

هذه هي معايير الوحدة الحقَّة، وأي وحدة سواها فهي كالظِّئْرِ المستأجرة، أو النائحة المزورة.

عباد الله، إن من مكملات الوحدة وتداعياتها، نصرة الأخ المسلم، وخوض ميدان دعمه حال اشتباكه مع قوى الباطل، في معركة موصولة الكر والفر، ولا يحصل مثل ذلك إلا بترويض النفس على شيء من المجاهدة والمثابرة، وحمل هَمّ الإسلام؛ لنضمن شيئاً من الكفاية ونتَّقي الفضول، ولنكون أعون شيء على رفع مستوى الثغور والجبهات لأمة الإسلام، وتوفير العِزَّة إرضاءً لله سبحانه؛ فإنه ولا شك لا يتفق طمع في الدنيا، وانتصار للمُثل العُليا.

كما أنهما لا ينسجمان البتة: حرص على إعلاء كلمة الله، وحرص على تكثير المغانم، والعَبّ منها كما الهيم، مع استرضاء الخلائق، واستجدائهم بالخور والجُبن.

وفي التفاتة سريعة إلى دنيا الناس في مجملها تجاه النصرة والخذلان، والرفعة والدون، فإنها يمكن أن تصوِّر لنا الناس كحال رجلين اثنين:

إما رجل له مالٌ وبنون، طال أجله وأدبر شبابه، وكان واجباً عليه أن يتهيَّأ للآخرة بزاد حسن. ومثله لو قُتِلَ في سبيل الله، فإنه لم يترك وراءه شيئاً يخاف عليه الضياع: لا الزوجة العجوز، ولا الأولاد الكبار؛ ومع هذا فهو أشبه ما يكون بشيطان أخرس، أو ناطق يَفْرَقُ من كلمة حق، ويَوْجَلُ من موقف شرف، ويتشبث بأذيال الحياة؛ طلباً للمزيد بنهم وسعار.

وفي المقابل مثل شباب، لهم آمال، وتعتريهم صبوات أيما صبوات، ولهم أحمال وعليهم أعباء، ومِثْلهم لو توثَّقت علائقهم بالدنيا أو قهرتهم الصبوة بكلكلها، لما كان في سيرتهم كبير عجب، ومع هذا كله يذهلون عن الدنيا المقبلة، ويتركون ذرية ضعافاً خافوا عليهم، ويقبلون على نصرة دين الله بنبل وجلال.

هذان مثلان مضروبان، يمكن تنزيلهما في واقع الناس على كافَّة المحاور، شعوباً وحكومات وأفراداً؛ كلٌّ بحسبه.

ومن باب أن الشيء بالشيء يذكر: فإن المؤمن الصادق لا يمل كثرة الحديث عن ثالث المسجدين، وعن مسرى رسول الله ﷺ، عن فلسطين الأبيَّة؛ لأنها اليوم تعدُّ نقطة الارتكاز في ميدان

القضية الإسلامية، والجهاد الإسلامي، وقضيتها حديث القضايا الإسلامية، وساحتها محطة امتحان وكشف لقوة المسلمين وغيرتهم على دينهم وأوطانهم وحرماتهم، فهي أرض المسلمين ولا تصلح إلا للمسلمين، أرض أظهرتْ صورة رجالها البواسل، حينما أخرجت العالِمَ من مكتبه، والعامل من معمله، واستنجدت المرأة في بيتها، والطفل في مدرسته، أمسَوْا على وهج النار، وأصبحوا على دخان البارود، إنهم يدافعون عن دينهم وكرامتهم، إنهم يسوقون في وجه الغاصبين، شباباً أنضر من الزهر، وأبهى من الوضاءة، وأثبت من الجبل، وأمضىٰ من العاصفة، إنهم يكافحون بشيوخ لهم حماسة الشباب، وشبابٍ لهم هِمَّة الشيوخ، ونساءٍ لهُنَّ قوة الرجال، وصغارٍ لهم عزائم الكبار، ولئن هلك منهم فوجٌ، ليأتُنَّ بأفواج، ولئن صبر مغتصبهم يوماً، ليرمُنَّهُ بأيام.

إن مَن يستشعر مثل هذا، ليس له منطلق إلا الإسلام، فإنه سيوقن ولا ريب أن المسلمين أصحابُ دين لا يموت، ولا ينبغي له أن يموت، مهما هبَّت الأعاصير وادلهمَّت الخُطُوب، وهو باقٍ خالِدٌ إلى قيام الساعة، وعندما يشرئبُّ أعداؤه أن تشيِّع جنازته، فإنهم سيصعقون ببزوغ شمسه من جديد.

كما أنه ينبغي علينا جميعاً أن ندرك جيداً بأن انتصار المسلمين وانكسارهم لا يرجع إلى قوة أعدائهم أو ضعفهم، وإنما

الانتصار والانكسار في الحقيقة يعودان إلى الأمة الإسلامية نفسها، فإذا وحَّدت كلمتها، ومن قبل ذلك: وحَّدت ربها، ولزِمَت أمره، وأقامت حقّه، فإنها منصورة لا محالة؛ ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

والقِلَّة والكثرة، ليست هي المعيار الحقيقي؛ فقد انتصر المسلمون في بدر وهم قِلَّة أَذِلَّة؛ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، ثم هُزِمُوا في حنين وهم كثرة كاثرة؛ ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٧].

والمسلمون عباد الله، إنما ينتصرون إذا أحسنوا علاقتهم بالله، وعزموا على نصرة دين الله؛ فإن مَن لا يعرف إلا الله لن يغلبه مَن لا يعرف الله، ومَن لا يعرف إلا الحق لن يغلبه مَن لا يعرف إلا الباطل؛ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصالحين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي الأمين، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه المتقين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعـــد:

فيا أيها الناس، إن العجب كل العجب، أن تسفل النفس المؤمنة، حتى لا تطلب رفعة، أو تقنط حتى لا يكون لها أمل. أما لو أيقن المسلمون، أن لهذا الكون مدبِّراً عظيم القدرة، وأنه القاهر فوق عباده، تخضع كل قوة لعظمته، وتدين كل سطوة لجبروته، وأن هذا القادر العظيم، بيده مقاليد كل شيء، يصرف عباده كيف يشاء، لما أمكن مع ذلك أن يتحكم فيهم اليأس، أو تغتال آمالهم غائلة القنوط.

فما على المسلمين إلا أن يتحقَّق بينهم روح الإخاء والتضامن في الدين؛ فيأخذ القوي بيد الضعيف، ويشد المقتدر من أزر العاجز، وترفع راية التوحيد المحضة، ويطرح التفاهم بإخلاص في

الأمور، مع الاعتماد على الله واللجوء إليه، بعد بذل الأسباب المادية، ومحضِ النُّصْح للقيادة، ابتغاء وجه الله؛ فدين الله وشرعه - وإن ضعف فيه شخص المتقين المجاهدين - فهو باق خالد، وضعت فيه صفات المتقين، وخطط المجاهدين، إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها وهو خير الوارثين.

كما أنه من الواجب على المسلمين بعامة، أن يبحثوا في كل مَظِنَّة ضعف عن سبب قوة. ولو أخلصوا في تلمُّس ذلك وطلبه، لانقلب الضعف إلى قوة؛ لأن الضعف قد ينطوي على قوة مستورة يؤيدها الله بعنايته ورعايته، فإذا هي تهد الجبال، وتحير الألباب؛ ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤].

سمع معاوية رضي الله عنه أن رجلاً من خصمائه شرب عسلاً فيه سم فمات، فقال رضي الله عنه: إن لله جنوداً منها العسل.

كما أنه ينبغي علينا جميعاً أن نعترف بأخطائنا في الواقع، والتي يتكاثر عدها، ويستحيل حصرها، والتي تخل بنظام السببية في النصر والتمكين، وأن يكون هذا الطرح بصورة صريحة في واقعنا، عبر كافة الوسائل المتاحة، دون اقتراف خيانات قاتلة من ذوي الأقلام المؤثِّرة، والألسن المستميلة، في حق دينهم وأمتهم، بتجاهل تلك القضايا المهمة، والتي بتجاهلها وغض الطرف عنها

يؤخَّر يوم النصر ولا يقدَّم، فتقود إلى الغرق في بحرٍ لُجِّيٍّ، من الخداع والتضليل، ولا عاصم من أمر الله إلا مَن رَحِم، فهل يرتفع شعار الإسلام وترفرف رايته، في تحليل القضايا الإسلامية، أم تبقى تحت الرايات العمية؛ لتبلغ بها القاع والعياذ بالله؟! ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

* * *

﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾

الخطبة الأولى:

الحمد لله القوي المتين، المَلِكِ الحق المبين، غافرِ الذنب وقابلِ التوب شديد العقاب ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ما اتخذ صاحبةً ولا ولداً، ليس له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وخليله وخيرته من خلقه، أتى بالمَحَجَّة وأقام الحُجَّة، وأشهَدَ أمته على نفسه عام الحَجَّة، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه، ومَن سارَ على طريقهم واقتفىٰ.

أما بعـد:

فإن النصيحة المبذولة لي ولكم عباد الله، هي تقوى الخالِق جلَّ شأنه، فهي عدة الصابرين، وذخيرة المجاهدين، وسلوان المصابين، ما خاب من اكتسى بها، ولا ندم من اكتنفها، بها النجاة في الأولى، والفوز في الأخرى، لا يسألكم الله رزقاً، هو يرزقكم والعاقبة للتقوى.

أيها الناس، لعلَّ المسلمين في ثنايا هذه العصور المتأخرة، هم أكثر الناس آلاماً، وأوسعهم جراحاً، ولعلَّ أرضهم وديارهم وأموالهم هي التي يستنسر بها البغاث، وتستأسد فيها الحُمُر.

والمسلمون مع ذلك، يتجرعون هذه الجراحات في صياصيهم وهم لا يكادون يُسِيغونها، ويحملون معها أثقالاً إلى أثقالهم، إنهم يُدَعُّونَ إلى الاستكانة والاستجداء دَعًّا، وتتقاذفهم مضارب الغالبين، إلى أن يعترفوا بأن حقهم باطل، وباطل غيرهم حق. يُزَجُّ بهم في كل مضيق من أجل أن يقلبوا الحقائق، ويتقبلوا أضدادها على مضض، حتى ينطق لسانهم بالرسم المغلوط، والفهم المقلوب، فتكون عبارتهم لعدوهم بلسان حالهم: إذا مَرِضْنَا أتيناكُمْ نعودُكُمُ، وتخطئون فنأتيكُمْ ونعتذرُ.

والحقُّ أيها المسلمون، هو أن المتأمل في هزائم المسلمين المتلاحقة، وضعفهم الحثيث، واستكانتهم المستحوذة عليهم أمام أعدائهم، يجد أنها لم تكن بدعاً من الأمر، ولا هي نتائج بلا مقدمات، ولم تكن قطُّ، قد قفزت هكذا طفرةً دونما سبب، وإنما هي ثمرةُ خللٍ وفتوق، في ميدان الأمة الإسلامية، وتقصيرٍ ملحوظ تجاه خالقها ورسولها ﷺ ودينها.

وهذه الثغرات والفتوق هي التي أذكاها أعداء الإسلام، بما يَبُثُّونه عبر سنين عديدة، من المكر والخديعة، واللتِّ والعجن منذ زمن على الإسلام والمسلمين، وبسبب نقمتها هذه، اختبأت وراء صور الاستعمار المتنوعة، تتناول من خلاله ما تشاء من الأساليب، فإذا احتاج الأمر إلى المكر، لانت، وإذا احتاج الأمر إلى القسوة،

بطشت، وهي في لينها: تبث السم في العسل، وفي شدتها: تحترف الهمجية والجبروت، وهي في كلتا الحالتين: لا تنام عن غايتها أبداً، ولو نامت بإحدى مقلتيها، فإنها بالأخرى يقظانة ساهرة. وهذا سر أسفنا المتصاعد عباد الله.

أيها المسلمون، إن الكثيرين منا ليتساءلون إثر كل بلية تحل بدار الإسلام: ما السبب؟ وكيف ولم؟ ومِمَّ وعَمَّ؟ كل صور الاستفهام تتناثر صيحاتها في مسامعنا حيناً بعد آخر، ولكن هل نجعل هذا التساؤل جديداً على أسماعنا؟ أم أن في أفئدتنا، وما أعطانا الله من صلة بكتابه العزيز، ما يذكر بسؤال مماثل للرعيل الأول، في أزمة هي من أشد الأزمات التي حلَّت بهم، ألا وهي هزيمتهم في معركة أُحد؛ يندبون حالهم، ومِنْ ثَمَّ يتساءلون، فيقول الله عنهم: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾[آل عمران: ١٦٥]، فيجيبهم الله بخمس كلمات، لم ينسب ـ ولا في كلمة واحدة ـ سببَ الهزيمة إلى جيش، ولا إلى عُدَّة، ولا إلى تَحَرُّف في قتال، وإنما قال لهم بصريح العبارة: ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، يقول الله لهم ذلك ليبين لهم ولمَن بعدهم بوضوح: أن خواتيم الصراعات والمدافعات بين الأُمم على كافة الأصعدة لا يمكن أن تقع خبط عشواء، وإنما هي وفق مقدمات أثمرت النتيجة بعد استكمال أسبابها؛ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن

مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

تقع الهزائم؛ ليستيقظ الناس، وتتوالى الضربات؛ لتحل المحاسبة محل النفوس، ويتضح مثل هذا بما أتبع الله الآية بقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧].

لقد كتب الله سبحانه على نفسه النصر لرسله وأوليائه؛ فقال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، ولكن الله سبحانه علَّق هذا النصر، بتحقيق الإيمان في القلوب، واستيفاء مقتضياته في كل مناحي الحياة، وهذه هي سُنَّةُ الله في النصر، وسُنَّةُ الله لا تحابي أحداً، وحين تُقَصِّرُ الأُمَّة وتُفَرِّط فعليها أن تقبل النتيجة المُرَّة؛ لأنها مع كونها مسلمة إلا أن ذلك لا يقتضي خرق السُّنَنِ وإبطالَ النواميس.

أيها المسلمون، إن على رأس الضعف الأصيل، البعدَ عن تشخيص الأحداث بصورتها الحقيقية، مع الاكتفاء بمجرد التلاوم، وإلقاء التبعة على الغير، فعامَّةُ الناس يُلْقُونَ باللائمة على العلماء، والمصلحين والمثقفين، وهؤلاء يُلْقُونَ باللائمة على الساسة والقادة الآخرين. وما القادة والساسة، والعلماء والمصلحون والعامة، إلا

جزءٌ من كل، ولا استقلالَ في اللوم بصنف دون آخر، وإلا كان جرماً واستكباراً وخروجاً عن الواقعية؛ فرسول الله ﷺ يقول: «كلُّكم راعٍ، وكلُّ راعٍ مسؤولٌ عن رعيته»، ثم إن المنصف الحذق يلمح من خلال هذا التلاوم المشترك، أنه ليس في الحقيقة أحد ملوم؛ إذْ كلٌّ يلقي باللائمة على الآخر، فيلزم من ذلك الدَّوْرُ، وهو ممنوع عند جميع العقلاء. ورحم الله مالك بن دينار، حينما وعظ أصحابه موعظةً وَجِلُوا منها، وارتفع بكاؤهم، وبيناهم كذلك؛ إذ فقَدَ مصحفه الذي بين يديه، فالتفت إليهم وقال: ويحكمْ! تبكون جميعاً، فمن الذي سرَقَ المصحف إذن؟!

عباد الله، لأجل أن نصل إلى حال راقية، من المكاشفة والوضوح في الطرح، ولأجل أن نحسن تشخيص الداء؛ لنستجلب له الدواء؛ فإن ثَمَّةَ مفاهيمَ ينبغي ألا تغيب عن أذهاننا طرفة عين، حتى نصل إلى المقصود، ويتحد الهدف.

فمن هذه المفاهيم: أن الناس إن لم يجمعهم الحق، شَعَّبَهُمُ الباطل، وإذا لم توحِّدهم عبادة الرحمن، فرَّقتهم غواية الشيطان، وإذا لم يستهوهم نعيمُ الآخرة، اجتالهم متاع الدنيا فتخاصموا عليها، ولو غلغلنا النظر في كثير من الانقسامات، لرأينا حب الدنيا والأَثَرَةَ العمياء تكمُنُ وراء هذه الحزازات، وهذا هو سر الوهن العظيم الذي سُئِلَ عنه النبيُّ ﷺ حينما قال: «وليقذفنَّ اللهُ في

قلوبكم الوَهَنَ» قيل: وما الوهن؟ قال: «حبُّ الدنيا، وكراهيةُ الموت».

ويظهر هذا الأمر جليًا في سبب من أسباب هزيمة المسلمين في أُحُد؛ حيث يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، يقول ابن مسعود رضي الله عنه: واللهِ، ما علمتُ أنَّ معنا في أُحُدٍ مَنْ كان يريد الدنيا إلا لما نزلت هذه الآية.

ولأجل هذا عباد الله، كانت هذه الهزيمة، حين لم يستجبْ أقوامٌ منهم لوصية الله تبارك وتعالى، في أول عظة للمسلمين بعدما انتصروا في معركة بدر، بأن يوحِّدوا صفوفهم، ويلموا شملهم، حيث قال سبحانه: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]، أنزل الله عليهم هذه الآية؛ ليقطع على النفس مطامع الدنيا، وغلبةَ حُبِّ الغنيمة على حب نصر دين الله ورفعته.

ومن المفاهيم التي يجب أن تعرف: هو أن منطق الأعداء الحاقدين واحد، وهو بِرُمَّته ليس جديداً على الساحة العامة، كما

أن قلب الحقائق وتشويه صورة المسلمين، ليستْ هي بدعةَ العصر الحديث، فمنطقُ المجرمين واحدٌ ولو تطاولَتِ القرون، وإن شئتم، فاسمعوا قول فرعون عن موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، هذا هو منطق فرعون الأول يظهر غيرته على دين الناس وأمنهم، فهو يخاف عليهم إفسادَ موسى في الأرض، فيقرِّر أن موسى يُرْهِبُ أهلَ الأرض فهو لا يستحق البقاء. هذا هو منطق فرعون الأمس، وها هو التاريخُ يعيد نفسه، وما أشبه الليلةَ بالبارحة، فهل يتعظ المسلمون بعد هذا، أم سيقولون مرة أخرى: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

إن استجابة النفس للدعاوى الأفَّاكة، والاستسلامَ لشيوعها، والتي تصلُ ـ بسبب قوة طرحها، والتأثير الإعلامي لها ـ إلى درجة الرضا بها، والقَبُولِ لها، ومن ثَمَّ يتحول الافتراء إلى حقيقة مسلَّمة، وواقعٍ لا مماراة فيه، ولنضرب مثالاً على هذا فنقول: نحن نعلم أن حقوق المسلمين، ودماءهم في أقطار كثيرة تُهْدَرُ وترخص، حتى لو داهمهم مغتصب، والْتَوَت عليهم يد معتد، فأبدوا مقاومة واهنة، أمام المُغِيرِ عليهم، ودفعوا بِرَاحِهِمْ أَفْتَكَ أنواع السلاح، ارتفعتْ صيحات وشِنْشِنات أخزمية تقول: المسلمون معتدون! المسلمون إرهابيون! ومِن ثمَّ يكون هذا تبريراً

للدبابات والمجنزرات، في أن تَصُبَّ جَامَ غضبها على أُمَّة لا تملك إلا الحجارة. ويبدو أن مثل هذا الإفك لا ينقطع، وأن الأصداء بأن المسلمين إرهابيون أكذوبةٌ كبرىٰ، فهي ـ كما يقول علماء النفس ـ: نوع من الإسقاط الذي يدفع المرء إلى اتهام غيره بما في نفسه هو من شر، وقديماً قيل: «**كل إناء بما فيه ينضح**».

ومع ذلك كلِّه: تُصَاب أمة الإسلام بصدمة عنيفة من قبل آراء عالمية تصف المالك الطريد إرهابيًا لا حق له، وتجعل اللص الغالب ربَّ بيتٍ محترماً، ثم بعد ذلك يقول المسلمون: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ومفهوم رابع: يتجلَّى في الحذر من المغرضين وبني جِلْدة المسلمين، والذين يُعْرَفون في لَحْنِ القول والله يعلم إسرارهم. هم سر في ضعف المسلمين، وثغرة صارخة في صفوفهم، يعد أمثالهم في دول كبرى، طابوراً خامساً حسَبَ قواميسهم، فهم يتَّقونهم في مجتمعاتهم بكل ما يملكون من سُبُل. وإنَّ معرفة مثل هؤلاء، والوقاية منهم، سببٌ رئيس في تحصيل القوة، والبُعد عن الهزيمة، وعلينا أن نعلم جميعاً، أن الله فعل ما فعل بالمسلمين في أُحُد، لحِكَم ظاهرة، منها قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾[آل عمران: ١٦٧].

ومفهوم خامس عظيم: وهو أن تغيير هذا الواقع المرير، إلى واقع رفيع، مرهونٌ ولا شك بتغيير واقع الناس أنفسهم، وهذا يعني بداهةً، أنه متى دبَّ الضعف وتأخَّر النصر، فإن هناك أسباباً تؤخِّره بلا ريب، ورأسُ هذه الأسباب هو أن الباحثين عن نصر الله وتغيُّر حالهم لم يغيِّروا ما بأنفسهم؛ ولذلك كان الغُنْم بالغُنْم والغُرْم بالغُرْم، والله جل شأنه يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

❊ ❊ ❊

الخطبة الثانية

الحمد لله الكبير المُتعال، له الحمد على كل حال، وله الشكر بالغدوِّ والآصال، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شديدُ المِحَال، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبيُّ المِفْضَال، صاحبُ النوال، وسديدُ المقال، صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه وإخوانه والآل.

أما بعـد:

فاتقوا الله أيها المسلمون، واعلموا أن ثَمَّة مفهوماً مهمًّا ينبغي ألا يُغْفَل عنه؛ لأنه لُبٌّ في الموضوع، وعمودُ ارتكازٍ في التصحيح، ألا وهو المعصية، وما لها من أثر وشؤم، ووَقْعٍ عظيم في تحديد معايير النصر والهزيمة، وإن مَن يُلْقي بنظره إلى غزوة أُحُد، وإلى السبب الرئيس للهزيمة، لَيَجِدُ أنه يكمن في المعصية، والتي تَلَقَّى المسلمون بسببها لطمة موجعة، أفقدتهم من رجالهم سبعين بطلاً، على رأسهم سيدُ الشهداء حمزة، فردَّتهم الهزيمة إلى المدينة وهم يعانون الأَمَرَّيْن مِن جرَّائها، وشماتةَ كُفَّار قريش بسببها.

وإن تعجبوا عباد الله، فعجبٌ أمرُ هذه المعصية في أُحُد، إنها لم تكن في فُشُوِّ زِناً بينهم، ولا في احتساء خمرة مسكرة، ولم تكن

في إقصاء شريعة وتحكيم قوانينَ خارجةٍ عنها، ولا في فساد امرأة أو انحرافِ شباب، بل إنهم خرجوا إلى أُحُد، ومعهم إيمانهم بالله، وحُبُّهم لرسوله ﷺ، ودفاعُهُمْ عن الحق، وطلبُهُمْ رِفْعَةَ هذا الدين ونُصْرَتَه، وكل ذلك في الواقع، يرشِّحهم بأقوىٰ أنواع الترشيح في أن ينتصروا ولا يُهْزَموا.

ولكنْ! يبلو الله المؤمنين في أُحُد؛ فينزل الرُّمَاة عن الجبل، لا لقصد عصيان الرسول ﷺ، ولكن لما رأوه من الانتصار للمسلمين، فخاف بعضهم فوات حظه من الغنائم، ثم كانت الكارثة!! هزيمةٌ موجعة، فاجعةٌ مَهُولة، وأثابهم الله غمًّا بغم، وكُسِرَتْ رَبَاعِيَةُ الرسول ﷺ، وشُجَّ رأسه، وقُتِلَ سبعون شهيداً، فالله أكبر، ما أعظمَ أثرَ المعصية على واقع المسلمين حتى في أَحْلَكِ الظروف.

تلك هي معصيتهم، فما هي معاصينا إذاً؟! إنه لسؤالٌ صعب، والجواب عليه أشدُّ من لعق الصبر؛ يقول الرسول ﷺ: **«إذا تبايعتم بالعِينَةِ، وأخذتم أذنابَ البقر، ورَضِيتُمْ بالزرع، وتركتم الجهاد، سلَّطَ اللهُ عليكم ذلاًّ لا ينزعُهُ منكم حتى ترجعوا إلى دينكم»** [رواه أحمد وغيره]، إنَّ شؤم المعصية يعم مهما قلَّ حجمه، أو ضعُفَ الاكتراثُ به، يمحقُ البركة ويفسد العمل، ولو كان جهاداً في سبيل الله.

دخلت العالية - امرأة أبي إسحاق السَّبِيعي - على عائشة رضي الله عنها، فدخلتْ معها أم ولد زيد بن أرقم، فقالت: «يا أم المؤمنين، إني بعت غلاماً من زيد، بثمانمائة درهم نسيئة، وإني ابتعته منه بستمائة نقداً؟ فقالتْ لها عائشة: بئسَ ما اشتريْتِ، وبئسَ ما شَرَيْتِ، إنَّ جهاده مع رسول الله ﷺ قد بطل إلا أن يتوب»؛ رواه الدارقطني بسند جيد، فرُحماك يا رب رحماك، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك.

اللهم صَلِّ على محمد...

❊ ❊ ❊

خُصَمـاء السُّـنَّة

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مضلَّ له ومَن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعــد:

فيا أيها الناس، نورُ النبوة وإشعاعُها، والهدايةُ المتحقِّقةُ بإذن الله في الاقتباس من ذلك النور، مرهونٌ بمدى قُرْبِ المسلمين من هدي نبيهم ﷺ، والبعدِ عمَّا يخالفه، وكلما ازداد المسلمون تمسكاً برسالته ﷺ، ازداد هذا النورُ واتسعَ، وعمَّ ضياؤه المدَرَ والوبر، وعلى العكس من ذلك: كلَّما ابتعدوا عنه أو زهدوا فيه، أو اقتبسوا نوراً من غيره، ضاقَ عليهم ما اتسع، وأظلمَ ما هو منيرٌ لهم، وهذه سُنَّةُ الله في

المتخاذلين؛ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

إن المترقِّب لأحوال كثير من المسلمين في جملة من الأقطار، قد يرىٰ ما يؤسفه، ولربَّما صدق حدسُهُ، وظهر أثرُ ترقُّبهِ، ونتيجةُ سَبْرِهِ واستقرائه، على أن جهوداً غيرَ قليلةٍ، تتسلل لواذاً، وتُبذلُ على تخوُّفٍ مشوبٍ بمكر، على الإخلال بواقع المسلمين، حتى يرضى المسلمون، ولو ببعضِ الإسلامِ الذي تَلَقَّوه عن نبيهم ﷺ، وعرفوه من كتاب ربهم سبحانه!! نعم قد تُبذلُ مثلُ هذه الجهودِ، لتهميش الإسلام من قِبَل أعدائه، ممن هو أجنبيٌّ عنه أو ممن يتكلَّم بلغته.

وهم مع ما يبذلونه من جهود في هذا الإطار، لن يهدأ لهم بال أو يَقَرَّ لهم قرار، حتى يروا في واقعنا إسلاماً منقوص الحقيقةِ والأطراف، إسلاماً منقوض العُرَىٰ والوشائج، يُنكِرُ عليه المنكرون ويزمجرون، كيف يتدخَّل في شؤون التشريع كافةً دون استثناء، أو يَبُتُّ في قضايا المجتمع، أو يقتلعُ من السلوك العامِّ ما يخدشُ قِيَمَهُ ويَمَسُّ مُثُلَهُ الرفيعة؟! إنهم لا يريدون أن يبقى من الإسلام إلا اسمه، أو على أقل تقدير الإبقاءُ بضروراتٍ لا تلبث أن تزول، ليصدُقَ فيها ما ذكر النبي ﷺ منوِّهاً إلى آخر الزمان بقوله: «يَدْرُسُ الإسلامُ كما يَدْرُسُ وَشْيُ الثوبِ حتى لا يُدْرَىٰ ما صلاةٌ ولا صيامٌ ولا زكاة».

إن الجهود الغامضة، لا تزال تبذلُ في غير ما سبيل، لتحصيلِ أجيالٍ مهيَّأةٍ لقبول مثل هذه الصور المشوّهةِ للإسلام، حتى ترتضي ما قام في أوساط البسطاء السُّذَّج من أهله، من الجرأة على تحليل الحرام أو تحريم الحلال، أو قطع ما أمر الله به أن يوصل، والوصولِ إلى واقعٍ يُدْفَعُ فيه معظمُ الأمور الثوابتِ بعيدةً عن هداية الله، فيألفُ البعضُ التفلُّتَ من المسلَّمات؛ كتحقيق توحيد الله جلَّ شأنه، وكالربا، وذرائع الزنا، مع مصادمةٍ لسُنَّة النبي ﷺ، ودعواتٍ متهافتةٍ، لاقتْ رجع الصدى يمنةً ويسرةً، داعيةً إلى تحرير الناس من أواصر القيود الشرعية زعموا.

ولعلَّ مِن أشهر ما انصَبَّ عليه التغريبُ دون هداوةٍ أو تريُّث، سُنَّةَ المصطفى ﷺ، التي هي أُسٌّ من أساسات هذا الدين، والتي حذَّر النبيُّ ﷺ من الوقوع في مغبَّةِ ما ذكر بقوله: «**إنَّ مَثَلِي ومَثَلُ ما بعثني اللهُ به كمَثَلِ رجلٍ أَتى قومه، فقال: يا قوم، إنِّي رأيتُ الجيش بعيني وأنا النذيرُ العُرْيَان؛ فالنَّجاء، وكذبَتْ طائفةٌ منهم، فأصبحوا على مكانتهم، فصبَّحهم الجيش فأهلكهم واستباحهم، فذلك مَثَلي ومَثَلُ مَن أطاعني واتَّبع ما جئتُ به، ومثَلُ من عصاني وكذَّب ما جئتُ به من الحق**» [رواه البخاري].

إن ما خشي منه النبيُّ ﷺ بدأت تظهر ملامحه على فترة من أهل العلم، وإبَّانَ طفرةٍ طاغيةٍ، من الظواهر المعلوماتية والثقافات

العولمية، والتي تَصُبُّ في قالبٍ واحد، هو جعلُ العالم كلِّهِ كالكتلة الواحدة دون تميُّز، حتى سبَّب الهجومَ الكاسح، والحرب التي لا هوادة فيها تُجَاهَ سُنَّة النبي ﷺ، مع قلةٍ في الإنصاف، وبُعد عن الطرح الصحيح، الموافقِ للشرعِ الصحيح والعقلِ الصريح، وأمثالُ الخائضين في مثل هذا مهما قَصَروا هجومهم على سُنَّة النبي ﷺ فحسب، فإنهم لو تَمَّ لهم ما يريدون، لأضاعوا القرآن والسُّنَّة على حد سواء، حيث إن خدش السُّنَّةِ ذريعةٌ لخدش القرآن، ومن ثم القضاء على الدين بمرة.

ولأجل أن نقترب من فهم هذه القضية، فلا أقلَّ من تسليط الضوء بوضوحٍ على بعض الوسائل التي سار عليها أصحابُ الغارة على سُنَّة المصطفى ﷺ بعد التأكيدِ الجازمِ على تعدُّدها عندهم واختلافِ محاورها باختلاف البيئات قوةً وضعفاً، فكان من أشهر وسائل الطعن في السُّنَّة أمران:

الأول منهما: التشكيكُ في صحة جملةٍ من الأحاديث النبوية، لاسيَّما تلك التي يبني عليها المسلمون مرتكزاتهم الدينية، وثوابتهم الشرعية؛ فيصفونها بعدم الثبوت تارةً، أو أنها مكذوبةٌ تارة أخرى، أو يشكِّكون في ثقة رواتها وحُسْنِ مقاصدهم، مع أن للحديث جهابذةً وصيارفةً، على مدى التأريخ، يبيِّنون ضعيفها من سقيمها، يقول أبوالقاسم الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولئن دخل في غمار الرواة من

وُسِمَ بالغلط في الأحاديث، فلا يَرُوجُ ذلك على جهابذةِ أصحاب الحديث ورتوت العلماء ـ أي رؤسائهم ـ حتى إنهم عدُّوا أغاليط من غلط في الأسانيد والمتون، بل تراهم يعدون على كل رجل منهم في كم حديث غلط، وفي كم حرف حرَّف وماذا صحف». اهـ.

أما ثاني الأمرين عباد الله: فهو الترويض والتنشئة على استسهال نقد نصوص السُّنَّة دون مسوغات شرعية، والجرأة على مواجهتها بأنها تخالف العقول، مما يسبب قلة الاكتراث بها، وذوبانَ هيبتها في نفوس المشاهدين لذلك والمستمعين له، على وجه التلقي والقابلية، حتى يكون أسهل شيء لدى البعض أن ينقد حديثاً صحيحاً، إما بتكذيبه أو دعوى مخالفته للعقل، فيتلاعب جمهور الدهماء بذلك، وينتهكون حرمة النص النبوي ويسيئون الظن به، ولقد أحسن ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، في وصف أمثال هؤلاء بقوله: «ومن ذلك: تلاعبهم بالنصوص وانتهاك حرماتها؛ فلو رأيناهم وهم يلوكونها بأفواههم وقد خلت بها المَثُلَات، وتلاعبت بها أمواج التأويلات، وتقاذفت بها رياح الآراء، واحتوشتها رماحُ الأهواء، ونادى عليها أهل التأويل في سوق من يزيد، فبذَلَ كلٌّ واحد في ثمنها من التأويلات ما يريد». إلى أن يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلا إله إلا الله، والله أكبر! كم هدمت بهذه المعاول من معاقل الإيمان، وثلمت بها حصون حقائق السنة والقرآن، وكم أطلقت في نصوص

الوحي من لسان كل جاهل أخرس ومنافق أرعن». اهـ.

عباد الله، إن المشككين في سُنَّة النبي ﷺ، والمحاربين لها، لو قاموا في حربهم على أُسس علمية، لوجَب ألا يدرس التأريخ في بلد ما؛ إذ لأي شيء يقبل التاريخ على أنه علم مُسَلَّمٌ به، وتهتم كل أمة به، ثم هي لا تقبل جملة من سنة النبي ﷺ مع أن طرق الإثبات في التأريخ أقل شأناً من طرق الإثبات في الحديث النبوي؟! ثم لماذا تدرس سير العظماء ومواقفهم، وتعرضُ للتأسي والإعجاب، ويحرم من ذلك الحق رسلُ الله، لاسيما محمد ﷺ من خلال سُنَّته؟!

إننا حينما نتطرَّق لمثل هذا عباد الله، فإنما نقوله لأجل أن نبيِّن أن للسُّنَّة رجالَهَا الخبراءَ بها، وهم أئمةُ الدين من العلماء والفقهاء، النجومُ الثواقب، ورواسي الأرض وأوتادُها: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ٨٣].

إذاً ترك الرد إلى الرسول وإلى أولي الأمر وهم العلماء، سبيلٌ من سُبُل اتِّباع الشيطان؛ فحريٌّ إذن ألا يُقبل في هذا الميدان ما يُرسلُهُ المتهوِّرون من أحكام طائشة، تجعل التطويح بالسُّنَّة

النبويَّة أمراً جائزاً، أو تجعل تكذيب حديث النبي ﷺ والتلاعب به هوىً مطاعاً وكلأً مباحاً. . . وما سبب قولنا هذا عباد الله، إلا لما نراه في هذه الأزمنة من ذهاب أهل العلم، الذين تنقص الأرض بموتهم، مع فشوّ القلم وكثرة الكذب والقول على الله بلا علم، ونطق الرويبضة ـ وهو الرجل التافه الحقير الذي يتكلَّم في أمور العامة ـ وهو من العلم خواء، وفؤاده هواء، حتى كثر المتعالمون، وصار الحديث في أحكام الدين مطلق العنان لدى البعض، دون زمام ولا خطام، فخاض البعض في السُّنَّة وخاصموا، ولتُّوا وعَجَنُوا، من خلال محادثاتٍ شفهيَّة، أو مطارحاتٍ صحفية، أو عَبْرَ كتب النشر المقروءةِ والقنوات المرئية، فبدأوا يتحدثون في مسلَّمات في الدين، وثوابت لا تتغيَّر، فشكَّكُوا في الربا، وهمَّشوا الولاء والبراء، فأعموه من حيث أرادوا تكحيله، وتحدَّثوا عن المرأة وميراثها ونقصانها عن الرجل، وتحدثوا عن حجابها وعزلتها عن الرجال وقرارها في البيوت، فكان الذي طُرِحَ ليس من السُّنَّة في وِرْد ولا صَدَر، وما ذاك إلا لغيابِ مفهومِ خطورة الفتوى، وتدخُّلِ الغير في غير فنِّه، ولقد صدق الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين قال: «ومَن تكلَّم في غير فنِّه، أتى بهذه العجائب».

فالواجب إذن جعلُ تقرير الشريعة، في العلاقات الفردية والدولية، وشؤون الأسرةِ وتداول المال الخاصِّ والعامّ، وأساليب

الحكم والتحاكم وغير ذلك من شؤون أهل الذكر، أما العمال والفلاحون والصحفيون والمتفيهقون فما لهم ولهذه الشؤون؟!

ألا إِنَّ قلةَ البضاعةِ من العلم محنة، فإذا انطم إليها حبُّ التطاول على النصوص وتلمُّس المتشابه، زادت المصيبةُ وتفاقم الداء، فلا يزال الورم في نفوخ، فلا غَرْوَ إذاً ألا يصل العطاش إلى ارتواء إذا استقت البحار من الركايا، وألا يثني الأصاغر عن مراد إذا جلس أكابرهم في الزوايا.

عباد الله، لمستفهمٍ أن يسأل فيقول: قد علمنا خطورة الناعقين في وجه السُّنَّة النبوية، وما يتبعُ ذلك من سوء المغبة، وهوة الحال، ولكن لماذا يفعلُ هؤلاء هذه الأفاعيل؟ وما هي الأسبابُ الداعية إلى ذلك؟ **فالجواب أن نقول**: يصعب بداهةً سردُ أسباب ذلك في هذه العُجالة، غير أننا نؤكِّد أن من أهمها هو الجهل بالعلم الشرعي، إضافةً إلى الخوض في غير التخصص، كما أنَّ من أهم الأسباب ما يلي:

السبب الأول: الهوى وحبُّ الرياسة والشهرة، من باب ما يُقال: «خالف تذكر»، وأصحاب الهوى كُثُر، فلو خُلِّيَ لهم السبيلُ لأفسدوا في الأرض؛ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، والهوى قَتَّالٌ عباد الله، ولربما صار لصاحبه أتباع يَنْعِقون له ويَهْرِفون بما لا يعرفون، وقد أشار ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ إلى

مثل هذا بقوله: «والناسُ أسرابُ طير يتبع بعضها بعضاً، ولو ظهر لهم مَن يدَّعي النبوَّة مع معرفتهم بأن رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء، أو مَن يدَّعي الربوبية، لوجَدَ على ذلك أتباعاً وأشياعاً». اهـ.

وإشارةً إلى حب هؤلاء للشهرة والرياسة يقول ابن قتيبة أيضاً: «ولكن يمنع من الحق طلبُ الرياسةِ، وحبُّ الأتباع، واعتقادُ الإخوان بالمقالات». اهـ.

وذكر ابن القيم عن يحيى بن أكثم أنه قال: «قال هارون الرشيد: ما أنبلُ المراتب؟ قلت: ما أنت فيه يا أمير المؤمين، قال: فتعرف أجلَّ مني؟ قلت: لا، قال: لكن أعرفه رجلٌ في حلقة يقول: حدثنا فلان، عن فلان، عن رسول الله ﷺ، قال: قلت: يا أمير المؤمنين، أهذا خيرٌ منك، وأنتَ ابنُ عم رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين؟ قال: نعم، ويلك، هذا خير مني؛ لأن اسمه مقترن باسم رسول الله ﷺ لا يموت أبداً، ونحن نموت ونفنى، والعلماء باقون الدهر». اهـ.

وذكر ابن القيم أيضاً عن ابن العَمِيد الوزير المشهور قوله: «فَوَدِدْتُ في مكاني أن الوِزَارة والرِّيَاسة ليتها لم تكن لي وكنت الطبراني، وفَرِحْتُ مثل الفرح الذي فَرِحَ به الطبرانيُّ لأجل الحديث».

إذاً عباد الله هذه هي الشهرة الشريفة، وإنما تكون في الأخذ بالنصوص لا في تركها، وفي تحكيمها لا في مخاصمتها...

السبب الثاني: أن بعض المخاصمين في السُّنَّة، يحتجُّون بأنها قد تعارض القرآن، وفي ذلك يقول أبو القاسم الأصبهانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقول مَن قال: تعرض السُّنَّة على القرآن، فإن وافقت ظاهره، وإلا استعملنا ظاهر القرآن، وتركنا الحديث، فهذا جهل؛ لأن سُنَّة رسول الله ﷺ مع كتاب الله تقام مقام البيان عن الله عز وجل، ليس شيء من سُنن رسول الله ﷺ يخالف كتاب الله؛ لأن الله عز وجل أعلَمَ خلقَهُ أن رسول الله ﷺ يهدي إلى صراطٍ مستقيم؛ فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]». اهـ.

صحَّ عن أحمد وأبي داود والحاكم من حديث عبيد الله بن أبي رافع؛ أن النبي ﷺ قال: **«لا أعرفنَّ ما بلَغَ أحدَكُمْ عني حديثٌ من حديثي، قد أمرتُ فيه أو نهيتُ وهو متكئٌ على أريكته فيقول: لا حاجةَ لي به، هذا القرآنُ ما وجدنا فيه اتبعناه، وما لم نجدْ فيه لم نتبعه»**.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، مشيراً إلى هذه المسألة: «سيأتي ناسٌ يجادلونكم بشبهات القرآن، فخذوهم بالسُّنَنِ؛ فإن أصحاب السُّنَن أعلم بكتاب الله».

اللهمَّ أرِنا الحق حقًّا وارزقنا اتِّباعه، وأرِنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ولا تجعلِ الحقَّ مشتبهاً علينا فنضلَّ يا أرحم الراحمين، ونستغفرك اللهمَّ إنك كنت غفَّاراً.

الخطبة الثانية

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيماً لشانه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله صحبه وإخوانه.

أما بعـــد:

فإن ثالث الأسباب عباد الله في مخاصمة السنة يكمنُ في ميلِ بعض المخاصمين إلى أهل الغرب والإعجابِ بهم، والحرصِ على مسايرة ركبهم؛ رغبةً في اللحاقِ بهم، ونزعِ معرّة التخلُّف التي وصموا بها على حد زعمهم، من خلال التقيد الكامل بما دلَّت عليه النصوصُ الشرعية زعموا؛ مما لا يمكن ـ بسبب العمل بها ـ أن يلتقي هؤلاء وأولئك، مما سبَّب تلك المواقف الصارخة، والتي ولَّدتها بعد ذلك العداوةُ للنصوص، فنظروا بعين عداوةٍ، لو أنها عين الرضا لاستحسنوا ما استقبحوه. وهذا الميل الجارفُ لأهل الغرب، ولَّد لدى من يحبهم، شيئاً من المحاكاة في الطبع والمنهج، وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أصل هذه المسألة فقال: «إن الله تعالى جَبَلَ بني آدم ـ بل سائرَ المخلوقات ـ على

التفاعل بين الشيئين المتشابهين، وكلَّما كانت المشابهة أكثر، كان التفاعل في الأخلاق والصفات أتم، حتى يؤول الأمر إلى ألا يُميز أحدهما عن الآخر إلا بالعين فقط». ثم يستطرد رَحِمَهُ اللهُ مؤكِّداً على ما نزعمه في هذا الإطار فيقول: «وقد رأينا اليهود والنصارى الذين عاشروا المسلمين، هم أقلَّ كفراً من غيرهم، كما رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارى هم أقلَّ إيماناً من غيرهم ممن جرَّد الإسلام».

ولله دَرُّ الحافظ ابن حجر، ولقد أحسن حيث قال: «وقد توسَّع من تأخَّر عن القرون الثلاثةِ الفاضلةِ، في غالب الأمور التي أنكرها أئمة التابعين وأتباعهم. ولم يقتنعوا بذلك حتى مزجوا مسائل الديانة بكلام اليونان، وجعلوا كلام الفلاسفة أصلاً، يردون إليه ما خالفه من الآثار بالتأويل ولو كان مستكرهاً، ثم لم يكتفوا بذلك حتى زعموا أن الذي رتَّبوه هو أشرف العلوم وأولاها بالتحصيل، وأن مَنْ لم يستعمل ما اصطلحوا عليه فهو عامي جاهل، فالسعيد مَن تمسَّك بما كان عليه السلف واجتنب ما أحدثه الخلف». اهـ.

ونختم برابع الأسباب عباد الله: وهو تعظيم العقل وإكباره، حتى يكونَ هو الحكم على نصوص السُّنَّة لا العكس، وهذه لوثة نعوذ بالله من تبعات قسامتها، وشمالة كفانا الله شرَّ غوائلها، وفي

مثل هؤلاء يقول الفاروق رضي الله عنه: «إياكم وأصحابَ الرأي؛ فإنهم أعداء السُّنَن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، وتفلَّتت منهم فلم يعوها؛ فقالوا بالرأي فضلُّوا وأضلُّوا». ويقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والداعون إلى تمجيد العقل إنما هم في الحقيقة يَدْعون إلى تمجيد صنم سمَّوه عقلاً، وما كان العقل وحده كافياً في الهداية والإرشاد، وإلا لَمَا أرسل الله الرُّسُل». اهـ.

ويقول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الله سبحانه وتعالى لم يبنِ أمورَ الدين على عقول العباد، ولم يَعِدْ ولم يُوعِدْ على ما تحتمله عقولهم ويدركونه بأفهامهم، بل وعد وعداً بمشيئته وإرادته، وأمر ونهى بحكمته، ولو كان ما لا تدركه العقول مردوداً لكان أكثرُ الشرائع مستحيلاً على عقول العباد». اهـ.

وقد روى أبوداود وغيره أن عليًّا رضي الله عنه قال: «لو كان الدين بالرأي، لكان أسفل الخف أولىٰ بالمسح من أعلاه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه».

إذاً العقل وحده غير كافٍ في معرفة الحق والنور، بل لابدَّ من إخضاع العقل للشرع، على وجه التسليم به والإيمان بمراده؛ كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ عقلَ رسول الله ﷺ أكملُ عقول

أهل الأرض على الإطلاق، فلو وزن عقله بعقولهم لرجح بها كلها، وقد أخبر سبحانه أنه ﷺ قبل الوحي لم يكن يدري الإيمان كما لم يكنْ يدري الكتاب؛ فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢]».

اللهم صَلِّ على محمد...

* * *

العدل بين مفهوم الإسلام
ومفهوم أدعياء الحضارة المعاصرة

الخطبة الأولى:

الحمد لله الكبير المتعال، غافرِ الذنبِ وقابلِ التوب شديدِ العقاب ذي الطَّوْل، لا إله إلا هو إليه المصير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونَصَحَ الأُمَّة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه والتابعين ومَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعـــد:

فأوصيكم أيها الناس بتقوى الله سبحانه، ومحاسبة أنفسكم قبل أن تحاسبوا، فاليوم عمل، يتلوه موت ليس بعده عمل؛ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أيها الناس، في عام الفتح، سنة ثمان من هجرة المصطفى ﷺ، دخل رسول الله ﷺ مكة، تعلوه السكينة عزيزاً منتصراً، وهو يردِّد قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، دخل صلوات الله وسلامه عليه المسجد الحرام، ثم

أخذ مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة، ثم جلس في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومفتاحُ الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله، اجمَعْ لنا الحِجَابةَ مع السِّقَاية، صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمانُ بنُ طَلْحة»؟ فدعي له، فقال له: «هاك مفتاحَكَ يا عثمان؛ فإنَّ اليوم يوم وفاء وبِر»؛ فخرج رسول الله ﷺ وهو يتلو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، لا إله إلا الله، والله أكبر، انتصارٌ ورفعةٌ واقتدار، على كفر وبغي ومعاندين، كل ذلك لم يكنْ ليجعلَ النبي ﷺ ينسى أنه إنما بعث بالعدل والقسط حتى في حال النصر والغلبة، إنه العدل الذي ميَّز الله به أهل الإسلام، حيث جعلهم عدولاً خياراً بين سائر الأمم؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: عدولاً خياراً.

لقد أمرَ الله بالعدل ومَدَحَ أهله، ونهى عن الظلم وذم أهله ومواقعيه، فيما يزيد على ثلاثمائة وخمسين آية من كتاب الله.

العدل أيها المسلمون هو ميزانُ الأرض، والظلمُ والجَوْر ما هما إلا معولا هدم وخراب لكل دابة تدب عليها، وأعظم المظاهر العملية للظلم: هو العدوان والقهر، وأشنع صور العدوان وأغلظها: ما كان فيه سفك الدماء، والإفساد في الأرض، والعلوُّ فيها، وجعلُ أهلها شيعاً، وضعيفِهِمْ نهباً لقويهم، على صورة صراع أهل الغاب.

والعدل في الحضارة المعاصرة ذات البريق اللامع، كغيره من القيم الأخلاقية، تحدده النسبية، مع القابلية لأن يوزن بميزانين، أو يُكال بمكيالين، عند مَنْ لم يؤمنوا بالله ربًّا وبالإسلام ديناً ومحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً.

أما في الإسلام: فالعدل قيمة مطلقة، لا مجال للنسبية فيها، له ميزان واحد يعد هو الأدنىٰ في معاملة المسلم مع غيره، حبيباً كان أو بغيضاً، صديقاً أو عدوًّا، مسالماً أو محارباً؛ كلُّ ذلك إعمالاً لقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، وإعمالاً لقوله جلَّ شأنه: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، فلا معيار إذاً إلا للعدل؛ فهو كما يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العدل مطلوبٌ من كل أحد في كل حال»؛ ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة: ٥]، فنهى الله المسلمين أن يعاملوا حتى قتل هؤلاء بغير العدل.

ومن هنا بدا ظاهراً جليًّا، أثر هذه التربية الإسلامية على عموم الأمة المسلمة عبر التاريخ في سلمهم وحربهم؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المؤمن إن قَدَرَ، عدَلَ وأحسن، وإن قُهِرَ وغُلِبَ، صبر واحتسب؛ كما قال كعب بن زهير أمام النبي ﷺ منشداً:

ليسوا مفاريحَ إنْ نالَتْ رماحُهُمُ   يوماً وليسوا مجازيعاً إذا نِيلُوا

وسُئِل بعضُ العرب عن شيء من أمر النبي ﷺ؟ فقال: رأيته يَغْلِبُ ولا يبطر، ويُغْلَبُ فلا يضجر. وما سمي من سمي من كفار قريش بالطلقاء إلا حينما قال لهم في أَوْجِ غلبته، وذكرياتُ طردهم له وإيذائهم لعصبته تجولُ في خاطره، ومع ذلك لم يتفوَّه إلا قائلاً: «اذهبوا؛ فأنتم الطلقاء».

أيها المسلمون، إنه من أجل إيضاح قضية العدل، وتجلية الممارسة الحقيقيَّة لها في هذا الزمن، فلابدَّ أن نورد مقارنةً بين سلوكين، هما مَحَطُّ حديث الساعة؛ إنها المقارنةُ بين السلوك الحربي لجيوش المسلمين وغزاتهم، وبين سلوكِ جيوش غير المسلمين، ومنهم بعضُ جيوش الحضارة المعاصرة. وذلك من خلال منطقة واحدة، تعرَّضت في خلال ألفي سنة تقريباً لمرات ست من الغزو الخارجي، تلكم المنطقة هي أرض مسرى رسول الله ﷺ، إنها فلسطين، وبيت المقدس. فلقد تعرَّضت لهجوم الفرس، الذين أثمروا إحراق المدينة ونهبها وقتل السلطان فيها، وإهانةَ المقدسات، وبعد أقلَّ من عشر سنين، هاجم البيزنطيون هذه المنطقة وانتصروا على الفرس المحتلين، فانتقموا منهم ومن اليهود الذين كانوا ساعدهم الأيمن شر انتقام، ولم يكن سلوك البيزنطيين آنذاك أقل وحشية من سابقهم!!! ثم بعد ما يقارب العشر سنين،

انتصر المسلمون ودخلوا المدينة فاتحين، فلم يسفكوا فيها دماً، ولم ينهبوا مالاً، ولم يقتلوا شيخاً ولا طفلاً ولا امرأة، ثم صدرت إبّان ذلك الوثيقةُ العُمَرية المشهورة في زمن الفاروق رضي الله عنه، بحيث إن مَن يقرؤها ويرى ما فيها من الإنصاف والعدل والسماحة، لَنْ يظن أنها بين جيش منتصر وآخر مهزوم شر هزيمة.

وبعد عدة قرون من الزمن اجتاحت حملة صليبية أرض المقدس، فانتصرت على أهلها وكان معظمهم من المسلمين، ولكن ماذا كان السلوك الحربي لأولئك الغُزاة؟ إنها كلمات قالها قائد تلك الحملة الصليبية، واصفاً بأن خيولهم كانت تخوض في دماء المسلمين. ويصفها مؤرِّخ أوربي آخر فيقول: لقد انحدرت جموع الصليبيين في طرقات بيت المقدس، تحصد الأرواح حصداً رجالاً ونساءً، شيوخاً وأطفالاً حتى بلغوا عشرة آلاف قتيل، وبعد أقلَّ من قرن من الزمن ينتصر جيش صلاح الدين على الصليبيين في موقعة حِطِّين الحاسمة، وتفتح أمامه أبواب بيت المقدس، ويدخلها المسلمون منتصرين غانمين، مظهرين من ضروب السماحة والعدل والرحمة في حال الحرب، ما أجبر مؤرِّخي الغرب على الاعتراف بذلك والإشادة بها.

ثم تأتي الطامة الأخرى والوحشية العميا، في العقد الثاني من القرن الماضي ليدخل جيش الانتداب الأوربي أرض فلسطين مع

الغزاة اليهود، فيوقع اليهود فيها مجازر وحشية، وألوان عدوان، كان من أبشعها جرماً وأعظمها فتكاً مذبحة دير ياسين المشهورة، والتي وصفها أحد جزَّاريها القادة بقوله: كان لهذه العملية نتائج كبيرة، فقد أصيب الفلسطينيون بعد انتشار أخبار دير ياسين بالهلع، فأخذوا يفرُّون مذعورين، فلم يبق على أرض فلسطين إلا ما يقارب مائة وستين ألفاً بعد أن كانوا يزيدون على ثمانمائة ألف. ثم يقول هذا الجزار: لولا مذبحة دير ياسين، ما يمكن لإسرائيل أن تظهر إلى الوجود.

ولم يكن هذا السلوك عباد الله، منافياً لتصور الحضارة المعاصرة للعدل، ولأجل هذا منحته جائزة (نوبل للسلام).

إذاً: هذه المقارنة عباد الله بين سلوك الجيوش المسلمة والجيوش الكافرة، تدل على ما شهد به أحد كبار مؤرخي الحضارة المعاصرة: بأن التأريخ لم يشهدْ فاتحاً أرحَمَ من المسلمين.

ألا إن المسلمين دائماً هم الضحية ضد أي عدوان غاشم، ولم يعرف يوماً ما، أنهم كانوا هم المعتدين على أحد، بل حتى في هذا القرن المعاصر، فهذه هي فلسطين، والجزائر، وليبيا، وتونس، ومصر، والسودان، وغيرها، لم يكن أهلها قطُّ هم المعتدين، بل كان المستعمر من أرباب الحضارة المعاصرة هو الصائل المعتدي.

ومن باب الأسف الشديد، أن ينجح أرباب الحضارة المعاصرة في اعتماد إعلامهم على غفلة المجتمعات المسلمة، وضعف ذاكرتها في استيعاب الأحداث الماضية، والسجلات المشينة، في النظرة الواقعية لمفهوم العدل عند الحضارة المعاصرة، من خلال سلسلة من الغزو والاعتداءات والبطش، ولو كانت أحداثاً لم تجفَّ دماؤها بعد؛ وإلا فلماذا توصف المقاومات المسلحة في بعض الدول الإسلامية بادي الرأي من قبل رواد الحضارة المعاصرة، على أنها حركات مقاومة ضد المعتدي، أو جيوب انفصالية في وجه الظالم، ثم بين غمضة عين وانتباهتها تنقلب نظرة الحضارة المعاصرة، فتسميها قوى إرهابية مبرزة يجب أن تستأصل شأفتها، وتوأد في مهدها.

الحضارة المعاصرة عباد الله، رسمت لنفسها صورة صناعية تقنية، فاقدة للتقوى، أو لمفهوم التراحم والعدل الإنساني على أقل تقدير، فتحولت إلى حضارةٍ استكبارية بطشية، تركت الجدال بالحسنى، وجادلتِ الناس على متن المقاتلات ورؤوس المدرعات، حتى جعلوا من ذواتهم أشباحاً مرهوبة، وجعلوا حقوق من سواهم من الناس لبانات ممضوغة، يلفظونها بعد العلك بين مخالب القوى الباطشة، وهي لا تريد من هذه المستعمرات الشاسعة إلا أن تجعلها حقول استغلال، ومن ثَمَّ اتخاذ أهلها خدماً

يعملون ويكدحون، لِيَشْقَوْا هم ويسعد الغازي المعتدي. ولأجل هذا نجحت ثورة البركان العسكري في الحضارة المعاصرة في أن تجعل معظم العالم الإسلامي اليوم يألف ألواناً من الاعتداءات السياسية والاقتصادية، حتى لقد أصبح الأمان لديهم شبه سراب بقيعة لا يبلغه أحد.

ومما لا شك فيه: أنه كلما قلَّت صحوةُ المسلمين، ازداد الوَلَهُ إلى هذا السراب، والتشبُّثُ به، ولقد صدق الله: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠]، ولأجل هذا، احمرَّت جوانب تاريخ هذه الحضارة بدماء الضحايا المسفوكة؛ فقاتلت الشعوب المتطلِّعة إلى حريتها، وحَرَمَتها من أسباب العلم والقوة والنهوض.

ولا يغرنَّكم عباد الله: ما تبثُّه الحضارة المعاصرة بين الحين والآخر، من شعارات الإخاء والعدل والحرية في التديُّن، نعم لقد فصَّلوا هذا الشعار للعالم، إلا للمسلمين، وإن كان ولابد، فلا أكثر من أن يكون مقطوع الصلة بكرامة الإنسان، التي أراها الله له، من خلافة الأرض وعبادة الله فيها، وإقامة العدل في أرجائها، وإن كان ثَمَّ زيادةٌ على ذلك، فعلى أن يكون الإسلام محايداً بإزائهم، مسايساً لهم، أما أن يؤيِّد الدين حقوق الإنسان، ويأمر الناس أن يدخلوا في السلم كافة فلا!! لأن الإسلام عندهم هو وحده الذي

يجب إبعاده عن الحياة العامة، أما ما عداه من الديانات والنِّحَل، فليقم باسمها دول، ولترسم على خطاها سياسات، ولأجل هذا لاطَفُوا عبدة الأوثان بروح أطيب ونفس أهدأ. فأي حضارة هذه بربكم؟! وبهذه الصورة لم يبعد النجعة، أولئك المتخصصون في العلاقات الدولية حينما قالوا: إن مثل هذه التصرفات مؤسس على مبدأ «المصلحة الوطنية والقوة» فهو كمبدأ العلاقة مع الآخر، لدى قطَّاع الطريق، أو لدى أي تجمع مفترس في الغابة.

وما الضمانات التي تمثلها مواثيق العدل العالمية المزعومة، للمحافظة على أمن جميع الشعوب، إلا فيما لم يكن المسلمون أو العرب فيه طرفاً في صراع ما، أما إذا كان الحيف واقعاً على شعب مسلم، أو قطر عربي، فقد أمسى للقضية لون آخر؛ فهل يهزؤ بالمنكوب حينئذٍ إذا أساء بالحضارة ظنه؟!

إن مثل هذه الممارسات، هي التي جعلت عدداً ليس بالقليل، من عقلاء الحضارة المعاصرة، لا يزالون يطلقون صيحات النذارة لأقوامهم، ويحذِّرونهم سوء المصير، فهل يعي المسلمون ذلك؟! ألا إن من سنن الله تعالى أن يدع هذه الحضارة تحصد ما تزرع، وتعرف طعم الجذاذ عند الحصاد؛ فما طار طَيْرٌ وارتَفَعْ إلا كما طار وَقَعْ ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعـــد:

فإن المشاهد لواقع الحضارة المعاصرة اليوم، ليرى أن لانحرافها في تصورها للعدل نتيجةً بدهية لا مناص منها، ألا وهي تشبُّعُ روحها بالأنانية والعدوانية، وإرادة العلو في الأرض، وإهلاك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد.

ولا أدل على هذه النزعة الشاذَّة، مما يعد ثمرة هذا الواقع، وذلك من خلال إنتاج هذه الحضارة، من أسلحة الدمار الشامل، ما بلغ ـ كمية وكيفية ـ مبلغاً يجاوز سلع الاحتياجات البشرية للطعام والشراب بأضعاف مضاعفة، ولقد عُلِمَ أن دولة من دول هذه الحضارة، قد بلغ إنتاجها من أسلحة الدمار الشامل، ما يكفي لإفناء العالم ثلاثة وثلاثين مرة.

وقبل عقود من الزمن، شيعت دولة كبرى موكباً من التوابيت الخرسانية، لتلقى في قاع المحيط، حيث تضم وسطها شحنات مروعة، من الغازات السامة بعد أن رأت هذه الدولة أن لديها فائضاً من هذا السلاح، يكفي لإفناء العالم ست مرات.

وإنْ تعجبوا عباد الله فعجَبٌ تلك النزعةُ الشريرة في هذه الحضارة؛ إذْ كان يكفيها شرًّا أن تنتج ما هو كفيل بإفناء العالم مرة واحدة، وهنا مكمن الجبروت والعدوانية في الحضارة المعاصرة، فما ذنب العالم في أن يدمر أكثر من ثلاثين مرة، ألا يكفي بالحربين العالميتين مثالاً لهذا التصور المنحرف خلال ربع قرن، أثمرتا من خلاله ما يعد بالملايين من القتلى؟!

عباد الله، إنَّ كلامنا هنا، ليس المقصود منه الهجاء والتشفي في كشف عورة الحضارة المعاصرة؛ إذ الأمر أبعد من ذلك وأهم، وهو أن صيحاتٍ تعالت، ورَجْعَ صدى يسمع في الأقطار الإسلامية، أثمر التأثر بهذه الحضارة المعاصرة وزخرفها، فرأينا وسمعنا من بين ظهرانَيْنا تبريرَ الظلم والعدوان من قبل تلكم الحضارة، وكذا تبرير ازدواجية معايير العدل عندها، في حين أنه كان المرجو في مقابل ذلك أن ينكشف للمسلمين هذا الزيف في تصوير العدل، وأن تتضح لديهم المعاني الرئيسة لمفهوم العدل عند تلك الحضارة، وأنه ليس هو العدل الذي بمعنى الإنصاف، ولكنه العدل الذي هو الميل والانحراف، وهذا ما يضع على كل عاتق نصيبه من المسؤولية أمام الله من شعوب وحكومات، وذلك بتدارك الأمر من خلال الرجوع إلى الله، ثم بالطرح الإسلامي الصحيح للتربية الواعية عبر المجالات التربوية، ومناهج التعليم وتوعية الأجيال بحسنات الإعلام لا بسيئاته؛ ليقف المسلمون موقف

العاقل أمام طوفان الحضارة المعاصرة الجارف، وأن يعلموا: أن الحق لا يُزْرِي به أن تَمُرَّ عليه سنون عجاف، ولا يضيع جوهَرُهُ لأن عللاً عارضة اجتاحت أهله، ويعلموا: أن الباطل لا يسمى حقًّا لأن دورة من أدوار الزمن منحته القوة، وأقامت له دولة في الأرض؛ إذ لم تتحوَّل جرائم فرعون إلى فضائل؛ لأنه ملك سلطة الأمر والنهي، واستطاع قتل الأبناء واستحياء النساء، فلا ميزان للجميع إلا بمدى قربهم من الله أو بعدهم عنه؛ كما يجب علينا جميعاً أن نتجرع الواقع المرير ولو لم نستسغه؛ حتى نواجه الغارة الشعواء، ونستبين أغراضها الكامنة في جعلنا قصة تروى وخبراً كان، قبل أن يجتمع علينا الثالوث الخانق، وهو الهدم الروحي، والهدم التاريخي، والهدم العسكري، والذي غايته أن يتلاقى على أنقاضنا.

فيا ترى هل يضيع الحق في حومة هذه الدائرة العمياء؟! كلا!! فلقد مرَّ آباؤنا الأولون بمثل هذه المحن، ثم خرجوا منها موفورين، بعد أن أصلحوا أنفسهم، وأصلحوا ما بينهم وبين الله بالنصح الجاد، والتصحيح الواعي؛ ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]؛ وليأتين زمن تملأ فيه الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً؛ وذلك بلسان الصادق المصدوق ﷺ؛ ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

اللهم، صَلِّ على محمد...

مشـــوِّشـــات العُطَـــل

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مضلَّ له ومَن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعـــد:

فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وعليكم بالجماعة؛ فإن يد الله على الجماعة، ومَنْ شذَّ عنهم شذَّ في النار، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فقد غوىٰ، ولن يضر الله شيئاً، بل لا يضرُّ إلا نفسه.

فيا أيها المسلمون، في مثل هذه الأيام البازغة، يتجاذب فئام

من الناس أطراف الحديث، عن أمر مهم يشترك في مطارحته معظم المجتمعات بمجموعها، كما أنَّ الألسنة تلوك الحديث عنه، على اختلاف في مشاربها، إيجاباً وسلباً، خلافاً وضدًّا؛ لأنه في الحقيقة أهل للحديث عنه، وكثرةِ المطارحات فيه، عبر مجالات متنوعة، كالمنابر مثلاً، والأندية والإعلام في بعض صوره، ذلكم عباد الله، هو الحديثُ عمَّا يسمَّى بالعطل الصيفية، أو الإجازات السنوية، والتي أصبحتْ حقبةً من الدهر لا يمكن الاستغناء عنها بوجه من الوجوه، بل لقد أجمعت الأقطار بأسرها على أن هذه المرحلة جزء من الصبغة الواقعية على مضمار الحياة السنوية، والتي لا يمكن تجاهلها على أرض الواقع، حتى إنها قد فرضت نفسها، على أن تكون مصنَّفة ضمن البرامج المنظمة، في الحياة السنوية العامة، وهي غالباً ما تكون غوغائية تلقائية ارتجالية، أي: أنها مع الإحساس بها على أنها واقع لابد منه، إلا أنها ينقصها الهدف السليم، وتفتقر إلى الضوابط الزمانية والمكانية، فضلاً عن الضوابط الشرعية، وما يحسن إبَّانها وما يقبح.

إن حاجة الإنسان إلى الراحة بعد الكد، وإلى الهدوء بعد الضجيج، لهو من الأمور المسلَّمة، والتي لا ينكرها إلا غِرٌّ مكابر؛ فالإسلام في حقيقته لم يفرضْ على الناس أن يكون كل كلامهم

ذِكْراً، ولا كل شرودهم فكراً، ولا كل أوقاتهم عبادة، بل جعل للنفس شيئاً من الإراحة والترويح، المنضبطَيْنِ بشرعة الإسلام، بل إن حنظلة بن عامر رضي الله عنه، قد شكا إلى النبي ﷺ تخلل بعض أوقاته بشيء من الملاطفة للصبيان والنساء؛ فقال له ﷺ: «**ساعة وساعة**» [رواه البخاري ومسلم].

وقد ذكر ابن عبدالبر؛ أن عليًا رضي الله عنه قال: «أجمُّوا هذه القلوب، والتمسوا لها طرائفَ الحكمة؛ فإنها تَمَلُّ كما تمل الأبدان».

ويقول ابن الجوزي: «لقد رأيت الإنسان، قد حمل من التكاليف أموراً صعبة، ومن أثقل ما حمل مداراةُ نفسه، وتكليفُهَا الصبر عما تحبُّ، وعلى ما تكره، فرأيتُ الصوابَ قَطْعَ طريق الصبر بالتسلية والتلطُّف للنفس».

بهذا عباد الله يؤخذ مفهومٌ عامّ، حول تخلل جد المرء واجتهاده، شَيْءٌ من الراحة وسكون الحركة الهائجة.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه حول واقع كثير من المسلمين اليوم هو: **إلى أي مستوى يصل إليه معاشرو العُطَلِ الصيفية، وما هي الآلية الإيجابية التي تستثمر فيها الأوقات، وتراعى فيها قائمة الأولويات، وما هو المفهوم الحقيقي للعطلة؟ أيكون في النوم؟ أم هو في اللهو؟ أيكون في الأفراح؟ أم هو في السياحة؟ أم هو في**

الإخلال بالنواميس الكونية من حيث انقلاب الليل نهاراً والنهار ليلاً؟ أم في المطالعات الحثيثة لما تبثه وسائل الإعلام الفضائية، أو شبكات ما يسمى بالإنترنت الغازية؟ إنها أسئلة متعددة، مصدرها فؤاد كل مؤمن ومؤمنة، ينازعهم فيها الضمير الحي المتيقظ، والغيرة على الفراغ والصحة والشباب.

إن مثل هذه العطل برمتها، لهي أحوجُ ما تكون إلى دراسات موسَّعة تقتنص الهدف الواعي، وتستثمر الفرص السانحة، إلى طريقة مثلى، للإفادة منها في الإطار المشروع، من خلال دراسة الأنشطة الترويحية، الإيجابية منها والسلبية، والربط بينها وبين الخلفية الشرعية والاجتماعية، للطبقة الممارسة لهذه الأنشطة المتنوعة، ومدى الإفادة من الترويح والإبداع، في الوصول إلى ما يقرِّب المصالح ولا يبعدها، وما يرضي الله ولا يسخطه، وتحليل الأفعال وردود الأفعال، بين معطيات المتطلبات الشرعية والاجتماعية، وبين متطلبات الرغبات الشخصية المشبوهة، وأثر تلك المشاركات في إذكاء الطاقات والكفاءات الإنتاجية العائدة للأُسر والمجتمعات بالنفع العام في الدارين.

أيها المسلمون، إنه لأجل أن تعرف المجتمعات الواعية، مدى اهتمامها بأفرادها، وإعمالها للطاقات المهدرة، في صفوف شبابها وفتياتها، فلينظرْ إلى مواقفها مع العطل، وأوقات الإجازات وما

توليه من الدراسات الجادة، لعلاج الكم الهائل من السلبيات عبر هذا العطل، ولو أردنا أن نستطرد في حصر الممارسات الصيفية في كثير من المجتمعات، لطال بنا المقام، غير أن ما لا يدرك كله لا يترك كله، والجزء قد يدل على الكل من باب اللزوم.

ولأجل هذا: فإن من المستحسن أن نلقي شيئاً من الوضوح والمصارحة، حول ما تمتاز به هذه العطل من الممارسات، التي تفتقر إلى الصحة، وتتسلل عن الضوابط الشرعية لواذاً.

فمن هذه الممارسات الخاطئة في العطل: تلكم العادات المقيتة، وذلك الانقلاب المشين، في النظرة إلى الناموس الكوني بالنسبة لليل والنهار؛ إذْ إننا نرى ممارسات جماهير الناس، تكمن بداهة بادي العطلة في انقلاب الليل نهاراً والنهار ليلاً، فنجد نهارهم في دجنة، وليلهم جَهْوريًا، وألذُّ ما عندهم سمر العشاق، أو شغل المشغولين بالفراغ؛ تجد عبادتهم نزراً، وغوايتهم غمراً، يقضون الليل في القيل والقال، والضجيج والطنين، والعزف والطرب، فيصعقون الأسماع، ويخطفون الأبصار، حتى تمتد ألوان لهوهم إلى أوقات متأخرة من الليل، ولسان حالهم يقول: يا ليلُ هل لَكَ مِنْ صَبَاحْ، أمْ هل لنجمِكَ من بَرَاحْ، ضلَّ الصباحُ طريقَه والليلُ ضَلَّ الصَّبَاحْ، فلا يرخي الليل سدوله، إلا وقد جرَّ اللهو ذيوله.

وبذلك كله تفتقد النعمة العظمى التي جعل الله بها ﴿ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا﴾ [الفرقان: ٤٧]، وبذلك أيضاً تفتقد القشعريرة في استشعار نعمة الله تعالى علينا في تعاقب الأجدَّيْنِ وهما الليل والنهار؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٧٢ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ ـ ٧٣].

عباد الله، ومن الممارسات الخاطئة في العُطَل: تلكم العادات الممقوتة، والرتابة المتكررة، والتي تشرئب لها نفوس الكثيرين لاسيما في الأوساط النسائية، ألا وهي مناسبات الأفراح، وما أدراكم ما هي، والتي يجلب عليها بالخيل والرجل والأموال والأولاد، إعداداتٌ مكثَّفة، وتشبُّث بكل أنواع التهيؤ لتلك الأفراح، إسرافٌ وتبذير، يكتنف جملةً من الأفراح إلا ما رحم الله، إسرافٌ في أماكن الأفراح، مغالاةٌ في أجرتها، وتباهٍ في جودتها، تسوُّقٌ وتسوُّق وتسوُّق، مشوبٌ بتبرج وسفور، كل ذلك سابق لجميع هذه المناسبات، تفاخرٌ في الملبس، وتكاثر في المأكل والمشرب، ناهيكم عن غلاء المهور، الذي أودى بكثير من الناس

إلى الازدواجية في الحياة، فثلة من الناس يعيشون وكأنهم في عصر مضى، وثلة أخرى منهم كأنها تعيش في عصر لم يأت بعد، فكيف إذاً يلتقي الزوجان وبينهما عصر مديد، الشابُّ يعيش كفافاً، وأهل بعض الفتيات يعيشون إسرافاً، الشابُّ يريد الزواج، وبعض أرباب الفتيات يريدون الفخر والمباهاة.

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني تزوجت امرأة من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: «**على كم تزوجتها؟**» قال: على أربع أواقٍ ـ يعني مائة وستين درهماً ـ فقال له النبي ﷺ: «**على أربع أواق؟! كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل، ما عندنا ما نعطيك. . .**» الحديث [رواه مسلم].

وثَمَّة ممارساتٌ أخرى خاطئة، تفتح مصراعيها إبان تلكم العطل الصيفية، والإجازات السنوية، فها هي جملةٌ من القنوات الفضائية، تعد للعطل عدتها، وتتأهب تأهب الجند لمنازلة العدو، تنافس في العروض، بذلٌ لصور الإغراء والافتتان، مشاهدُ تئد الحياة وتبرز القِحَة، بثٌّ مكثف لما ينقض عُرىٰ تلك الأخلاق والسمات الحميدة التي قد يتلقاها الدارسون طوال العام الدراسي، فتكون تلكم القنوات معاول هدم ماضية، تُفَتِّت ما بقي من الصخر الصلد في النفوس، برامجُ مطلقة، لا تحكمها رقابة الواعين، ولا ضمائر ذوي الغيرة والإدراك للزَّيْنِ والشَّيْن، تجتثُّ آثارُهَا جذورَ

المجتمع من أصولها، شعرنا جميعاً بذلك أو لم نشعر، بل يبث من خلالها ما يكون من دواعي الإخلال بالأمن، سواء أكان أمناً حسيًّا، أو أمناً فكريًّا؛ إذْ تتحكم اللصوصية على أرض الواقع.

والذي ينبغي علينا هنا أن نعلمه جميعاً: هو أن لصوص الفكر والعقول ليسوا أقل خطورة من لصوص الأموال والأعراض، وكلاهما مدعاة للسبهلل والفوضى، المفرِزَيْن للممارسات الشاذة، والإخلال الأمني المرفوض بداهة، والمهدِّد لسفينة الأمان الماخرة!!! الفكرُ الإعلامي هو مقبض رحى المجتمعات المعاصرة، ولب توجيهها الفعَّال، به يبصر الناس، وبه يغرَّبون، به تخدم قضايا المسلمين وتنصر، وبه تطمس حقائقها وتهدر، إذا أردت أن تعرف الأمة الجادة من المستهترة، فانظر إلى إعلامها، فما يكون فيه من كمال واعتدال، فإنه يكون كمالاً واعتدالاً في بنية أمنها الإعلامي، وقُرَّةَ عين لمجموع أفرادها، وما يطرأ عليه من ثقوب وأوخاز، فإنه يكون مرضاً للأمة واعتلالاً، يوردانها موارد الهلكة والتيه.

ألا فاتقوا الله معاشر المسلمين، وحذار حذار من أن تكون هذه العطل الصيفية مأدباتٍ شيطانية، أو صفحاتٍ سوداء في سجل العام، الحافل بالعمل والنشاط والحركة، والبعد عن أجواء الضياع والتهوُّر، والإلقاء بالنفس إلى التهلكة؛ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ

غَزْلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: ٩٢]، واستعيذوا بالله من الحَوْر بعد الكَوْر؛ كما كان النبي ﷺ يستعيذ بالله من ذلك.

قد قلتُ ما قلتُ إنْ صواباً فمن الله، وإنْ خطأً فمن نفسي والشيطان.

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله العلي القدير، اللطيف الخبير، يعلم خائنة الأعين وما تُخْفي الصدور، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومَنْ سار على طريقهم واتَّبع هداهم إلى يوم الدين.

أما بعـــد:

فإن هناك أمراً، هو من الأهمية بمكان؛ إذْ لا يقل عن سابقيه، من الممارساتِ الخاطئة، والمفاهيمِ المغلوطة في ثنايا هذه العطل الصيفية، ألا وهو ذلكم التجوال والتطواف، في أنحاء العالم المترامي الأطراف، من خلال السفر إلى بلاد غير المسلمين، أو إلى بلاد تشبهها، وإن تسمت بالإسلام أو بما يسمى في العرف المعاصر: (بلاِد السياحة الحرة).

ومن المعلوم بداهة أن المرء الجاد الخائف من ربه ووليِّ نعمته ليس لديه متَّسع من الوقت أو الجهد لينفقه فيما يعود عليه بالوبال والخسران، وعلى العكس من ذلك، فإنَّ فئاماً من الناس حَرَصُوا على تضخيم الترويح على النفس والبدن، فظنوا بسبب ذلك أنهم مسجونون في بيوتهم وبلدانهم، استصغروا ما كانوا

يكبرون من قبل، واستنزروا ما كانوا يستغزرون، حتى أَلِفُوا مبادئَ السياحة، بقطع النظر عما يعتريها من الاطلاع على السخف والوقاحة، ومشاهدةِ ما حرم الله ورسوله من كفر وفسق، وعري وسكر، على ضفاف الأنهار، وشواطئ البحار، في بلاد الكفار.

والعاقل من السياح والذي يعرف أن عليه واجبات وفرائض، فإنه قد يضعف في أدائها، أو يؤديها في تخوف على وجه المسارقة والاستحياء، أو يقيم صلواته وسط أماكن الصخب والعطب، فيفقد لذة العبادة والسكينة والطمأنينة، التي لا وجود لها وسط تلك الأماكن الملتهبة، ولله كم أحسَنَ أبوحامد الغزالي في وصفه لأمثال بعض السياح بقوله: «وأما السياحة في الأرض على الدوام، فمن مشوشات القلب، والبعض قد استخفُّوا عقولهم وأديانهم، من حيث لم يكن قصدهم إلا الرياء والسمعة وانتشار الصيت، فلم يكن لهم حكمٌ نافذ، ولا تأديبٌ نافع، فاتخذوا المتنزَّهات، وربما تلقفوا ألفاظاً مزخرفة من أهل الطامّات، فينظرون إلى أنفسهم وقد تشبهوا بالقوم في لفظهم وعاداتهم، ومن آداب ظاهرة في سيرتهم، فيظنون بأنفسهم خيراً وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ويعتقدون أن كل سوداء تمرة، فما أغزر حماقة مَن لا يميِّز بين الشحم والورم؟! فهؤلاء بُغَضَاءُ الله؛ فإن الله يبغض الشاب الفارغ، ولم يحملهم على السياحة إلا الشباب والفراغ». انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد نقل ابن مفلح عن ابن الجوزي رحمهما الله قوله: «السياحة في الأرض لا لمقصود كعلم أو دعوة أو نحو ذلك: منهيٌّ عنه. وقال الإمام أحمد: ما السياحة من الإسلام في شيء، ولا هي من فعل النبيين ولا الصالحين؛ ولأن السفر يشتت القلب. وقد سئل مرة: ما تقول في السياحة؟ قال: لا، الترويحُ ولزومُ المسجد».

ألا فاتقوا الله معاشر المسلمين، وانظروا في واقعكم اليوم، تجاه هذه العطل والإجازات، وليكن لكم مواقف جادة، في إيجاد الكيفية المناسبة للإفادة منها، وحفظ الأوقات فيها، وجعل الحديث عنها لا يقلُّ أهمية عن أي أحاديث أخرى في برامج الناس العامة، وظواهرهم المستشرية؛ لأن البيت والمجتمع والإعلام، كلهم خاضعون لحدود الله، ومتى تجاوزت الأمة في بيتها وإعلامها هذه الحدود يوماً ما، فما قدَّرت الله حق قدره.

ولأجل أن ندرك أهمية هذه المسألة، فإنه يجب علينا أن نعلم أن مواقعي هذه العطل على اختلاف مشاربهم، لن يخرج أحد منهم عن سؤال من خمسة أسئلة، إن لم يُسْأَلْ عنها كلها، ألا وهي قول النبي ﷺ: «**لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسْأَل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم**» [رواه الترمذي].

اللهم صَلِّ على محمد...

بين عبودية البشر، وعبودية الكائنات

الخطبة الأولى:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ [الكهف: ١، ٢]، **وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كرَّم بني آدم، وحملهم في البر والبحر، ورزقهم من الطيبات، وفضَّلهم على كثيرٍ ممَّن خلق تفضيلا، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، وخيرته من خلقه، تركنا على المحجَّة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ومَن سار على طريقهم واتَّبع هُداهم إلى يوم الدين.**

أما بعــد:

فـاتقـوا الله أيهـا المسلمـون، وراقبـوه فـي السرِّ والنجوىٰ، والخَلْوة والجَلْوة، فـ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٥، ٦].

عباد الله، إن الباري سبحانه وتعالى بحكمته وعلمه خلق هذا

الكون علويَّه وسفليَّه، ظاهره وباطنه، وأودعه من الموجودات، الملائكة والإنس والجن، والحيوان والنبات والجمادات، وغيرها من الموجودات التي لا يعلمها إلا هو؛ كل ذلك لأجل أمر واحد لا ثاني له، ولأجل حقيقة كبرىٰ لا حقيقة وراءها، إنه لأجل أن تكون العبودية له وحده دون سواه، ولأجل أن تعترف هذه الموجودات بربوبيته، وتحقِّق ألوهيته، وتقر بفقرها واحتياجها وخضوعها له جل شأنه، ومن ثَمَّ فإن تحقيق العبودية، لا يمكن أن يبلغ مكانه الصحيح، إلا بتحقيق الطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم؛ ليكون الدين لله، والحكم لله، والدعوة إلى الله، كل ذلك يقوم به من جعلهم الله مستَخْلَفين في الأرض مستعمرين فيها.

ومثل هذا لا يتم لبني الإنسان بين سائر المخلوقات، إلا من خلال قول اللسان والقلب وعمل القلب والجوارح على حدٍّ سواء، كما أنه لا يمكن إتمام العبودية على أكمل وجه إلا بتكميل مقام غاية الذُّلِّ والانقياد، مع غاية المحبة لله سبحانه؛ فأكمل الخلق عبودية لله هو أكملهم له ذُلاً وانقياداً وطاعة؛ إذْ هذه هي الذلة لله ولعزته وقهره وربوبيته وإحسانه وإنعامه على ابن آدم. وجِماع العبودية عباد الله: أنها هي الدين؛ فالدين عند الله الإسلام، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وهذا هو سر خلق الله للخلق، وغايةُ إيجاده لهم على هذه البسيطة،

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦].

أيها المسلمون، يقول الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ويقول عائباً فئةً من البشر، غافلة ساهية، لم تأخذ العبرة والعظة، مما تشاهده ليلاً ونهاراً في أنحاء هذا الكون المعمور: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥، ١٠٦]، فيا سبحان الله، أفلا يرون الكواكبَ الزاهرات، والأفلاكَ الدائرات، والجميع بأمره مسخرات، وكم في الأرض من قطعٍ متجاورات، وحدائقَ وجنات، وجبالٍ راسيات، وبحارٍ زاخرات، وأمواجٍ متلاطمات، وقفارٍ شاسعات، ثم هم يجعلون لله البنات، ويعبدون مِنْ دونه من هو كالعزى واللات، فسبحان الواحد الأحد خالق جميع المخلوقات.

وثَمَّ أمرٌ لذي اللب المتأمل، يجعل العجب يأخذ من نفسه كل مأخذ، حينما يرى أمر هذا الكائن البشري، وهو ينكص على عقبيه ويولي الدبر، منصرفاً عن عبودية خالقه ومولاه، منشغلاً بالأولى عن الأخرى، والفاني عن الباقي، يتقلَّب بين الملذات والشهوات، ملتحفاً بأكنافها، بعد أن أكرمه الله وكرَّمه، وحمَلَهُ في

البر والبحر، وفضَّله على كثير ممن خلق تفضيلاً، وبعد أن أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وبعد أن خلقه وصوَّره وشقَّ سمعه وبصره، ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ومع ذلك يستكبر الإنسان، ويكفر الإنسان، ويجهل الإنسان، ويقتُرُ الإنسان، ويجادل الإنسان، فيقول الله عنه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٥]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢].

وقد كان الأجدر بهذا الإنسان وقد أكرمه الله ونعَّمه، أن يكون عابداً لا غافلاً، طائعاً لا عاصياً، مقبلاً إلى ربه لا مُدْبِراً، شكوراً لا كفوراً، محسناً لا ظالماً.

إن المتأمل في كثير من المخلوقات في هذا العالم المشهود، ليرىٰ أنها لم تحظ من العناية والرعاية والعمارة والاستخلاف، كما أُعْطِيَ الإنسان، ولا كلفت كتكليف ابن آدم، بل جعلها الله خادمة مسخرة له؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، بل حتى الملائكة سخَّرها لابن آدم؛ فجعل منهم الكَتَبَةَ عليهم، والدافعين عنهم من معقِّبات من بين أيديهم ومن خلفهم يحفظونهم

من أمر الله، وجعَلَ منهم المسخَّرين لإرسال الريح والمطر؛ كما جعل الله من أكبر وظائفهم الاستغفار لبني آدم؛ ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٥، ٦].

ومع ذلك عباد الله؛ فإن هذه المخلوقات عدا ابن آدم، قد كملت في عبوديتها لله جل شأنه، وخضوعها له وذلها لقهره وربوبيته وألوهيته، إلا بعض المخلوقات العاصية؛ كالشياطين وعُصَاة الجن، وبعضَ الدواب؛ كالوَزَغ والذي قال عنه النبي ﷺ: «اقتلوا الوَزَغَ؛ فإنه كان ينفُخُ النارَ على أبينا إبراهيم» [رواه أحمد]، غير أن أولئك مع عصيانهم إلا أنهم لا يبلغون مبلغَ عصيان بعض بني آدم، وما ذاك إلا لأنه قد وجد في بني آدم من يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، ووجد منهم من يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، ووجد منهم مَن يقول: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ووجد مَن يقول: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، ووجد منهم مَن يقول عن القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]، ومن يقول: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، ناهيكم عباد الله عمَّن يقول: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ

كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة: ٦٤]، ومَن يجعل ﴿ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ [الزخرف: ١٩]، فكيف إذن بمن يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [آل عمران: ١٨١]؟!

وهكذا عباد الله، تمتد حبال الطغيان والجبروت في بني الإنسان إلى أن يخرج مَن يقول: إن الشريعة الإسلامية غير صالحة لكل زمان ومكان، أو مَن يقول بفصل الدين عن الدولة؛ فلا سياسة في الدين ولا دين في السياسة، أو مَن يقول: الدين لله والوطن للجميع، أو: دَعْ ما لله لله، وما لقيصر لقيصر، أو مَن يصف الدين بالرجعية، والحدودَ والتعزيراتِ بالهمجية والغِلْظة، أو أن يصفه بالمقيِّد للمرأة، والظالمِ لها، والمحجر على هويتها، أو مَن يرى حريتها وفكاكها من أسرها إنما يتمثل في خروجها من حدود ربها وإعلان عصيانها لشريعة خالقها، وجعلها نهباً لكل سارق، وإناءً لكل والغ، ولقيطاً لكل لاقط، جسداً للإغراء والمتاجرة، وحب شيوع الفاحشة في الذين آمنوا.

هذه هي بعض مقولات بني الإنسان، فهل من التفاتة ناضجة، إلى مواقف إبليس اللعين في كتاب ربنا لأجل أن ترَوْا، هل تجدونه قال شيئاً من ذلك غير أنه وعد بالغواية؛ بل إن غاية

أمره أنه فضَّل جنسه على جنس آدم؛ فاستكبر عن السجود لمَن خلق طيناً؛ بل إنه قد قال لبعض البشر: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، فلله ما أعظم عصيان بني آدم، وما أشد استكباره، ومكره السيئ؛ ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

ويؤكِّد الباري جلَّ شأنه، حقيقة عصيان بعض بني آدم من بين سائر المخلوقات، واستنكافهم أن يكونوا عبيداً لله الذي خلقهم وفطَرهم، فقال سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩﴾ [الحج: ١٨]؛ فدلَّ على أن أكثر بني آدم عُصاة مستكبرون ضالون، ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

أيها المسلمون، من أجل أن نصلَ وإياكم إلى غاية واحدة، وهي استشعار عبوديتنا لله سبحانه وتعالى، وأن منا مفرطين ومستنكفين، وأن مَن أطاع اللهَ بشيء من العمل أخذه الإعجابُ

بنفسه كلَّ مأخذ، وأقنع نفسه ومجتمعه بأنه يعيش أجواء الأمن والأمان والاستقامة والهداية، وأنه أدَّىٰ ما عليه؛ فليس هناك دواعٍ معقولة للتصحيح والارتقاء بالنفس إلى البلغة المرجوة.

إنه لأجل أن نعلم ذلك، ولأجل أن نزدري عملنا مهما كان صالحاً في مقابل أعمال المخلوقات الأخرىٰ من جماد ونبات وحيوان: فإن من المستحسن هنا أن نسلط الحديث على أمثلة متنوعة لمخلوقات الله سبحانه؛ لنبرهن من خلالها الهوة السحيقة بيننا وبينهم في كمال العبودية لله والطاعة المطلقة له.

فمن ذلك: ما ألهم الله به بعضَ مخلوقاته من استشعار عقيدة التوحيد وذم الشرك في ألوهيته جل وعلا، وذلك من خلال ما ذكره الله جلَّ وعلا عن هدهد سليمان عليه السلام حينما أنكر ما عليه أهلُ سبأ من الكفر بالله والشرك به، إضافةً إلى دعوته لتوحيد الله سبحانه؛ فقد قال الله تعالى عن الهدهد الذي جاء من سبأ بنبأ يقين: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾ [النمل: ٢٤ ـ ٢٦].

ومن ذلك عباد الله: ما أودعه الباري سبحانه بعض الجمادات من الغَيْرة على دينه، والتأذي من انتهاك ابن آدم لحرمات الله

سبحانه؛ ففي الحديث أن النبي ﷺ مُرَّ عليه بجنازة، فقال: «مستريحٌ ومستراحٌ منه»، فقالوا: يا رسول الله، ما المستريحُ وما المستراحُ منه؟ قال: «**إنَّ العبد المؤمن يستريحُ من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله تعالى، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب**» [رواه البخاري]، فانظروا يا رعاكم الله، كيف يتأذَّى الشجر والدواب من الرجل الفاجر، وما يحدثه في الأرض من فساد وتخريب، وإعلان المعصية لله تعالى والتي لا يقتصر شؤمها على ابن آدم فحسب؟! وفي مقابل ذلك: فإن بعض الدواب تفرح بالتدين، وتشعر بأثره في ابن آدم وبركته على وجه الأرض؛ فلذلك هي تدعو له وتصلِّي عليه وتستغفر له؛ فقد روى الترمذي في «جامعه» أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ الله وملائكته وأهلَ السموات والأرض، حتى النملة في جحرها وحتى الحوت، لَيُصَلُّونَ على مُعَلِّم الناس الخير**».

بل إن الدواب جميعاً لتشفق من يوم القيامة وتَفْرَقُ من قيام الساعة خوفاً من هولها وعرصاتها؛ فقد قال النبي ﷺ: «**ما من دابة إلا وهي مُصْغِيَةٌ يوم الجمعة خشيةَ أن تقوم الساعة**» [رواه أحمد]، والمصغية هي المنصتة.

ولقد ورد أيضاً ما يدل على عبودية الدِّيك لله، ودعوته

للفلاح والخير؛ فقد قال النبي ﷺ: «لا تسبوا الديك؛ فإنه يدعو إلى الصلاة» [رواه أحمد وأبوداود].

وقد روى الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه ليس من فرس عربي إلا يُؤْذَنُ له مع كل فجر يدعو بدعوة يقول: اللهمَّ إنك خوَّلتني مَنْ خوَّلتني من بني آدم؛ فاجعلني مِنْ أحبِّ أهله وماله إليه، فيقول ﷺ: إن هذا الفرَسَ قد استجيبَ له دعوته» [رواه أحمد].

وأما النمل يا رعاكم، فتلك أمة من الأُمم المسبِّحة لله سبحانه، مع صغر خلقتها، وهوان حالها، وازدراء البشر لها، وهي التي قال الله عنها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، هذه النملة يقول النبي ﷺ عنها: «قرصَتْ نملةٌ نبيًّا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقَتْ، فأوحى الله إليه أفي أنْ قرصَتْكَ نملةٌ أحرقْتَ أمةً من الأُمم تسبِّح الله» [رواه البخاري].

وأما الشجر وهو من النبات عباد الله، فقد قال الله عنه: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦]، وروى ابن ماجه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مُلَبٍّ يُلَبِّي إلاَّ لَبَّىٰ ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مَدَر حتى تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا».

وأما ولاء الحجر والشجر للمؤمنين ونصرته لدين الله، حينما يستنطقه خالقه، فينبئ عن عمق عبوديته لربه، وغيرته على دينه؛

فإن رسول الله ﷺ قد قال عنه: «**لا تقومُ الساعة حتى يُقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبدالله، هذا يهودي خلفي تعالَ فاقتله**» [رواه البخاري].

فانظروا يا رعاكم الله إلى هذه المخلوقات الآنفة، إضافةً إلى الجبال الراسيات، والأوتاد الشامخات؛ كيف تُسَبِّح بحمد الله وتخشع له، وتُشْفِق وتهبط من خشية الله وهي التي خافت من ربها وخالقها، إذْ عرض عليها الأمانة فأشفقَتْ من حملها؟! وكيف أنه تدكدَكَ الجبلُ لمَّا تجلَّى ربنا لموسى عليه السلام؟! فهذه حال الجبال وهي الحجارة الصلبة، وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته، وقد أخبر الله أنه لو أنزل عليها القرآن لتصدَّعت من خشية الله، فيا عجباً من مضغة لحم أقسى من صخر صلد، تسمع آيات الله تتلى عليها ثم تصر مستكبرة كأن لم تسمعها، كأن في أذنيها وقراً فهي لا تلين ولا تخشع!! ولكن صدق الله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

❊ ❊ ❊

الخطبة الثانية

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيماً لشانه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه.

أما بعــد:

فيا أيها الناس، تكلَّم ذئب كلاماً عجباً، إبان حياة النبي ﷺ، كلاماً يفيد بأن الذئب يؤمن بأن الرزق من عند الله، بل قد أمر هذا الذئب راعي الغنم بتقوى الله سبحانه، إضافةً إلى علم الذئب بنبوّة محمد ﷺ ورسالته؛ فلقد أخرج أحمد في «مسنده» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: عدا الذئبُ على شاة فأخذها، فطلبه الراعي فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذَنَبه، قال: ألا تتقي الله، تنزعُ مني رزقاً ساقه الله إليَّ، فقال: يا عجبي، ذئبٌ مُقْعٍ على ذنبه يكلِّمني كلام الناس؟ فقال الذئب: ألا أخبرُكَ بأعجبَ من ذلك؟ محمدٌ ﷺ بيثرب يُخْبِرُ الناس بأنباء ما قد سبق...» الحديث، وفي رواية للبخاري: «فقال الناس: سبحان الله!! ذئب يتكلم، فقال النبي ﷺ: **فإني أومنُ بذلك أنا وأبوبكر وعمر**».

فاتقوا الله أيها المسلمون، واقدروه حق قدره، واستشعروا أثر

عبودية الجماد والنبات والحيوان وكمالها لله تعالى، وهي أقل منكم فضلاً وتكريماً، واعلموا أنكم مقصِّرون مهما بلغتم، وظالمون لأنفسكم مهما ادَّعيتم القصد أو الكمال؛ فإنَّ بُعْدَ البشر عن الحقيقة، وضعف يقينهم بالآمر الناهي، وغلبة شهواتهم مع الغفلة، تلك كلُّها تحتاج إلى جهاد أعظم من جهاد غيرهم من المخلوقات الطائعة المسبِّحة لله.

يصبح أحدنا، وخطاب الشرع يقول له: استقم في عبادتك، واحذر من معصيتك، وتنبَّه في كسبك، وقد قيل قبل للخليل عليه السلام: اذبحْ ولدك بيدك، واقطَعْ ثمرة فؤادك بكفِّك، ثم قم إلى المنجنيق لترمَىٰ في النار، ويُقال للغضبان: اكظم، وللبصير: اغضض، ولذي المقول: اصمت، ولمستلذ النوم: تهجَّد، ولمَن مات حبيبه: اصبر، وللواقف في الجهاد بين الغَمَراتِ: لا يحلُّ لك أن تَفِرّ، وإذا وقع بك مرض، فلا تشك لغير الله.

فـاعـرفـوا أيهـا المسلمـون شـرف أقـدار بنـي آدم بهـذا الاستخلاف، وصونوا هذا الجوهر بالعبودية الحقَّة، عن تدنيسها بشؤم الذنوب، ولؤم التفريط في الطاعة، واحذروا أن تحطكم الذنوب إلى حضيض أوهد، فتخطفكم الطير أو تهوي بكم الريح في مكان سحيق؛ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، والعجب عباد الله ليس من بعض المخلوقات، ذُلِّلَ لها

الطريق فلا تعرف إلا الله، ولا العجب من الماء إذا جرى، أو من متحدر يسرع، ولكن العجب من مُصَّاعد يشق الطريق شقًّا، ويغالب العقبات معالجة، ويتكَفَّأ الريح إقبالاً، ولا عجب فيمن هلك كيف هلك، ولكن العجب فيمن نجا كيف نجا؟! ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥]، والعبد كلما ذلَّ لله، وعظم افتقاراً إليه، وخضوعاً له، كان أقرب له وأعز وأعظم لقدره، فأسعدُ الخلق أعظمهم عبودية لله.

يقول النبي ﷺ: «**قال الله سبحانه وتعالى: يا ابن آدم، تفرَّغْ لعبادتي أملأْ صدرك غنًى، وأَسُدَّ فقرك، وإن لم تفعلْ ملأتُ صدرك شغلاً ولم أسدَّ فقرك**» [رواه ابن ماجه].

اللهم صَلِّ على محمد. . .

* * *

آفة العصر الحزن والاكتئاب

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي خَلَقَ فسوَّىٰ، وقَدَّرَ فهدى، الذي أخرج المرعىٰ، فجعله غُثاءً أحوىٰ، سبحانه هو أماتَ وأَحيا، وأضحك وأبكىٰ، أنزل علينا الكتاب والفرقان؛ ليهلك مَن هلكَ عن بيّنة، ويحيا مَن حَيَّ عن بيّنة، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الداعي إلى الله على بصيرة هو ومَن اتَّبعه، بلَّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونَصَحَ الأُمَّة، وجاهدَ في الله حقَّ جِهَادِهِ حتى أتاه اليقين، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ومَن سارَ على طريقهم واقتفىٰ.

أما بعــد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله سبحانه؛ فإن فيها العِزَّ بعد الذُّل، وبها الأمن بعد الخوف، والنجاة يوم الورود؛ ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

عباد الله، إن مَن يتحسَّس واقع الناس بعامة، وواقع المسلمين على وجه الخصوص، في زمن كثرت فيه المعارف، وقلَّ فيه العارف، زمنٌ بلغتْ فيه آلياته أَوْجَ تقدمها، ونالت الحضارة المادية فيه شأواً

بالغاً، زمنٌ هو غاية في السرعة المهولة، سرعةٌ اقتصادية، وأخرى طبية، وثالثةٌ عسكرية ومعرفية، إن مَنْ يتحسَّس هذا الواقع على وجه الإنصاف والوضوح، فسيمثُلُ أمامه أن هذه المسارعة بقضها وقضيضها، لم تكن كفيلةً في إيجاد الإنسان الواعي، الإنسان المُدْرِك لحقيقة وجوده على هذه البسيطة.

نعم عباد الله، هذه هي الحقيقة مهما امتدَّت حبال هذا التقدم العصري؛ وإلا فمَنْ يخبرنا عن سر انتشار الجهل، وتضلعه في عصر المعلومات؟! وما هو سر شيوع الفقر والمسكنة في عصر الكنوز والغِنىٰ؟! وما سر سيطرة البطالة في عصر الإنتاج والصناعة؟! وقولوا مثل ذلك متسائلين: ما هو سِرُّ وصف بعض الباحثين في الشؤون الاجتماعية على المستوى العالمي هذا العصر، بعصر الحزن والاكتئاب؟! بعد أن أطلق على فترة قريبة منه سابقة عصر القلق؟! إننا في الحقيقة، لسنا بحاجة إلى مزيد أدلة تؤكِّد ما يكابده هذا العصر من تغلغل هذه الظاهرة واستشرائها.

الحزن والاكتئاب عباد الله، هما آفة العصر المدمِّرة، وهي أوسع الآفات النفسية انتشاراً في العالم، وأكثرها لدى الناس شكاية إلا ما شاء الله، وهي لا تزال في ازدياد ملحوظ كلما ازدادت الإصابة بها.

ثم إن المترقب لآخر الإحصائيات الصحية العالمية، ليجد أن ما يقارب عشرة بالمائة من سكان العالم، يعانون من آفة الحزن والاكتئاب بما في ذلكم بلاد المسلمين، وهذا يعني بداهة، وجود مئات الملايين

من البشر في معاناة مع هذا الواقع المرير، وقد أسفرت هذه الإحصاءات أيضاً عن أن الأجيال التي ولدتْ في هذه العقود الأخيرة، يبدأ عندها هذا الحزن والاكتئاب في سن أصغر وبمعدلات أكبر، نظراً للعوامل الاجتماعية التي تخللت تلك الجسوم بسبب تهلهلها وضياع الأثر البيئي الناضج فيها، كما وجد أن هذا الداء، ينتشر بشكل عام بين الإناث أكثر من انتشاره بين الذكور بنسبة تصل إلى الضعف تقريباً، وذلك بسبب فقدان الوظيفة الحقيقية للمرأة، وتحميلها ما لا تطيقه، من أعباء حياتية، أودتْ بها إلى ترك بيتها، والزجٍّ بطفلها بين أحضان الخادمات، وعقول المربيات الأجنبيات.

بل لقد بلغت حالات الانتحار بسبب الحزن والاكتئاب الشديد، ما يزيد على ثمانمائة ألف شخص في العالم كل عام، ناهيكم عن كون ثمانين بالمائة من المصابين به، لا يذهبون إلى الأطباء، ولا يكشفون عن حقيقة حالهم، وهنا مكمن العجب.

إن هذه الظاهرة عباد الله، ليست وليدةَ هذا العصر، ولا هي من الأدواء التي لا يعرف لها ما يقاومها، أو يزيلُ عمق وجودها في المجتمعات، كلا، بل هي ظاهرة مرهونة بمدى انغماس الكثرة الكاثرة في متاع الحياة الدنيا، وسيطرة النظرة المادية الصرفة، ثم إنَّ تفاوُتَ المجتمعات في درجات هذه الظاهرة ليكمُنُ في مدى إيمانها بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقَدَرِ خيره وشره، ثم في استقامة السلوك الاجتماعي بأمنه وإعلامه وتعليمه، واستقرارِ العدل

والمساواة والمحبة، والبعد عن الأثرة وحبِّ الذات، وهَلُمَّ جرًّا.

لقد سيطرت هذه الظاهرة سيطرة مزدوجة، على اهتمامات وأبحاث الكاتبين عنها، من بُحَّاثٍ شرعيين، وأطباء نفسيين، وآخرين من صحفيين نقلة، ولربما تناولتها الأقلام باللت والعجن بين الحين والآخر، غير أن هذه المطارحات، على تنوعها واختلاف منطلقاتها، لم توفق في أن تجتمع تحت مظلَّة واحدة، تجمع في علاج هذه الظاهرة بين الأصالة والمعاصرة، بين الطب الشرعي الروحاني، وبين الطب النفسي الإكلينيكي الموثق، والذي يقوم عليه متخصِّصون من ذوي الأمانة والغَيْرة، ممن يُخْضِعون دراساتهم في الطب النفسي للشريعة الغرَّاء، بعيداً عن النظريات المادية البحتة المتجرِّدة عن معاني الروح والسمو.

عباد الله، الحُزْن في لغة العرب: مأخوذ من الحَزَن، وهو الاغتمام، يُقال: حزن الرجل: إذا اغتم. وهذا الحزن يعد أحد صور العاطفة والمشاعر الإنسانية الفطرية، التي تسيطر على الإنسان، فإذا ما اشتدت عليه اشتداداً تتغيَّر به نفسه وتنكسر، فإنه حينئذٍ يسمى اكتئاباً، وهو أيضاً إحساس عاطفي، يعد قمة الحزن وغايته؛ حيث يجعل الفرد نهباً لشعوره الداخلي، الذي يورث الفشل وخيبة الأمل، واختفاء الهشاشة والبشاشة، والحبور والانشراح، مع انفعالات ممزوجة بالآهات والزفرات، حتى تعزف النفس بسبب ذلك عن بذل أي نشاط حيوي، بل ولربما عزفت عن الحياة بالكلية؛ ليكون الانتحار هو الحلَّ

الوحيد للمصاب بهذه الأزمة والعياذ بالله. في حين إنه لو سَلِمَ مِنْ قتل نفسه والقضاء عليها، فلا أقلَّ من أن تصيبه لوثة بعض الأمراض المصاحبة لها؛ كأمثال القُرْحةِ وآلامِ المفاصل والأرق والصداع وغير ذلك.

وقد قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أربعةٌ تهدم البدن: الهمّ، والحزن، والجوع، والسهر.

إن أهمية التطبب النفسي، من خلال عرض الفرص العلاجية، عبر جوانب إيمانية من كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ لعلة الحزن والاكتئاب لتكمُنُ في كونهما البديل الأفضل والأكمل والأسلم، لمئات من أنواع الأدوية والعقاقير المهدئة، والكيوفات المؤقتة التي قد يتعوَّد عليها الجسم فتتحول مرضاً أفتك من الحزن والاكتئاب ذاته.

ثم إن العلاج الشرعي الروحاني على وجه العموم، قد يفوق العلاج السريري لهذه الظاهرة الفتاكة بمرات كثيرة، وإذا كان هناك برامج في الطب النفسي تشير إلى أن في السباحة المائية، ومزاولة الأعمال المنزلية بصفة متكررة، علاجاً لهذه الأزمة، فإننا معاشر المسلمين، لا يمكن أن نتصور كون الفرد سابحاً عاملاً في منزله ليلاً ونهاراً، ولكنْ يمكننا أن نتصور هذا الفرد متعبداً مسبِّحاً مستغفراً ليله ونهاره، قيامه وقعوده وعلى جنبه، ولا جرم فقد وصَفَ الله أولي الألباب بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩١]؛ ومن هنا يأتي تفاضل الأدوية الشرعية الروحانية،

على المادِّية السريرية، رغم أهميتها وعدم إغفال دورها الفعَّال في بعض الأحايين.

وبعد يا رعاكم الله، فلسائل أن يسأل ويقول: قد عرفنا صورة هذه الأزمة، ولكن ما أسبابها الظاهرة، وما علاجها المرجو؟

فنقول: إن هناك أسباباً طبية بحتة، لا يمكن تجاهلها إزاء المصابين بالحزن والاكتئاب:

ومن أشهر هذه الأسباب: كثرةُ تعاطي الأدوية والعقاقير التي تؤدي بدورها إلى تغيرات كيميائية في الدماغ، الناتج عنها الإصابة بالاكتئاب نفسه.

ومن ذلك أيضاً: تعاطي المخدرات والمسكرات، المؤدِّية إلى الإدمان المروع، والإحساس بأن الحياة لا شيء بدون معاقرتها.

ومن ذلك: العوامل الوراثية، وبعض الأمراض العضوية!!

لكن الذي يعنينا هنا من على هذا المنبر، هي تلكم الأسباب، التي تناولتها الشريعة الغرَّاء، من خلال ذمها والتحذير منها في غير ما آية أو حديث، لكافة شؤون الدين والدنيا:

فقد جاء في القرآن ما يدلُّ على أن خواء القلب من ذكر الله، ويبس اللسان منه، أمارةٌ من أمارات الضيق والنكد، والحزن وكسف البال؛ فقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

وقد جاء في السُّنَّة ما يدل على أن مواقعة المعاصي والاستهانة

بها، سبب رئيس من أسباب حلول هذا البلاء؛ فقد قال ﷺ: **«إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكنْ له ما يكفِّرها من العمل، ابتلاه الله عز وجل بالحزن ليكفِّرها عنه»** [رواه أحمد].

ومن أسباب ذلك أيضاً: قلَقُ كثيرٍ من الناس، وخواءُ أفئدتهم من الإيمان بالله، وبقضائه وقدره، وفزعُهُمْ من المستقبل المجهول، والشعورُ بالوهن عن حمل المصائب وتحمُّلِ المشاق، فتجدون أمثال هؤلاء قوماً يفرقون؛ ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٧].

ومن أسباب ذلك عباد الله: إجلاب الشيطان بخيله ورجله على ابن آدم، فيوسوس إليه ليخنس، ويقذف في قلبه الحزن والكآبة، من خلال تشويشه بكم هائل من الأحلام الشيطانية في المنام حتى تصبح في حياة الفرد هاجساً مقلقاً عند كل غمضة عين؛ ولذلك يصاب المكتئب بالأرق المزمن وقلة النوم؛ وقد صح عند مسلم أن النبي ﷺ ذَكَرَ نوعاً من الرؤى وهي التي تكون تحزيناً من الشيطان يحزن بها ابن آدم.

وسبب آخر من أسباب هذه الأزمة، يبرز من خلال كثرة الديون والحمالات المالية، مع العجز والكسل عن إيفائها، أو الجبن والبخل، الذي يصيبُ المرء حينما يبتلى بالفرق وسعار الكانز؛ ومما يدل على أن هذا الأمر يعد أساساً في حدوث مثل هذه الظاهرة: ما رواه أبو داود في سننه: **«أن النبي ﷺ دخل المسجد ذات يوم، فإذا هو برجل**

من الأنصار يُقَالُ له: أبو أمامة، فقال: يا أبا أُمَامَة، ما لي أراك جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة؟ قال: هموم لزمتني وديون يا رسول الله، قال: أفلا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله همَّك وقضى عنك دينك؟ قال: بلىٰ يا رسول الله، قال: قل إذا أصبحْتَ وإذا أمسيْتَ: اللهمَّ إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غَلَبَة الدين وقهر الرجال. قال أبو أمامة: ففعلتُ ذلك فأذهَبَ الله همِّي وقضىٰ عني ديني».

هذه بعض الأسباب لا كلها، وقد رأينا صلتها الوثيقة بما جاء التحذير عنه في ملتنا السمحة، ومنهاجنا الأغر، في حين أن جماع هذه الأسباب هو البُعد عن هداية الله والاستقامة على طريقه، والتعلُّق بالأسباب الدنيوية بعيداً عن مسبِّبها سبحانه، ومن تعلق شيئاً فقد وُكِلَ إليه، ومَنْ وُكِلَ إلى غير الله، فقد وُكِلَ إلى ضيعة وخراب؛ ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على مَن لا نبيَّ بعده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعــد:

فيا أيها الناس، من باب أن نوجد شيئاً من التكامل ولو كان مقتضباً، حول الحديث عن ظاهرة الحزن والاكتئاب، فإنه من اللازم لنا أن نشير بلمحة سريعة إلى أنجع الأدوية الشرعية الروحانية، والتي لها أثر فعَّال من خلال نصوص الشارع، والواقع المجرَّب، حتى من أخصائيي الطب النفسي أنفسهم؛ ناهيكم عمَّا بسطه أطباء القلوب وصيارفته، من علماء إسلاميين، هم قطب الرحى والقدح المعلَّى في هذا المضمار.

فأول هذه الأدوية مكانةً: هو قيام الأمة في مجموعها بما فرض الله عليها من الجهاد والدعوة إلى الله، والحذر من متاع الدنيا وزينتها؛ إذ بمثل ذلك يكون الانشراح والطمأنينة، ويزول الضعف والضنك؛ يقول الرسول ﷺ: «**إذا ضَنَّ الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعِينَةِ، وتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، أنزل الله بهم ذُلاً فلم يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم**» [رواه أحمد].

وأخرج الطبراني مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: «عليكم

بالجهاد؛ فإنه بابٌ من أبواب الجنة، يدفع الله به عن النفوس الهم والغم»، ولقد صدق الله إذ يقول: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

ودواء آخر للحُزْنِ والاكتئاب عباد الله: يكمُنُ في الموقف الصحيح مع القضاء والقدر، وبلوغ منزلة إيمان العبد بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الأمور بيد الله مقاديرها؛ فليس يأتيه منهيُّها، ولا قاصر عنه مأمورها، وأن الأرزاق مقسومة، والآجال محتومة، وأن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها؛ فالمرء يتوكَّل على ربه دون توتر ولا ريبة ولا قلق؛ إذ بمثل هذا يستقبل الدنيا بشجاعة ويقين، ولسان حاله يقول كما قال علي بن أبي طالب: أي يومي من الموت أفر، يوم لا يقدر أو يوم قدر، يوم لا يقدر لا أحذره، ومن المقدور لا ينجو الحذر.

ومن الأدوية عباد الله: تحقيق الرضا عن الله سبحانه؛ إذ هو المحَكُّ أمام العبد؛ فمن قلَّ رضاه عن الله، صار مرتعاً للأوهام والأحزان والأدواء، وقد سُئِل الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من أين أُتِيَ هذا الخَلْق؟ فقال: من قلة الرضا عن الله، ونقل أبوحاتم البستي عن بعض السلف قوله: لا أعلم درجة أشرفَ ولا أرفع من الرضا، وهو رأس المحبة؛ ولذلك دعا به زكريا لولده فقال: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦]، والرضا عن الله: لا يكونُ إلا باستحضار العبد لحكمة الله في الأقدار، وأنه لا يعطي ولا يمنع إلا لحكمة بالغة، ممَّا يهون على

المرء ما يلاقيه من المصائب والأقدار المؤلمة، بل حتى في حال الفرح؛ كما قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، ويدل لذلك قول النبي ﷺ حين وفاة ابنه إبراهيم: **«تدمعُ العينُ، ويحزنُ القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، ولولا أنه وعدٌ صادق، وموعودٌ جامع، وأنَّ الآخر منا يتبع الأول، لوجدنا عليك يا إبراهيم وجداً، وإنَّا بك يا إبراهيم لمحزونون»** [رواه البيهقي وابن ماجه]، فهو ﷺ يعني بذلك: لولا أنه يعلم أن لله حكمةً في قبضه لحزن حزناً شديداً.

ومن الأدوية أيضاً: كثرة التسبيح والسجود والعبادة، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۝٩٨ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٩]، وقد كان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة وكان يقول: **«من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب»** [رواه النسائي وغيره].

ومن الأدوية كذلك: ما يسمى بـ«التلبينة»: وهي طعام يصنع من حساء من دقيق أو نخالة، ويجعل فيه عسل أو لبن، أو كلاهما؛ لما رواه الشيخان من حديث عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: **«إن التلبينة تجمُّ فؤاد المريض، وتذهبُ ببعض الحزن»**، وقوله: **«تجم فؤاد المريض»** أي: تريحه.

ثم نختم أيها المسلمون هذه الأدوية بوصية النبي ﷺ فيما رواه أحمد في «مسنده»: أن النبي ﷺ قال: **«ما قال عبد قطُّ إذا أصابه هم**

وحزن: اللهم، إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميتَ به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب هَمِّي، إلا أذهب الله عز وجل همَّه، وأبدله مكان حزنه فرحاً، قالوا: يا رسول الله، ينبغي لنا أن نتعلَّم هؤلاء الكلمات؟ قال: أجل، ينبغي لِمَنْ سمعهنَّ أن يتعلمهنَّ».

هذه بعض الأدوية الناجعة، وهي شذرات وقطرات، مفادها تشخيص هذه الظاهرة والتذكير بها؛ فالجزءُ دليلٌ على الكل، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله.

اللهم صَلِّ على محمد...

* * *

(الرؤى) سلطان المنامات

الخطبة الأولى:

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، خير مَنْ ركع لله وسجد، وأفضلُ مَنْ دعا إلى طريق الحق والرَّشَد، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعلى من سار على طريقهم واتَّبع هُداهم إلى يوم الدين.

أما بعــد:

فاتقوا الله معاشر المسلمين، واعلموا أن هذه الدنيا دار ممر، وأن الآخرة هي دار القرار؛ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

أيها الناس، إن لبني آدم وَلَعًا بالِغًا، وشغفاً ثائراً، فيما يتعلق بالأمور الغيبية، الماضي منها واللاحق، ثم إن إنكار هذه الظاهرة لهُوَ ضرب من ضروب تجاهل الواقع والنأي عنه، غير أن تراوح هذه الظاهرة صعوداً وهبوطاً يعد مرهوناً بمدى قرب الناس من مشكاة النبوة، والشرعة الحقة، التي أحكمتْ هذا الباب، وأخبر الله من خلالها بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

ولا غرو حينئذٍ إذا وجدنا هذه العصور المتأخرة مظنة للخلط واللغط، بالحديث عن الغيبيات، وتوقان النفوس الضعيفة إلى مكاشفتها، ما بين مؤمن بالخرافة، وراضٍ بالكهانة، وآخرين سادرين بالسمع والتخمين، يقذفون بالغيب في كل حين، مع أن آيات الله تُتلىٰ عليهم بكرة وعشيًّا، ومنها قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]، وتقرأ عليهم سنة المصطفى ﷺ وفيها قوله: «**خمسٌ لا يعلمهنَّ إلا الله عز وجل: إن الله عنده علم الساعة، وينزِّل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير**» [رواه الترمذي].

إذاً لا مجال للحديث عن المغيبات إلا من خلال ما ذكره لنا ربنا جل وعلا، أو ما أوحاه إلى رسوله ﷺ، وما عدا ذلك فما هو إلا مجرد تكهنات إن لم تكن محور أساطير وأوهام، وخليط كلام يقذف به مسترقو السمع من الجن.

والإسلام في حقيقته دين يزيل الخرافةَ من الفكر، والرذيلةَ من القلب، والشرودَ من المسيرة؛ فالإيمانُ بالغيب ليس إيماناً بالأوهام، ولا هو إيذاناً لأنواع الفوضى، ثم إن الناجين من هذه الظاهرة، قد لا يسلمون من تطلع آخر، يحملهم عليه الشغف ورَوْمُ معرفة الحال اللاحقة والتي يظنون أن لها ارتباطاً وثيقاً باستقرار

مستقبلهم من عدمه، فاشرأبَّتْ نفوسهم إلى الوقوف على ذلك في مناماتهم، من خلال ما يعتريهم من رُؤًى وأحلام؛ ولذا فإن أحدنا قد يلاقي أخاً له أو صديقاً، فيراه عبوساً متجهِّماً، أو فرحاً مسروراً؛ فيزول عنه العجب حينما يعلم أن سبب هذا الفرح أو الحزن رؤيا مؤنسة أو أخرى مقلقة.

وهذا الأمر عباد الله ليس قاصراً على أفراد الناس وعامَّتهم فحسب، بل يشركهم فيه العظماء والكبراء، فكم أقضَّت الرؤيا عظيماً من مضجعه، وكم بشَّرت الرؤيا أفراداً بمستقبلهم، وكم شغلت شعباً كبيراً برمَّته، وما رؤيا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بنائية عنَّا، ولا رؤيا ملك مصر بخافية علينا، فقد اجتمع فيها تبشير وتحذير في آن واحد؛ إذ بشارتها هي السعة عليهم في الرزق سبع سنين، ونذارتها هي في الجدب والقحط سبعاً مثلها.

الرؤى عباد الله: لها أهميتها الكبرى في واقع الناس قبل الإسلام وبعد الإسلام، لكنها من خلال نظرات المتعلمين والمثقفين لها تتفاوت تفاوتاً كثيراً؛ لاختلاف المرجعية مِنْ قِبَلِ كل طائفة:

فقد أنكرها الفلاسفة، ونسبوا جميع الرؤى إلى الأخلاط التي في الجسد، فرأوا أنها هي التي تحدث انعكاساً مباشراً على نفس الرائي بقدر هيجان الأخلاط التي في جسده.

ولبعض علماء النفس موقفٌ سلبيٌّ تجاه هذه الرؤىٰ أيضاً، قاربوا فيه قولَ الفلاسفة، فجعلوها خليطاً من الأمزجة والرواسب التي تكمن في ذاكرة الإنسان، فيهيِّجها المنام، حتى قصروا أمرها في قالب مادي بيولوجي صرف كما زعموا.

وأما شريعة الإسلام: فإن علماءها وأئمتها قد ساروا على منهاج النبوة، ووقفوا من الرؤى بما نص عليه الكتاب والسنة، فذهبوا إلى أن الرؤيا المنامية الصالحة الصادقة إنما هي حق من عند الله، فمنها المبشِّرة ومنها المنذرة؛ لما روى مالك في الموطّأ وغيره، عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ذهبتِ النبوّةُ، وبقيتِ المبشِّرات»، قيل: وما المبشِّرات؟ قال: **«الرؤيا الصالحة، يراها الرجلُ أو تُرَىٰ له»**.

وأصل هذا الحديث في البخاري، والتبشيرُ هنا عباد الله: يحتمل التبشير بالخير والتبشير بالشر؛ كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، وهذه الرؤيا عباد الله هي التي قال عنها الصادق المصدوق ﷺ: **«إذا اقتربَ الزمان، لم تكد رؤيا المؤمن تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة. . .»** الحديث [رواه البخاري ومسلم].

وبعد يا رعاكم الله: فلقد تكالبت همم كثير من الناس في هذا العصر، بسبب الخواء الروحي، الذي يتبعه الجزع والفرق ونأي

النفس عن تعلقها بالله، وإيمانها بقضائه وقدره، وبما كان ويكون، وأن شيئاً لن يحدث إلا بأمر الله ومشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، حتى لقد تعلَّقت نفوسهم بالرؤى والمنامات تعلقاً خالفوا فيه مَنْ تقدَّمهم في الزمن الأول، ثم توسَّعوا فيها وفي الحديث عنها والاعتماد عليها، إلى أن أصبحت شغلهم الشاغل، عبر المجالس والمنتديات، والمجامع بل والقنوات الفضائية، إلى أن طغت على الفتاوى الشرعية، فأصبح السؤال عن الرؤى أكثر بأضعاف عن السؤال في أمور الدين، وما يجب على العبد وما لا يجب، كل ذلك إبان غفلة وَسِنَةٍ عمَّا ينبغي أن يفقهه المؤمن تجاه هذه الرؤى، وأن هناك هدياً نبويًّا للتعامل معها، ينبغي ألا يتجاوزه المرء فيطغى، ويتجاهله فيعيا؛ لأن النبي ﷺ تركنا على المحجة البيضاء، فأغنانا في الحديث عنها عن إتعاب النفس في التعلُّق بها، والسعي الدؤوب في معرفة تأويلها، بَلْهَ التعلق بها والاعتماد عليها.

وما تهافت الناس في السؤال عنها بهذه الصورة المفرطة، إلا لون من ألوان الخروج عن الإطار المرسوم والتوازن المتكامل، فتجد أحدنا يرى الرؤيا أيًّا كانت، فتضطرب لها حواسه، وترتعد منها فرائصه، وتحبس أنفاسه، فلا يطفئ ذلك إلا البحث بنهم عن عابر لها ليعبرها حتى يظهر له أشر هي أم خير، ولو وقف كل واحد منَّا عند الهدي النبوي مع الرؤيا، لما رأينا مثل هذه الجلبة، ولا

مثل هذا التعلق الشاغل الذي استثمرته بعض المجامع والمنتديات، فضلاً عن الفضائيات التي جعلته وسيلة جذب واستقطاب لمشاهديها من خلال هذا الطعم.

ولأجل أن نقف جميعاً على صورة مثلى للتعامل مع الرؤى المتكاثرة، فلنستمع إلى جملة من الآداب المرعية تجاه هذه الظاهرة الناخرة في المجتمع:

فقد روى مسلم في «صحيحه»؛ أن أباسلمة قال: كنت أرى الرؤيا أعرى منها ـ أي: أمرض منها ـ غير أني لا أزمل، حتى لقيت أبا قتادة، فذكرتُ ذلك له؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الرؤيا من الله، والحُلْمُ من الشيطان، فإذا حَلَم أحدكم حُلْماً فلينفثْ عن يساره ثلاثاً، وليتعوَّذ بالله من شرها؛ فإنها لن تضره»**. وفي رواية عند مسلم أيضاً، قال أبوسلمة: إن كنت لأرى الرؤيا أثقلَ عليَّ من جبلٍ؛ فما هو إلا أن سمعتُ بهذا الحديث فما أباليها.

ومن هنا عباد الله، فما كل ما يراه النائم يعد من الرؤيا التي لها معنى تفسر به؛ إذ إنَّ ما يراه النائم في منامه يتنوَّع إلى ثلاثة أنواع لا رابع لها؛ كما عند ابن ماجه من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«إن الرؤيا ثلاث: منها أهاويلُ من الشيطان ليحزُنَ بها ابنَ آدم، ومنها ما يَهُمُّ به الرجلُ في يقظته فيراه في منامه، ومنها جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»**.

يقول البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: في هذا الحديث: بيانُ أنه ليس كل ما يراه الإنسان في منامه يكون صحيحاً، ويجوز تعبيره، إنما الصحيح منها ما كان من الله عز وجل، وما سوى ذلك أضغاث أحلام لا تأويل لها.

ومثال هذه الأضغاث عباد الله: ما رواه مسلم في «صحيحه» أن أعرابيًّا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، رأيت في المنام كأنَّ رأسي ضرب فتدحرج فاشتددت على أثره؟ فقال رسول الله ﷺ للأعرابي: **«لا تحدِّث الناس بتلعُّب الشيطان بك في منامك»**.

وأما موقف المرء من هذا النوع من الرؤى، وهو الغالب على حال الكثيرين: فإنه قد جاء في السنة آدابٌ خاصَّة به في أحاديث صحيحة في الصحيحين وغيرهما وهي: التعوُّذ بالله من شر هذه الرؤيا، ومن شر الشيطان، وأن يتفل الرائي ـ حين يهب من نومه ـ ثلاثاً عن يساره، وألاَّ يذكرها لأحد أصلاً، وأن يصلي ما كتب له، وأن يتحول من جنبه الذي كان عليه، وزاد بعض أهل العلم قراءة آية الكرسي؛ لما صح عن النبي ﷺ أنَّ من قرأها لا يقربه شيطان، وهذا النوع من الرؤى إنما هو من الشيطان.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: وينبغي أن يجمع الرائي بين هذه الآداب كلها، ويعمل بجميع ما تضمنته الروايات، فإن اقتصر على بعضها، أجزأه في دفع ضررها بإذن الله؛ كما صرَّحت بذلك الأحاديث.

وأما النوع الثاني من الرؤى: فهو ما يحدِّث المرء به نفسه في يقظته، كمن يكون مشغولاً بسفر أو تجارة أو نحو ذلك، فينام فيرى في منامه ما كان يفكِّر فيه في يقظته، وهذا من أضغاث الأحلامِ التي لا تعبير لها.

فلا يبقى إلا النوع الثالث: وهو الرؤيا الصادقة الصالحة التي تكون من الله، وهي التي تكون بشارةً أو نذارة، وقد تكون واضحة ظاهرة لا تحتاجُ إلى تأويل؛ كما رأى إبراهيم أنه يذبح ابنه في المنام، وقد تكون خافية برموز تحتاج فيها إلى عابر يعبرها، كرؤيا صاحب السجن مع يوسف عليه السلام؛ وهذا النوع هو الذي نهى رسول الله ﷺ أن يقص إلا على عالِم أو ناصح؛ فقد قال ﷺ: **«لا تَقُصَّ الرؤيا إلا على عالم أو ناصح»** [رواه الترمذي].

وما عدا ذلك من الرؤى، والتي تتعلَّق بإثبات شيء من أحكام الشريعة، في حلال أوْ حرام، أو فعل عبادة أو تحديد ليلة القدر مثلاً، وهي التي أُرِيَهَا النبي ﷺ ثم أنسيها، أو تلك الرؤى التي ينبني عليها آثار متعدية تتعلق بحقوق الناس وحرماتهم وإساءة الظنون بهم، من خلال بعض الرؤى مثلاً، أو الحكم على عدالتهم ونواياهم من خلالها ـ: **فإن ذلك كله من أضغاث الأحلام،** ومن الظنون التي لا يجوز الاعتماد عليها في قول جمهور أهل العلم؛ كالشاطبي، والنووي، وابن تيمية، وابن القيم، وابن حجر، وغيرهم.

وقد ذكر الشاطبي في «الاعتصام» أن الخليفة المهدي أراد قتل شَرِيك بن عبدالله القاضي، فقال له شريك: ولِمَ ذلك يا أمير المؤمنين، ودمي حرام عليك؟ قال: لأني رأيتُ في المنام كأني مقبلٌ عليك أكلِّمك، وأنت تكلِّمني من قفاك، فأرسلت إلى المعبر فسألته عنها؟ فقال: هذا رجلٌ يَطَأُ بساطك وهو يسر خلافك، فقال شريك: يا أمير المؤمنين، إنَّ رؤياك ليستْ رؤيا يوسف بن يعقوب، وإنَّ دماء المسلمين لا تسفك بالأحلام، فنكَّس المهدي رأسه، وأشار إليه بيده أن اخرج فانصرف.

وقد ذكر ابن عساكر في «تاريخ دمشق» أن بعضهم رأى في المنام الشافعيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ فقال له: «كذَبَ عليَّ يونس بن عبد الأعلى في حديث. . . ما هذا من حديثي ولا حدثت به»، فقال الحافظ ابن كثير معلقاً على هذا الكلام: يونس بن عبد الأعلى من الثقات، لا يطعن فيه بمجرد منام.

وقد نقل الذهبي عن المروزي قال: أدخلت إبراهيم الحصري على أبي عبدالله أحمد بن حنبل وكان رجلاً صالحاً فقال: «إن أمي رأت لك مناماً هو كذا وكذا، وذكرت الجنة، فقال: يا أخي، إن سهل بن سلامة كان الناسُ يخبرونه بمثل هذا، وخرج إلى سفك الدماء، وقال: الرؤيا تسرُّ المؤمنَ ولا تغرُّه».

ألا فاتقوا الله معاشر المسلمين واستغفروه؛ إنه كان غفَّاراً.

الخطبة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَن اهتدى بهُداه.

أما بعـــد:

فيا أيها الناس، إن من باب الإنصاف والمصارحة والنُّصْح، ألا نُلْقِيَ باللائمة كلها في موضوع الرؤيا والإفراط فيها على آحاد الناس فحسب، بل لابد من تعدية الأمر إلى العابرين الذين يعبرون الرؤى؛ إذ عليهم مسؤولية عظمى تجاه الرائين، **فلابد للعابر أن يكون عالماً بهذا العلم، وأن يدرك المصالح والمفاسد في هذا الميدان، وألا يُنَصِّب نفسه للفتيا في الرؤى ويتطلع إليها، لاسيما عبر الشاشات وفي المجامع الكبيرة**، فتعبير الرؤى قرين الفتيا، وقد قال الملك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]، يقول ابن القيِّم: «المفتي والمعبِّر والطبيب، يَطَّلِعون من أسرار الناس وعوراتهم على ما لا يطَّلِع عليه غيرهم، فعليهم استعمال الستر فيما لا يحسن إظهاره».

ثم إن على العابرين ألا يتسارعوا في التعبير، وألا يجزموا بما يعبرون، وأن يعلموا خطورة هذا الجانب، وما يوصله إليهم من

الافتتان والإعجاب بالنفس، وتعظيمِ شأنهم فوق شأن المفتين وأهل العلم، وقد نقل ابن عبدالبر عن الإمام مالك؛ **أنه سُئِلَ: أيعبر الرؤيا كل أحد؟ فقال مالك: أبالنبوّة يُلْعَب؟!**

وقد نقل ابن عبدالبر أيضاً عن هشام بن حسان أنه قال: كان ابن سيرين يُسْأَل عن مائة رؤيا، فلا يجيب فيها بشيء، إلا أنه يقول: اتق الله، وأحسِنْ في اليقظة؛ فإنه لا يضرك ما رأيت في النوم، وكان يجيب في خلال ذلك ويقول: إنما أجيبُ بالظنِّ والظنُّ يخطئ ويصيب.

فإذا كان هذا هو قولَ إمامِ المعبِّرين في زمانه وما بعده من الأزمان، فما الظن بمن جاء بعده؟! إننا نسمع بالمعبر يسأل عن ألف رؤيا لا تسمع مرة يقول: لا أدري، أو يقول: هذه أضغاث أحلام، أو يقول: هذه حديث نفس، إلا من رحم ربك.

كما أن على العابرين: أن يدركوا خطورة تعبير الرؤى من خلال الشاشات التي يراها الملايين من الناس، وكذا المجامع الممتلئة بالحشود، وذلك للأمور التالية:

أولها: أن الانفتاح المطلق في التعبير فيه نوعُ فتنةٍ من أجل حديثه في أمور الغيب، لاسيما أن أحداً لا يستطيع أن يجزم بصحة ما يقوله العابر من عدمه إلا مَنْ رأى ذلك في واقعه؛ وهذا شبه متعسر عبر الشاشات.

وثانيها: تعذُّر معرفة حال الرائي عبر الشاشات والمجامع من حيث الاستقامة من عدمها، وهذا له صلةٌ وثيقة بتعبير الرؤيا؛ فابن سيرين سأله رجلان كلٌّ منهما رأى أنه يؤذِّن؛ فعبَّرها للصالح منهما بالحج؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧]، وعبَّرها للآخر بأنه يسرق؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠].

وثالثها: عدم إدراك عقول الناس لطريقة بعض العابرين للرؤيا لاسيَّما عبر الشاشات والمجامع؛ بحيث يكون تعبيرهم بصورة تجعل المستمع الجاهل لأول وهلة يقول: هذا تكهُّن أو تخمين أو عرافة؛ ونحن قد أُمِرْنَا بمخاطبة الناس على قدر عقولهم؛ فقد أخرج البخاري قول علي رضي الله عنه: «حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكَذَّب الله ورسوله؟!»، وعند مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «ما أنت محدِّثاً قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة».

ورابعها: أن درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح؛ فالمفسدة من خلال التعبير عبر الشاشات أشدُّ من مصلحته؛ لأمور لا تخفى على متتبعها، لاسيما أنها في أمور غيبية، وأنها كالفتوى، والسلف الصالح كانوا يتدافعون الفتوى ما استطاعوا، ناهيكم عن بعض الفساد المتحقِّق من خلال ما يشاهَد ويُسْمَع من تعبير رؤيا

لفتاة مثلاً بأنها ستفشل في نكاحها، أو لامرأة تعبَّر لها بأن زوجها تزوج عليها سرًّا بامرأة أخرى؛ فما ظنكم بحال الأولى والأخرى؟! فهذه تترقب الفشل في كل حين، مع ضيق نفسها، وانشغال بالها، وتلك باهتزاز كيانها، والشك في زوجها المرة تلو الأخرى؛ ناهيكم عمن يَرَيْنَ مثل هذه الرؤى، فيكتفين بما سمعنه من تعبير لغيرهنَّ، فَيَقِسْنَ عليه دون الرجوع إلى عابر عالم؛ اكتفاءً بما سمعنه أو شاهدنه؛ فتكون الطامة حينئذٍ، وقولوا مثل ذلك فيما يراه الرجال والشباب.

وأما ما يحتج به بعض الناس؛ من أن مسلماً روى في صحيحه: «أن رسول الله ﷺ كان كثيراً ما يسأل أصحابه بعد الفجر فيقول: من رأى منكم رؤيا».

فالجواب عن هذا من وجوه:

الوجه الأول: أن هذا رسول الله ﷺ، وتعبيرُهُ حق لا يشوبه شائبة.

الوجه الثاني: أن تعبيره كان في مسجد يحضره عدد ليس كالأعداد التي تعد بالملايين حينما يشاهد التعبير عبر الشاشات، وما ظنكم بحضور عند رسول الله ﷺ من الصحابة العقلاء الفضلاء مقارنةً بحضور عند غيره ﷺ؛ فأين الثرى من الثريا؟!

الوجه الثالث: أنه لم يثبت عن أحد من الصحابة كالخلفاء

الأربعة ولا مَنْ بعدهم من التابعين أنه كان يفعل في المسجد كما كان النبي ﷺ يفعل، لاسيَّما أبوبكر رضي الله عنه، وقد شهد له النبي ﷺ بأنه عارفٌ بتعبير الرُؤى، وهو معدودٌ مِن المُعَبِّرين عند كثير من أهل العلم.

ألا فاتقوا الله معاشر المسلمين، وراقبوه في السرِّ والعَلَن، والقصدَ القصدَ تُفْلِحُوا.

اللهم صَلِّ على محمد...

❊ ❊ ❊

بعـــد رمضـــان

الخطبة الأولى:

الحمد لله الحيِّ القيوم، الدائم الذي لا يزول، هو الأول فليس قبله شيء، والآخر فليس بعده شيء، والباطن فليس دونه شيء، والظاهر فليس فوقه شيء، يُقَلِّب الليل والنهار عِبْرَةً لأُولي الأبصار، ويداول الأيام بين الناس، وليعلم الذين آمنوا ويتَّخذ منهم شهداء والله لا يحب الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أفضلُ مَنْ خافَ ربَّه، وصلَّى فرضه، وصَامَ شهره، وحجَّ بيته، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ومَن سار على طريقهم واتَّبع هُداهم إلى يوم الدين.

أما بعـــد:

فاتقوا الله معاشر المسلمين، وراقبوه في السرِّ والعَلَن، واعبدوه كأنكم ترونه، فإن لم تكونوا ترونه، فإنه يراكم، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧ ـ ٢٢٠].

عباد الله، إن في كَرِّ الأيامِ والليالي لعبرة، والأيام تمرُّ مرَّ السَّحاب، عشيةٌ تمضي، وتأتي بكرة، وحسابٌ يأتي على مثقال الذَّرَّة، والناسُ برمَّتهم منذ خُلِقُوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم

حطٌّ عن رِحَالِهم إلا في الجنة أو في السعير، ألا وإن سرعة حركة الليل والنهار لتؤكِّدُ تقارُبَ الزمان الذي هو من أشراط الساعة؛ كما صحَّ بذلكم الخبر عن الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه، وهذا كله ـ عباد الله ـ يُعَدُّ فرصة عظمى لإيقاظ ذوي الفِطَنِ وأصحاب الحِجى، لفعل الخير والتوبة النصوح، وإسداء المعروف، وترك ما يشين؛ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢]، لقد ظلَّ المسلمون جميعاً شهراً كاملاً ينالون من نفحات ربِّهم، وَيُرُونَ الله من أنفسهم، متقلِّبين في ذلك بين دعاء وصلاة وذِكْر وصدقة وتلاوة للقرآن، ولكن سرعان ما انقضت الأيام، وتلاشت الذكريات، وكأنَّها أوراق الخريف عصَفَتْ بها الريحُ على أمر قد قُدِر، أو بلابلُ دَوْحٍ قد هدأ تغريدها، وإلى الله المصير.

أيها المسلمون، إن مَن يقارِن أحوال الناس في رمضان وبعد رمضان ليأخُذُ العجب من لُبِّهِ كل مأخذ، حينما يرى مظاهر الكسل والفُتور والتراجع عن الطاعة في صورة واضحة للعيان، وكأنَّ لسان حالهم يحكي أن العبادة والتوبة وسائر الطاعات لا تكونُ إلا في رمضان، وما عَلِمُوا أن اللهَ سبحانه هو ربُّ الشهور كلها، وما شهر رمضان بالنسبة لغيره من الشهور إلا محطُّ تزوُّد وترويض على الطاعة والمصابرة عليها، إلى حين بلوغ رمضان الآخر، ولا غَرْوَ

في ذلك عباد الله؛ فالله جلَّ وعلا أتبَعَ فرضَ الصيامِ على عباده بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

ومن هنا ـ عباد الله ـ كان لِزَاماً علينا أن ننظر إلى حقائق العبادات وآثارها، لا إلى صورها ورسومها؛ إذ كم من مجهد نفسه كان حظه من صيامه الجوع والعطش!! وكم من مواصل للعبادة فيه، فكان حظه فيه التعب والسهر!! وآكد ما يدل على ذلك حينما يسائل الناس أنفسهم: **كم مرة قرأوا القرآن في رمضان؟ وكم سمعوا فيه من حِكَم ومواعظ وعِبَرَ؟ ألم يسمعوا كيف فَعَل ربُّهم بعاد،** ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر: ٧، ٨]؟! ألم يقرأوا صيحة عاد، وصاعقة ثمود، وخسف قوم لوط؟! ألم يقرأوا الحاقة، والزلزلة، والقارعة، وإذا الشمس كوّرت؟! فسبحان الله، ما هذا الرَّانُ الذي على القلوب؟! ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

أَفَقُدَّتْ قلوبنا بعد ذلك من حجر؟! أم خُلِقَت من صخر صلد؟! ألا فليت شعري أين القلب الذي يخشع والعين التي تدمع؟! فلله كم صار بعضها للغفلة مرتعاً، وللأنس والقربة خراباً بلقعاً!! وحينئذٍ لا الشاب منا ينتهي عن الصبوة، ولا الكبير فينا يلتحق بالصفوة، بل قد فرّطنا في كتاب ربنا في الخلوة والجلوة!! وصار بيننا وبين الصفاء أبعد ما بين الصفا والمروة؛ فلا حول ولا

قوة إلا بالله؛ ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٤، ٢٥].

ألا فاعلموا ـ يا رعاكم الله ـ أن من قارب الفتور والكسل، بَعُدَ عنه النصب والاجتهاد، ومن ادَّعى الترويح والتسلية، وُكِلَ إلى نفسه، ومن وُكِلَ إلى نفسه، فقد وُكِلَ إلى ضيعة، فإياك إياك ـ أيها المسلم ـ أن تغترَّ بعزمك على ترك الهوى في رمضان بمقاربة الفتنة بعده؛ فإن الهوى مكايد، وكم من صنديد شجاع في غبار الحرب اغتيل، فأتاه ما لم يحتسبْ ممن يأنف النظر إليه، واذكروا ـ رحمكم الله ـ حمزة مع وحشي، رضي الله عنهما.

إن من وقع في التقصير بعد التمام، أو تمكَّنت منه الذنوب بعد الإقلاع عنها، لهو أبعدُ ما يكون عن الفوز بالطاعة، ولو غشَّ نفسه بعبادات موسمية ذات خداج، إلا أنها لا تبرح مكانها، بل لربما وجد معها خفي العقوبة الرئيس، وهو سلبُ لذة المناجاة وحلاوة التعبد، إلا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات من عباد رب الشهور كلها بواطنُهُمْ كظواهرهم، شوَّالهم كرمضانهم، الناسُ في غفلاتهم، وهو في قطع فلاتهم، وحينئذٍ أَخْلِقْ بذي الصَّبْرِ أن يَحْظَىٰ بحاجتِهِ، ومُدْمِنِ القَرْعِ للأبوابِ أن يَلِجَا، ولأجل هذا لم يكن العجب في أن يَغْلِبَ الطبعُ، وإنما العجب في أن يُغْلَبَ

الطبع، وأمثال هؤلاء هم ـ ولا شك ـ ممن يسيرون على هدي المصطفى ﷺ في المداومة على الطاعة.

نَعَمْ! لرمضانَ ميزةٌ وخصوصية في العبادة ليست في غيره من الشهور، بَيْدَ أنه ليس هو محل الطاعة فحسب؛ ولذلك كان النبي ﷺ جواداً في كل حياته، غير أنه يزداد جُودُهُ إذا حلَّ رمضان، ناهيكم عن أن الرجوع والنكوص عن العمل الصالح هو مما استعاذ منه النبيُّ ﷺ بقوله فيما صحَّ عنه: «**وأعوذُ بك من الحَوْر بعد الكَوْر**»، والله جل وعلا يقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: ٩٢]؛ إذْ لم يقصر الخير على شهر رمضان فحسب، بل إن هذا كله إنما هو استجابة لأمر ربه جل وعلا بقوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، فلا منتهى للعبادةِ والتقرُّبِ إلى الله إلا بالموت.

وإنَّ مما لا شك فيه أن هناك ضعفاً في البشر لا يملكون أن يتخلَّصوا منه، وليس مطلوباً منهم أن يتجاوزوا حدود بشريتهم، غيرِ أن المطلوب أن يستمسكوا بالعروة الوثقى التي تشدهم إلى الله في كل حين، وتجعل من التديُّن في جميع جوانب الحياة عندهم ثقافة وأسرة وإعلاماً من الثوابت التي لا تتغير، ولا تخدع بها النفس في موسم ما دون غيره؛ كما أنها تمنعهم في الوقت نفسه ـ بإذن الله ـ من التساقط والتهالك، وتحرسهم من الفترة بعد الشِّرَة

مهما قلَّت، ما كانت هي على الدوام؛ فرسول الله ﷺ يقول: «**يا أيها الناس، خذوا من الأعمال ما تطيقون؛ فإنَّ الله لا يَمَلُّ حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قلَّ**» [رواه البخاري ومسلم].

ولأجل هذا أيها المسلمون، فإن هناك عبادات هي من الثوابت التي لا تتغير بعد رمضان؛ كالصلاة، والزكاة، والصدقة، وكذا الدعاء لنفسك ولمَنْ أوصاك به ولإخوانك في الملَّة والدين من المعوزين والمستضعفين والمجاهدين، ناهيكم عن ثابت التوبة المطلوبة في كل حين وآن، والتي أمرنا الله بها في قوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وكان يتأولها النبي ﷺ بقوله: «**إني لأستغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه في اليوم مائة مرة**».

إذنْ عرفتَ أيها المرء هذه الأمور كلها، ولقد أحسَنَ من انتهى إلى ما سمع أو علم، ولقد ذُقْتَ طعم العبادة في رمضان ولذة القرب من الله؛ فلا تعكِّرَنَّ هذا الصفو بالكدر، والهناء بالشقاء، والقرب بالبعد.

إن البقاء على الطاعة في كل حين، أو التهاونَ عنها كرَّاتٍ ومرَّات، ليعودان في المرء ـ بإذن الله ـ إلى القلب، وهو أكثر الجوارح تقلباً في الأحوال حتى قال فيه المصطفى ﷺ: «**إنما سمِّي**

القلب من تقلُّبه، إنما مثَلُ القلب كمَثَلِ ريشةٍ في أصل شجرة يقلِّبها الريح ظهراً على بطن» [رواه أحمد]، ولأجل هذا كان من دعائه ﷺ: «يا مقلِّب القلوب، ثبِّت قلبي على دينك» [رواه الإمام أحمد].

وبعدُ يا رعاكم الله، فإنَّ من حق نفسك عليك ـ أيها المرء ـ أن تفرَحَ بِعِيدها؛ فالله جلَّ وعلا جعل الفرح والرَّوْحَ في الرضا واليقين، وجعل الغم والحزن في السخط والشك، وساخطُ العيش ـ عباد الله ـ هو في الحقيقة كثير الطيش، وكأن الدنيا في عينه سَمُّ الخِيَاط، حتى يكون حَرَضاً أو يكون من الهالكين، والعيد ـ عباد الله ـ مسرحٌ للاستئناس البريء، البعيد عن الصخب والعطب، بيتاً ومجتمعاً وإعلاماً، ومتى تجاوز الناسُ حدودَ الله في أعيادهم من لهو محرَّم، وإيذاء للآخرين بالضجيج والأهازيج، فما قدروا الله حق قدره، وما شكروه على آلائه، ولقد رأى أحد السلف قوماً يعبثون في يوم عيد بما لا يُرْضِي الله فقال: «إنْ كان هؤلاء تقبِّل منهم صيامهم، فما هذا فعل الشاكرين، وإن كانوا لم يتقبَّلْ منهم صيامهم، فما هذا فعل الخائفين»، ورحم الله ابن القيم حين قال عن الفرح: إن الله عز وجل سيسوق هذه البضاعة إلى تُجَّارها، ومن هو عارف بقدرها، وإن وقعَتْ في الطريق بيد من ليس عارفاً؛ فَرُبَّ حامل فقه ليس بفقيه، ورُبَّ حامل فقه إلى مَن هو أفقه منه؛

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [الجمعة: ١١].

فعلى المسلم إذاً ألاَّ يكون مفراحاً إلى درجة الإسراف؛ لأن الله لا يحب الفرحين من أمثال هؤلاء؛ إذْ بمثل هذا الفرح يتولَّد الأشر والبطر؛ ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]؛ فقد قال بعض المفسِّرين: إن الشيطان الوسواس ينفُثُ في قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح، فإذا ذكر الله خنس.

ألا فاتقوا الله معاشر المسلمين، والله الله في الانضباط حال الفرح والسرور والابتهاج؛ فالمؤمن الصادق لا يفرح إلاّ فرح الأقوياء الأتقياء، وهو في الوقت نفسه لا يبغي ولا يزيغ، ولا ينحرف عن الصواب، ولا يفعل فعل أصحاب النار الذين قال الله فيهم: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥]، وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «كلُّ يوم لا يَعْصِي فيه العبد ربه، فهو عيد».

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم. . .

❊ ❊ ❊

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبيَّ بعده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعــد:

فاتقوا الله أيها المسلمون، واعلموا أن الشارع الحكيم قد سنَّ لكم صيام الست من شوال، وجعل ذلك من متابعة الإحسان بالإحسان؛ فقد قال النبي ﷺ: «**مَنْ صام رمضان، وأتبعه بستٍّ من شوال، كان كصيام الدهر كله**» [رواه مسلم].

ووجه كون صيام الست بعد رمضان كصيام الدهر هو أن الله جل وعلا جعل الحسنة بعشر أمثالها؛ كما في قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، فصيام رمضان يعد مضاعفاً بعشرة شهور، وصيام الست بستين يوماً؛ فيتحصَّل من ذلك أجر صيام سنة كاملة.

والأفضل في صيام هذه الست: أن تكون على الفور بعد يوم العيد، وأن تكون متتالية، ومن فرَّق بينها فلا بأس، ومن أخَّرها إلى وسط الشهر أو آخره فلا بأس، وهي ليست واجبة، ولا صحة لما

يظنه بعض العوام من أن مَن صامها سنة وجبتْ عليه في السنين الأخرى، بل هي سُنَّةٌ؛ مَنْ فعلها أثيب عليها، ومَن تركها فلا شيء عليه، ومَن كان مواظباً عليها في كل عام ثم مرض أو سافر في عام آخر، فإنها تكتب له وإن لم يصمها؛ لقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**إذا مَرِضَ الإنسانُ أو سافر، كتب له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً**».

كما أنه لا يجوز تقديم صيام الست على أيام القضاء من رمضان؛ لأن من شروط حصول أجر الست من شوال أن يكون المرء قد صام رمضان بأكمله، وبذلك يكون المرء كأنما صام عاماً بأكمله.

ثم إن من أراد الزيادة ومضاعفة الأجر فليحافظ على صيام أيام البيض من كل شهر، وهي يوم الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر من كل شهر؛ فلقد صحَّ في السُّنَنِ أن النبي ﷺ جعل صيامها كصيام الدهر، أي: كسنة كاملة، والسنة فيها اثنان وأربعون يوماً من الأيام البيض فقط، ويُضاف إليها ستة وثلاثون يوماً لرمضان، وست من شوال، فيكون صيام ثمانية وسبعين يوماً في السنة يعدل صيام سنتين كاملتين، أي: أكثر من سبعمائة يوم، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

اللهم صَلِّ على محمد. . .

خطبة عيد الأضحى

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي لا يبلغ مِدْحَتَهُ القائلون، ولا يحصي نعماءه العادُّون، ولا يؤدِّي حقه المجتهدون، أحمده سبحانه استتماماً لنعمته، واستسلاماً لعزَّته، واستعصاماً من معصيته، وأستعينه فاقة إلى كفايته، إنه لا يضلُّ من هداه، ولا يئل من عاداه، ولا يفتقر من كفاه، له الحمد، فَرَضَ علينا حج بيته الحرام، الذي جعله قِبْلَة للأنام، يَرِدُونه رجالاً وركباناً كل عام، ويالهون إليه ولوه الحمام، جعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته، وإذعانهم لعزته، فاختار من خلقه سُمَّاعاً أجابوا إليه دعوته وصدقوا كلمته، ووقفوا موقف أنبيائه، يُحْرِزون الأرباح في متجر عبادته، ويتبادرون عند موعد مغفرته، جعله سبحانه وتعالى للإسلام علماً، وللقاصدين حرماً، فَرَضَ حجه، وأوجب حقه، وكتب علينا وفادته.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة نتمسَّك بها أبداً ما أبقانا، وندَّخرها لأهاويل ما يلقانا؛ فإنها عزيمة الإيمان، وفاتحةُ الإحسان، ومرضاة الرحمن، ومدحرة الشيطان، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالدين المشهور، والعِلْمِ المأثور، والكتاب المسطور، والنور الساطع، والضياء اللامع،

والأمر الصادع، إزاحةً للشبهات، واحتجاجاً بالبينات، وتحذيراً بالآيات، وتخويفاً بالمَثُلَات، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الله أكبر الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد، الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً.

الله أكبر عددَ ما ذكره الحاجُّون وبكَوْا، والله أكبر عدد ما طافوا بالبيت الحرام وسَعَوْا، الله أكبر عدد ما زهرت النجوم، وتلاحمت الغيوم، والله أكبر عدَدَ ما أمطرتِ السماء، وعدد ما غسق واقِب أو لاح ضياء، الله أكبر عدَدَ خلقه وزِنَةَ عرشه ومِداد كلماته، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر كبيراً.

أما بعــد:

فيا أيها المسلمون، ويا حجاج بيت الله الحرام، أوصيكم ونفسي بتقوى الله سبحانه، فاتقوه في المنشط والمكره، والغضب والرضا، والخَلْوة والجَلْوة، واعلموا أنه قد اجتمع لكم في هذا اليوم عيدان: عيد الأضحىٰ، وهو يوم الحج الأكبر، وعيد الأسبوع وهو يوم الجمعة؛ فأكثروا من الشكر لله جل وعلا، وبادروا بالأعمال قبل انقطاعها، واعلموا أن الله غفور رحيم.

أيها المسلمون، إن الناس مازالوا منذ أذَّن فيهم إبراهيم عليه السلام بالحَجِّ يفدون إلى بيت الله الحرام في كل عام من أصقاع الأرض كلها، وأرجاء المعمورة جميعها، مختلفةً ألوانهم، متمايزةً ألسنتهم، متباينةً بلدانهم، يفدون إليه وأفئدتهم ترف إلى رؤية البيت العتيق، والطواف به، ويستوي في ذلك الغني والفقير، والقادر والمعدم، كلهم يتقاطرون إليه تلبية لدعوة الله التي أذَّن بها إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

إن الحُجَّاج إذ يستبدلون بزيّهم الوطني زي الحج الموحَّد، ويصبحون جميعاً بمظهر واحد لا يتميَّز شرقيُّهم عن غربيهم، ولا عربيُّهم عن عجميهم، كلهم لبسوا لباساً واحداً، وتوجهوا إلى رب واحد، بدعاء واحد، وتلبية واحدة، «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

تراهم يُلَبُّون وقد نسوا كل الهُتَافات الوطنية، وخلَّفوا وراءهم كل الشعارات القومية، ونكَّسوا كل الرايات العصبية والعُبِّيَّة، ورفعوا راية واحدة، هي راية «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، يطوفون حول بيت واحد، يؤدُّون نُسُكاً واحداً.

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد.

إن الله عز وجل يوم شَرَعَ الحج للناس أراد فيما أراد من

الحِكَم أن يكونوا أُمَّةً واحدة، متعاونةً متناصرة، متآلفة متكاتفة كمَثَل الجسد الواحد، إذا اشتكىٰ منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحمىٰ والسهر.

إن الحج سلام حقيقي برمَّته، إنه سلام غير مزيَّف، يدخل فيه المسلم مدة هذا النُّسُك، فيتعلَّم من خلاله احترام حق الحياة لكل مسلم حَيٍّ مهما كانت درجة حياته، فلا يتعدَّىٰ على أحد، ولا يظلم أحداً، ولا يبغي على أحد.

إن كل عاقل ومنصف يشهد بالله أن السلام الحقيقي، والتعاون القلبي والروحي، والتعاون على البِرِّ والتقوىٰ، لا ظل له في الواقع إلا في الإسلام، ومن خلال الإسلام وتاريخ الإسلام، وأما غير المسلمين من شتى الأُمم ومختلف الديانات: فإن أقوالهم معسولة، وأفعالهم مسمومة فيما يَدْعون إليه؛ إذ جعلوا مفهوم حقوق الإنسان عندهم مبنيًّا على فتح باب الحريَّات على مصراعيه، حسب ما يقتضيه المفهومُ العَلْماني عندهم، والذي يرفض شرعة الله وصبغته، بل يتم به تدميرُ الأخلاق، وإشاعةُ فوضى الغرائز، ثم هم يزعمون أنها برمَّتها تعني مبادئَ الحضارة والتقدم والرُّقي، مَن خالفها وكابر فيها، رمَوْهُ بأنه مخالف لحقوق الإنسان، وهي ليست من الحقوق في وِرْدٍ ولا صَدَر، ولا هي من بابته، بل إن حلوها مر، وسهلها صعب، ودماثتها دميمة.

ويالله! لقد صَدَقُوا ظنهم؛ فاتبعهم أغرار ولهازم من مفكرين وكُتَّاب في العلوم السياسية والاقتصادية والقانونية وعلم الاجتماع، وجملة من هؤلاء هم في الحقيقة أشياعٌ لدعوات الغرب ولدات، يتسللون لِواذاً عن أصول دينهم، فيشوِّشون في التشريع، ويهوِّشون في الحدود، وليس غريباً أن تتبدى خطوط مثل هذه القضية عبر هذه الفتن المتلاطمة، ولا يظن بالطبع أن ما بقي من ألوانها ورسومها بمعجزنا أن نتخيله، فمواقعوها هم صنف من الناس يتمددون بالحرية، وينكمشون بالإسلام، وكفاكم من شَرٍّ سماعُه، وتلكم شمالةٌ نعيذكم بالله من غوائلها.

لقد طب أصحاب تلك الدعوات زكاماً، فما أحدثوا في الحقيقة إلا جذاماً، وَحَلُّوا بزعم منهم عقداً، وبالذي وضعوه زادت العقد، فكم يقتل من المسلمين! وكم تنزع من حريات! وكم يعتدى على حقوق! في حين أن دعاة حقوق الإنسان يخفضون جناح الذل من رحمتهم وعدلهم المزعوم، على دعم وتحسين منظمات عالمية لمحبي الكلاب وأصدقاء الحيوانات الأليفة، فتفتح الصوالين للكلاب ليقوم أخصائيون بقص شعرها وتزيينها وتعطيرها، وفي المقابل ـ عباد الله ـ تفتح الصوالين الدموية التي يقصون من خلالها شعور البشر المسلمين، ويحلقون أديانهم، ويغتصبون أرضهم وديارهم وأموالهم، فليت مخبراً يخبرنا: أتكون الكلابُ

المكلَّبة أهَمَّ وأعظم مِن قُطْرٍ إسلامي بأَسْرِه تعدو عليه حُثالة لئيمة من ذئاب البشر، وعَبَد الطاغوت، فيقتلون الشيوخ والأطفال، ويُرَمِّلُون النساء في مسرى رسول الله ﷺ، وفي غيره من أراضي المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله؟!

إنهم بذلك هم قَتَلَةُ الإنسان، وهم حُماة حقوق الإنسان المجرم.

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد، الله أكبر الله أكبر كبيراً.

أيها المسلمون، حجاج بيت الله الحرام، ما أحوجَ البشرية في هذا العصر وهي تكتوي بلهيب الصراعات الدموية والنزاعات الوحشية، ما أحوجها وهي تلتفت لبيت الله الحرام، إلى أن تُخلِّصَ نفوس أبنائها من الأنانية والبغضاء، والكراهية والشحناء، وترتقي إلى أُفُق الإسلام السامي، فتتعلم الحياة بسلام ووئام؛ كما أراد الله لعباده المؤمنين؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨، ٢٠٩].

إنه بهذه الصفة وتلك الجموع يُقَرِّرُ الإسلام أنه ليست هناك دواعٍ معقولةٌ تحمل الناس على أن يعيشوا متناكرين، بل إن الدواعي القائمة على الطريق الحق تمهد للمسلمين مجتمعاً

متكافلاً، تسوده المحبَّة، ويمتد به الأمان على ظهر الأرض كلِّها، والله عز وجل ردَّ أنساب الناس وأجناسهم إلى أبوين اثنين؛ ليجعل من هذه الرحم ملتقى تتشابك عنده الصلات، وتستوثق العُرىٰ؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣]، إنه التعارف لا التنافر، والتعاون لا التخاذل، فالأرض أرض الله، والكل عباد الله، وليس هناك إلا ميزان واحد تتحدَّد به القِيَم، ويُعْرَف به فضل الناس؛ ألا وهو التقوىٰ؛ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ألا إن الكريم حقًّا هو الكريم عند الله، فهو يزنكم عن علم وخبرة؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد.

حجاج بيت الله الحرام، بيتُ الله العتيق ما برح يطاول الزمان وهو شامخ البنيان، في مناعة من الله وأمان، بناه إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، إعلاناً للتوحيد الخالِص؛ إذْ بناؤه مرهون بتوحيد الله؛ حيث قال جلَّ وعلا: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٢٦]، فمن أجل التوحيد بني بيت الله؛ لئلا يُعْبَدَ إلا هو وحده، فقد حطَّم المصطفى ﷺ الأصنام من حول الكعبة، وعلى رأسها أعلاها وأعظمها هُبَل، وهو يُردِّد: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

لقد تمثَّل التوحيد في الحج من خلال التلبية، وفي قراءة سورة الكافرون، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعتي الطواف، وتمثَّل في خير الدعاء، وهو دعاء يوم عرفة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

إذاً فالتوحيد ـ عباد الله ـ هو لُباب الرسالات السماوية كلها، وهو عمود الإسلام وشعاره الذي لا ينفك عنه، وهو الحقيقة التي ينبغي أن نغار عليها ونصونها من كل شائبة، فالتوحيدُ وسيلةُ كل نجاح، وشفيعُ كل فلاح، يصيِّرُ الحقير شريفاً، والوضيع غطريفاً، يطوِّل القصير، ويقدِّم الأخير، ويعلي النازل، ويشهر الخامل، وما شيد ملك إلا على دعائمه، ولا زال ملك إلا على طواسمه، ما عزت دولة إلا بانتشاره، ولا زالت وذلَّت إلا باندثاره.

ألا وإن معظم الشرور والنكبات التي أصابت أُمَّة الإسلام، وأشد البلايا التي حلَّت بها إنما كانت بسبب ضعف التوحيد في النفوس، وما تسلَّط مَن تسلَّط من الأعداء، وتعجرف مَن تعجرف، وغار مَن غار على حياض المسلمين، واستأصل شأفتهم، إلا بسبب ضعف التوحيد، وما تأريخ التتار عن المسلمين بغائب، حيث بلغ الضَّعْف في نفوس كثير من المسلمين آنذاك مبلغاً عظيماً بسبب ضعف التوحيد، حتى ذكر بعض المؤرخين أن الجموع من المسلمين إبان الهجوم التتري لبلاد الإسلام كانوا يرددون: «يا خائفين من

التَّتَرْ، لوذوا بقبرِ أبي عُمَرْ، عُوذُوا بقبر أبي عُمَرْ، ينجيكمُ من الضَّرَرْ»، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧].

لقد ابتلي كثير من الناس بالجهل بالتوحيد حتى لم يعرفوا حق الله وحق العبد، ومزجوا بعض ما لله فجعلوه للعبد حتى انحاز بعضهم إلى أصحاب القبور، وتضرَّعوا أمام أعتابها وتمسَّحوا بها، واستغاثوا بأهلها في الشدائد والكروب، بل لقد كثر مروِّجوها والداعون إليها، من قبوريين ومخرفين، والذين يخترعون حكايات سمجة عن القبور وأصحابها، وكرامات مختلقة لا تمتُّ إلى الصحَّة بنصيب، بل لقد طاف بعضهم بالقبور كما يُطاف بالكعبة المعظَّمة، وأوقفوا الأموال الطائلة على تلك الأضرحة حتى إنه لتجتمع في خزائن بعض المقبورين أموالٌ يصعب حصرها، فيا لله كيف أن أحياءهم لا يكرمون بِدِرْهَم واحد، وبألف ألف قد يكرم أمواتهم؟!

لقد قصَّر أُناسٌ مع التوحيد فتقاذفتهم الأهواء، واستحوذت عليهم الفِتَن والأدواء، فمِنْ مفتون بالتمائم والحروز يعلِّقها عليه وعلى عياله، بدعوى أنها تدفع الشر، وتَذْهَبُ بالعين، وتجلب الخير، والله تعالى يقول: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

لقد قصَّر جَمْعٌ من المسلمين مع التوحيد، فافتتنوا

بالمشعوذين والدجاجِلة الأفَّاكين، مِن سَحَرَة وعرَّافين ونحوهم، والذين يأكلون أموال الناس بالباطل بدعوة أنهم يكاشفونهم بأمور الغيب، فيما يسمَّىٰ بمجالس تحضير الأرواح، أو قراءةِ الكف والفنجان، ليكاشفوا الناس على حَدِّ زعمهم عمَّا سيحدث في العالم خلال يوم جديد، أو أسبوع سيطلُّ، أو شهر أوشك حلوله، أو عام مرتقب؛ ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]، ناهيكم ـ عباد الله ـ عن اللَّتِّ والعجن عبر الصُّحُف والمجلات ونحوها فيما يسمَّىٰ قراءة الأبراج ومستقبلها، والذي يروج من خلاله بأنه: يا لسعادة كاملة لأصحاب برج الجدي، ويا لغنى أصحاب برج العقرب، وأما أصحاب برج الجوزاء فيا لتعاسة الحظِّ وخيبة الأمل زعموا، إلى غير ذلك من سيل الأوهام الجارِف والخُزَعْبَلات المَقِيتة التي لا حدَّ لها؛ ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور: ٣٨].

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

❊ ❊ ❊

الخطبة الثانية

الحمد لله ولي الصالحين، ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعــد:

فاتقوا الله أيها المسلمون، واجعلوا من عيدكم هذا صفحةً جديدة بيضاء، يصحح من خلالها الواقع المرير ويكشف الزيف عن كثير من الشعارات والنداءات التي لا تَمُتُّ للإسلام بِصِلَة، وأن يكون الحُكم لله في أرضه، وأن تكون الهيمنة في جميع شؤون الحياة لكتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ؛ ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: مرَّ عليَّ يهودي محمماً مجلوداً، فدعاهم النبي ﷺ فقال: «هكذا تجدون حَدَّ الزاني في كتابكم؟!» قالوا: نعم. فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: «أَنْشُدُكَ بالله الذي أنزَلَ التوراة على موسى، أهكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟!» قال: لا، ولولا أنك نشدتني

بهذا، لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا فقلنا: إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمعْ على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلناه التحميم والجَلْدَ مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهمَّ، إني أول من أحيا أمرك إذْ أماتوه**»، فأَمَرَ به فرُجم، فأنزل الله: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ [المائدة: ٤١].

فأي حكم ـ عباد الله ـ أهدىٰ من حكم الله؟! وأي شريعة أصلح من شريعة الإسلام؟! ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [النحل: ٩].

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد.

أمة الإسلام حجاج بيت الله الحرام، إن أردتم السعادة والفلاح، فأصلحوا نفوسكم من داخلها، ونقُّوا وسائل المجتمعات من شوائبها، لاسيَّما الإعلام؛ لأنه سلاح ذو حدين، فاللهَ اللهَ أن يُرَىٰ فيه ما يحلق الدين، أو ما يضلل الناس، أو يكون سبباً في البُعد عن الحقائق مع نشر الكذب والدجل والتضليل على الشعوب والمجتمعات، فإنَّ مما لا شك فيه أن الإعلام قوام المجتمعات، وإذا أردت أن تحكم على مجتمع ما صعوداً أو هبوطاً، فانظر إلى

إعلامه، فحذار ـ أمة الإسلام ـ حذار من الإخلال بضوابطه، والخروج عن مقصده، من حيث النفعُ والتربية، والنشأةُ السوية، وخدمةُ المجتمعات فيما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم، وفق شريعة الله الخالدة، فاتقوا الله أيها الإعلاميون، واعلموا أنكم مسؤولون تجاه الأمن الفكري سلباً وإيجاباً.

كما أنه ينبغي علينا جميعاً أن نصحِّح أوضاعنا تجاه المرأة المسلمة، وأن نتفطَّن للأيادي العابثة، والقفازات الزائفة، والتي تتربص بها ليل نهار، لتخرجها من نطاقها المرسوم لها، حتى تكون فريسة لذوي الشهوات المسعورة، والمطامع المشبوهة، وللذين كرهوا ما نزَّل الله.

ولنحرص جميعاً على تبيين اهتمام الإسلام بالمرأة، وأنها لها شأن في المجتمع، بل هي نصفُ المجتمع:

وأن الإسلام رعى حقَّها بنتاً، ورتَّب الأجر الجزيل على مَن عالَ جاريتين.

ورعىٰ حقَّها زوجة، فجعل لها من الحق مثل ما للرجل، وللرجل عليها درجة، ولم يجعل عقد الزوجية عقد استرقاق للمرأة، ولا عقد إهانة وارتفاق، إنما هو عقدُ إكرام واتصال بالحلال.

كما أحسَنَ الإسلام في الوقت نفسه إلى المرأة أُمًّا؛ فقدَّم حقَّها على الأب ثلاث مرات في البِرِّ.

بل أكَّد النبي ﷺ حقَّ المرأة المسلمة في حجَّة الوداع بقوله: **«فاتقوا الله في النساء؛ فإنَّكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، وإنَّ لكم عليهن ألا يُوطِئْنَ فرشكم أحداً تكرهونه، فإنْ فعلْنَ ذلك فاضربوهنَّ ضرباً غير مبرِّح، ولهنَّ عليكم رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف»**.

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد.

حجاج بيت الله الحرام، يا مَن أدَّيتم مناسككم فوقفتم بعرفات، وانحدر بكم الشوق إلى المزدلفة فسكبتم عند المشعر الحرام العَبَرات، هنيئاً لمَنْ رزقوا الوقوف بعرفة، وجأروا إلى الله بقلوب محترقة، ودموع مستبقة، فلله كم من خائف أزعجه الخوف من الله وأقلقه، ومحبٍّ ألهبَهُ الشوقُ وأحرقه، وراجٍ أحسَنَ الظنَّ بوعد الله فَصَدَقَه، اطلع عليهم أرحمُ الرحماء، وباهى بجمعهم أهلَ السماء، فهل رأيتم عباد الله، هل رأيتم قط شبه عراة أحسن من المُحْرِمين؟! هل شاهدتم ماء صافياً أصفىٰ من دموع المتأسفين؟! هل ارتفعت أَكُفٌّ وانبسطَتْ أَيْدٍ فضاهت أكُفَّ الراغبين؟! هل لصقت بالأرض جِباه أفضل من جِباه المصلين؟! فيا لها من غنيمة باردة، ويا له من

فوز خاب مضيِّعوه!!

حُجاج بيت الله الحرام، أخلِصوا لله حجَّكم، واتَّبعوا سُنَّة نبيكم ﷺ تفلحوا، واشكروا الله شكراً كثيراً على أن هيَّأ لكم سُبُل الراحة، وأداء الحج بيُسر وسهولة، مع أمن مبذول، وتنظيم مشكور، ومعنيين بالدعوة والتوجيه، سخَّرهم الله في بلاد الحرمين خدمةً لحجاج بيته الحرام؛ فالحَرَمان الشريفان أهلٌ لأن يُخْدَما، وبلاد الحرمين حرسها الله أهلٌ لأن تكون خادمةً للحرمين، فشكر الله الجهود، وبارك في الخُطَىٰ، وتقبَّل من الحجاج حجَّهم، إنه هو السميع العليم.

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد.

عباد الله، إن يومكم هذا هو يومُ الحجِّ الأكبر، وهو عيد الأضحى والنحر، وإن من أعظم ما يؤدى في هذا اليوم هو بقية مناسك الحج، إضافةً إلى الأُضحية الشرعية، التي ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحبَّ إلى الله من إراقة دم، وإن للمضحِّي بكل شعرة حسنة، وبكلِّ صُوفة حسنة، وهي سُنَّة أبينا إبراهيم المؤكَّدة، ويكره تركها لمن قدر عليها؛ كما أن ذبحها أفضلُ من التصدُّق بثمنها، وتجزئ الشاة عن واحد، والبدنة والبقرة عن سبعة.

ثم اعلموا أن للأُضحية شروطاً ثلاثة:

أولها: أن تبلغ السن المعتبر شرعاً، وهو خمس سنين في الإبل، وسنتان في البقر، وسنة كاملة في المعز، وستة أشهر في الضأن.

والشرط الثاني: أن تكون سالمة من العيوب التي نهى عنها الشارع، وهي أربعة عيوب: العرجاء التي لا تعانق الصحيحة في الممشى، والمريضة البيِّن مرضها، والعوراء البيِّن عورها، والعجفاء، وهي الهزيلةُ التي لا مخَّ فيها، وكلَّما كانت أكمل في ذاتها وصفاتها، فهي أفضل.

والشرط الثالث: أن تقع الأُضحية في الوقت المحدد، وهو الفراغ من صلاة العيد، وينتهي بغروب الشمس من اليوم الثالث بعد العيد، فصارت الأيام أربعة.

ومَنْ كان منكم يُحْسِنُ الذبح فليذبحها بنفسه، ومَن لا يحسنه فليوكِّل غيره ممَّن يحسنه، وليرفقِ الجميعُ بالبهيمة، وليرح أحدكم ذبيحته، وليحدَّ شفرته؛ فإنَّ اللهَ كتبَ الإحسان على كل شيء، حتى في ذبح البهيمة، ثم ليُسَمِّ أحدكم عند ذبحها ويقول: باسم الله والله أكبر، اللهم هذا منك ولك، اللهم هذه عن فلان أو فلانة، ويسمي صاحبها.

ثم اعلموا ـ أيها المسلمون ـ أن الله سبحانه وتعالىٰ قد جمع

لكم في هذا اليوم عيدين اثنين، وقد ثبت عند أبي داود وابن ماجه وغيرهما أن النبي ﷺ قال: «**قد اجتمَعَ في يومكم هذا عيدان، فمن شاء أجزأه من الجمعة؛ وإنا مجمِّعون**»، وقد قال المحقِّقون من أهل العلم: إنْ مَن شهد العيد سقطت عنه الجمعة، لكن على الإمام أن يقيم الجمعة ليشهدها مَنْ شاء شهودها، ومن لم يشهد العيد.

ثم اعلموا ـ يا رعاكم الله ـ أن الله سبحانه لم يشرع لأُمَّة الإسلام في السَّنَةِ إلا عيدين اثنين، هما عيد الفطر، وعيد الأضحى، وبهذا يُعْلَمُ أن ما يفعله البعضُ من التقليد الأعمى لأهل الغرب من خلال التشبه بأعيادهم ومناسباتهم وإقامتها في بلاد المسلمين كالذي يسمى: عيد الحب، أو عيد الأُم، أو ما شابه ذلك، فإن هذا من الأعياد المُحْدَثَةِ التي لم يأذنْ بها الشارع الحكيم، بل حرَّمها من وجوه متعدِّدة في كتابه وسنة نبيه ﷺ، ورأسُ أسبابِ التحريمِ هو أنه من الإحداث في الدين، والنبيُّ ﷺ يقول في الحديث الصحيح: «**مَنْ أحدَثَ في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو رَدٌّ**»، ناهيكم عن كونه تشبُّهاً بالمشركين، وقد جاء النهي عن التشبُّه بهم، بل قال النبي ﷺ: «**مَنْ تشبَّهَ بقوم، فهو منهم**»؛ إضافةً إلى كونها تسلب استقلالية المسلمين وعزَّتهم وتمسُّكهم بدينهم؛ على وجه المسارقة والتدرُّج، وأمة الإسلام يجبُ أن تكون متبوعة

لا تابعة، وقائدةً لا منقادة، ورضي الله عن ابن مسعود رضي الله عنه حيث يقول: «أنتم أشبَهُ الأُمم ببني إسرائيل سمتاً وهدياً تتبعون عملهم حَذْوَ القذة بالقذة، غير أني لا أدري أتعبدون العجل أم لا».

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ [الحج: ٣٤].

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد.

اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد؛ كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم...

* * *

عسى الله أن يجعل في المحنة منحة

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضلَّ له، ومَنْ يُضلِلْ فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ۝١﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعـــد:

فيا أيها الناس، إن شريعة الإسلام شريعة غرَّاء، سمتها الجُلَّى أن يُعْبَد الله وحده في الأرض ولا يشرك به مُتْبَعَةٌ بقواعد فرضها ربُّ البرية، هي خيرٌ كلُّها، ونورٌ كلُّها، وسلامٌ كلُّها، وفرحٌ كلُّها؛ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾

[آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

الدين الإسلامي عباد الله، هو شريعةُ الله العادلة للعالم أجمع، وما إرساله لخاتم رُسُله ﷺ إلا للناس كافةً بشيراً ونذيراً من أجل أن يدخل الناس في دين الله وصِبْغَتِهِ؛ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

الدين الإسلامي عباد الله، هو شريعة مبناها الاتباع لا الابتداع، وعلى الاقتداء والتأسِّي لا النكوص والتنسي، ودينُ المرء لن يكون ديناً حقًّا إلا إذا كان الخضوع فيه للحق سبحانه دون سواه، وإن خير هدي ينتهجه الناهجون هو هديُ رسول الله ﷺ، وهيهات هيهات أن يأتي الناس في أعقاب الزمن بأهدىٰ منه حتى يَلِجَ الجمل في سَمِّ الخِيَاط، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩].

إنه في أعقاب الزمن عباد الله، ووسط عصور الانتقال، تتعدد مسالك الحياة، وتتزاحم تداعياتُها هبوطاً وصعوداً، بمدى قُرب الناس من دينهم أو بُعدهم عنه، ومكانُ رسالةِ خاتمِ النبيين بين ذلك كلِّه، أنها دعوةُ كمالٍ وعدل، فكلَّما تردَّد الإنسانُ عبر هذه العصور التي تسمَّىٰ عصور الانفتاح بين طريقين، أو حارت نفسُهُ

في اختيار أحد مسلكين، فإن السُّنَّة تدعوه ولا شك إلى خيرهما، وإذا تردد العقلُ في خِضَمٍّ هذه النوازل المدلهِمَّة بين الحق والباطل، والزَّيْنِ والشَّيْن، دعته السُّنَّة إلى الحق والزَّيْن؛ لأن الحق أبلج والباطلَ لجلج، وبهذا يُعلم أن دعوة السُّنَّة وَسْطَ هذه الزوابع، إنما تكون لأصعب الطريقين، وأشقِّ الأمرين بالنسبة لأهواء البشر، المحاطة بعالمٍ أصبح عبر وسائله المختلفة كالكتلة الواحدة، ولا غرو في ذلك؛ فإن النار حُفَّت بالشهوات، والجنة حُفَّت بالمكارِه. ويبدو ذلك بوضوح في أن الانحدار مع الهوى سهلٌ يسير، ولكن الصعود إلى العلو من الصعوبة والمشقة بمكان؛ ألا ترون ـ حماكم الله ـ أن الماء ينزل وحده حتى يستقرَّ في عمق الوادي، ولكنه لا يصعد إلى العلو إلا بالجهد والمضخَّات؟!

أيها المسلمون، إن البُعد عن زمن النبوة مَظِنَّةٌ ولا شكَّ في البُعد عن تعاليمها وآدابها؛ فرسول الله ﷺ يقول: «**خيرُ الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»، ويقول أيضاً: «**إنه مَنْ يَعِشْ منكم، فسيرى اختلافاً كثيراً**»، وقال أيضاً: «**لا يأتي على الناسِ زمانٌ إلا والذي بعده شَرٌّ منه حتى تَلْقَوْا ربكم**».

ولأجل هذا عباد الله، فإنَّ الثوابت الشرعية من: توحيد الله، والإيمان به، والدعوة إليه، والحبِّ والبغض فيه، قد يَذْوي أكثرها أو بعضها مع مرور الزمن، وغلبة الأهواء وشيوع الهزل، حتى إنها

لتحتاج إلى مَنْ يردُّ لها الحياة بعدما اعتراها ما اعتراها من ذبول؛ إذْ لدينا كتابُ الله لا تخلق جِدَّته، ولا تفنىٰ ثروته، ولدينا نور نبوَّةٍ، ملهم السيرة، نقي السُّنن، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف تعمى النفسُ المؤمنة مع هذا الإشعاع؟! بل كيف يستوحش المرء في هذا العالم الموَّار، ومصدر الأمن والطمأنينة فوق ظهره محمول، شريطةَ ألا يغفل عن قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

إنه رغم الدمار البالِغ الذي تصاب به المجتمعات حيناً بعد حين، والوكزات التي تتلقَّاها أُمَّةُ الإسلام فجأة ثم تُصْرَعُ أمامها إثْرَ تقويض الرابطة الإسلامية الجامعة الحقَّة، وعلى الرغم من المكانة الملحوظة التي وفَّرها الإسلام للمجتمعات الإسلامية بِأَسْرِها من خلال تعاليمه المحكمة، وثوابته التي لا تتغيَّر، بل يخضع لها كل عصر وليست تخضع هي لكلِّ عصر، **إنه رغم ذلك كله**، إلا أن ثَمَّة خللاً ما، يؤكِّد أن تلك المجتمعات أحوَجُ ما تكون إلى أن تلتمس لطف الله وعفوه، وترتقبَ رحمته وإحسانه، وتلزب اللجوءَ إليه والعياذَ به عاملةً بما دعا به المصطفى ﷺ: ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، فلا إله إلا الله؛ ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

إنه ينبغي علينا ـ معاشر المسلمين ـ أن ندعو إلى دين الله جل وعلا، الذي هو مصدرُ عزَّتنا، وسِرُّ قوّتنا، من خلال التحدُّث عنه، على حقيقته وصورته التي ارتضاها اللهُ جلَّ شأنه دون استحياءٍ ولا خوفٍ ولا استجداء، مُتْبِعِينَ ذلك أنه دين العبودية لله وحده في كلِّ شيء والاتباع لرسوله ﷺ. وحذار حذار من أن يخطئَ أحدٌ حال التحدُّث عنه، فيعدلَ عن الوجه الصحيح.

ثم إن الدعوة إلى الإسلام برمَّتها أشبه ما تكون بالقضية العادلة، غير أنها وللأسف الشديد قد تقع بين أيدي محامين عنها يفشلون في عَرْض حقيقة الدفوع وإيضاح البيِّنات، وما ذلك إلاَّ من خلال التنازل عن ثوابتها وأُسُسها، بحثاً لغرض أو خوفاً من عرض.

ولا غرو في ذلك عباد الله، فلربما نستمع كثيراً لمتحدِّثين عن الإسلام يحامون عنه ويود المرء منَّا لو أنهم سكتوا فلم يَنْبِسوا بحرف واحد.

إن أمثال هؤلاء ولا ريب، لم يفهموا الإسلام بكماله كما تَنَزَّل من عند الله، والنزرُ اليسير ممن يتحدَّث عنه ويَدَّعي فهمه قد لا يُحْسِنون الإبانة عنه من خلال الخلط والمزج بين ما يصح وما لا يصح. ومن هنا يعظُمُ الخطر؛ لأننا في أزمنة خدَّاعة تحتاج إلى

المَهَرَة من ذوي الأفهام، عَبْرَ عصور يتزيَّن فيها القبيح من المبادئ، فتعرض نفسها على الناس في تزاويق خادعة، كما تتوارى الشمطاءُ وراء حُجُبٍ من الأصباغ والحليِّ.

إن الإسلام في حدِّ ذاته كالدواء، لا يحتمل أن يجتهد فيه كلُّ محتسٍ له، كما أن الدواء لا يكون دواء؛ لأن مادَّته تحوي أسباب الشِّفاء فحسب، كلا بل لابدَّ من تناوله بطريقته التي يشير بها الطبيب، على الوجه الذي وضع له الدواء، ومن تكلَّف طريقة من عنده لم يقل بها الطبيب، فلا يُوَلْوِلَنَّ أحدٌ حينئذٍ إذا استفحل الداء، ولات ساعة استشفاء.

وهيهات هيهات، أن تصلح المجتمعات، وقد وهت فيها حبال مُقَوِّماته الشرعية الحقَّة، وأُسُسُ الحياة المحكومة بصِبْغَة الله وشِرْعَته، دون اكتراث بما يُرْضِي الله وما يُسْخِطه؛ فكيف إذا كانت الحال في التشكيك في تلك المقومات أو السعي الدؤوب في إماتتها، أو بث ما من شأنه اتهام المسلمين، أو بذر الفرقة بينهم، أو التطلُّع إلى إرساء قواعد التراجع عن الدين، أو على أقل تقدير إشعار الغير بأنَّ مَن يتجرَّع الإسلام بآدابه وكماله، فإنه لا يكاد يسيغها إلا متهوِّعاً، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أيها المسلمون، من خصائص رسالة المصطفى ﷺ: أنه ما من خير إلا ودَلَّ الأُمَّة عليه، وما من شرٍّ إلا وحذَّر الأُمَّة منه، وقد كان

مِمَّا حذَّر الأُمَّةَ منه الفِتَنُ التي تكون في آخر الزمان وتكاثرها، والغواسق التي تحيط الأُمَّة من كل جانب، فتموج بهم كموج البحر، حتى إنها لتَدَعُ الحليم حيران، بل ولربما تستمرئها النفوس الضعيفة، وتَسْتَشْرِفُ لها رويداً رويداً إلى أن تَلَغَ من حمئها وهي لا تشعر، فإذا ألفتها لم تكدْ تتحوَّل عنها إلا في صعوبة بالغة، بعد أن تفقد خصائصها، ومِنْ ثَمَّ تموع وتذوب، وثَمَّة ما لجرحٍ بميت إيلام، وإنْ لم يُغبِّرْ حائطٌ في وقوعِهِ، فَلَيْسَ له بعد الوقوعِ غُبَارُ.

حتى تقع النفس في أُتُون الفِتَن فتحترق بلا لهب؛ ففي «الصحيحين» أن النبي ﷺ قال: «**ستكون فِتَنٌ القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، مَنْ تشرَّف لها تستشرفه...**» الحديث. قال الحافظ ابن حجر في معنى «**من تشرَّف لها**» أي: تطلَّع لها بأن يتصدَّى ويتعرَّض لها، ولا يُعْرِضُ عنها.

وفي «الصحيحين» أيضاً أن النبي ﷺ قال: «**يتقاربُ الزمان، وينقصُ العمل، ويلقى الشُّحُّ، وتظهر الفِتَن، ويكثُر الهَرْجُ**، قالوا: يا رسول الله، وما الهرج؟ قال: **القتل القتل**».

عباد الله، إننا في زمن تداعَتْ فيه الفِتَن كداهية دهياء، فقلَّت فيه الأمانة، ونُزِعَتْ فيه الخشية من الله، وتنافَسَ الناس فيه على الدنيا وحظوظ النفس، وكَثُرَ فيه القتل وبَلَغَ أَوْجَ صُوَرِه، على

اختلاف تنوُّعِهِ، حتى لربَّما لا يدري القاتل فِيمَ قَتَلَ، ولا المقتولُ فِيمَ قُتِلَ، كما قال ذلك النبي ﷺ فيما صحَّ عنه.

ولكن لمستفهمٍ أن يقول: **ما النجاةُ في خِضَمِّ هذه الأحداث؟ وما موقف المؤمن من متغيرات زمانه، وفجاءة النِّقْمَة فيه؟**

فالجواب على هذا بيِّن بحمد الله؛ فإن لكل داءٍ دواءً عَلِمَهُ مَن عَلِمَه، وجَهِلَهُ مَن جَهِلَهُ، والدواء في مثل هذا كثير التنوُّع:

فمِن ذلك **أولاً**: حمدُ الله على العافية مما ابتلَىٰ به كثيراً من الناس من الفِتَن والرزايا والحروب المدمِّرة، ثم الصبرُ على أقدار الله المؤلمة، والإيمانُ بأنَّ ما يريده الله كائنٌ لا محالة، وأن ما أصاب الناسَ لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]، عند مسلم في «صحيحه» أن النبي ﷺ قال: «**إن الله كتَبَ مقاديرَ الخلائقِ قبل أن يَخْلُقَ السموات والأرض بخمسين ألف سنة**»، ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فلا إله إلا الله، ما أوسع علم الله، فانظروا إلى الأحداث والمستجدَّات عباد الله كيف تحِلُّ بنا فجأة على حين غرةٍ دون أن تقع في ظن أحدنا أو يدور بخَلدِه أن أحداثاً ما ستكون يوماً ما؛ مما يؤكِّد

الاعتصام بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، واللجوء إليه، وخشيته وحده بالتوبة والإنابة، وكثرة الدعاء والاستغفار والصدقة، وبذل الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا ملجأ من الله إلا إليه، ألا إنَّ مَن خافَ البشر فرَّ منهم، غير أنَّ مَن خاف الله فإنه لا يفر إلا إليه؛ ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠]، ولقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يَرُدُّ القَدَرَ إلا الدعاء**».

ألا وإن ما يحدُثُ في هذه الأزمنة، من كوارث تحلُّ بنا بَغْتَة ليُذَكِّرنا باليوم الذي تقوم فيه الساعة، والناسُ في غفلة مُعْرِضون مع ما يتقدَّمها من أمارات وأشراط تدلُّ عليها؛ فقد جاء في «الصحيحين» أنَّ النبي ﷺ قال: «**لتقومَنَّ الساعةُ وقد نَشَرَ الرجلان ثوبهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومَنَّ الساعةُ وقد انصرَفَ الرجلُ بلبن لِقْحَتِهِ فلا يطعمُهُ، ولتقومَنَّ الساعةُ وهو يُلِيطُ حوضه فلا يسقي منه، ولتقومَنَّ الساعةُ وقد رفع أُكْلَتَهُ إلى فِيهِ فلا يطعمها**»؛ كل ذلكِ عباد الله، دليلٌ على فجاءة النِّقمة وأنَّ نفساً لا تدري ماذا تَكْسِب غداً ولا تدري بأي أرضٍ تموت.

ثم اعلموا يا رعاكم الله: أنه ينبغي للمرء المسلم في خِضَمِّ الأحداث الرهيبة، والمتغيرات المتنوِّعة، ألاَّ يُصاب بشيء من الاسترسال مع مشاعر القنوط واليأس، وألا يحبس أنفاسه مع الجانب الذي قد يكلح في وجهه على حين غفلة من جوانب الخير

الأخرى في حياته، دون التفات إلى المشوِّشات من حوله، والتخوُّفات التي ليس لها ضريب، فليس بلازِم عقلاً أن تكون تلك المخاوف صادقة كلُّها، فلربَّما كانت كاذبةً إذْ قد تصح الأجسام بالعِلَل، وقد يكون مع المحنة منحة، ومع الكرب فرج، ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]، ولن يغلِب عُسْرٌ يُسْرَيْن؛ ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

❊ ❊ ❊

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضىٰ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعـــد:

فيا أيها الناس، إنَّ مما لا شكَّ فيه أن كثرة الفِتَنِ تُزَلْزِلُ كِيَانَ الناس، وأن فتيل الحروب إذا اشتعَلَ عسر انطفاؤه، وأن التهويشَ والتشويشَ والقِيلَ والقَالَ والظنَّ والخرص، لَمِمَّا يزيد الأمر سوءاً وتعقيداً، والنارَ اشتعالاً واضطراماً، ولا جرم فإنَّ النار قد تذكى بالعيدان، كما أن في مبدأ الحرب كلام اللسان، ولقد كان السلف الصالح أحرص الناس على اتقاء الفِتَن، والنأي بأنفسهم عن أن يقعوا في شَرَكِهَا، بل يستعيذون بالله منها، وكلَّما لاحت لهم في الأُفق فتنة، تمثَّلوا بما رواه البخاري في «صحيحه» عن خلف بن حَوْشَب؛ أن السلف كانوا يقولون عند الفتن:

الحـربُ أوَّلَ مـا تكـون فتيـة	تسعـى بـزينتهـا لكـلِّ جهـولِ
حتى إذا اشتعَلَتْ وشَبَّ ضرامها	ولَّـتْ عجـوزاً غيـرَ ذاتِ حَليـلِ
شمطـاءَ يُكْـرَهُ لـونهـا وتغيَّـرَتْ	مكـــروهـــةً للشَّـــمِّ والتقبيـــلِ

ثم اعلموا أيها المسلمون: أنَّ مِنْ أدب الإسلام في الفتن، كفَّ اللسان وحبسَهُ وعدمَ الزجِّ به فيما لا يعني، وزمَّهُ عن الفحش والتفحُّش أو الوقوعِ في الظن والخرص؛ فإن إطلاق اللسان، وسيلانَ الأقلامِ خائضةً في المدلهِمَّات، ولاتَّةً في المشتبهات، والقضايا المزعجات، دون زمام ولا خطام، لَمِنْ شأنه أن يُضعف إيمانَ المرء المسلم، ويوقعه مواقع الزلل غير آبهٍ بوصية النبي ﷺ لعقبة بن عامر حينما سأله: ما النجاة؟ قال: «**امْلِكْ عليك لسانك، ولْيَسَعْكَ بيتك، وابكِ على خطيئتك**» [رواه الترمذي في جامعه].

إن اللَّهَثَ وراء كلِّ حدثٍ وخبر، باللسان تارةً وبالأقلام أضعافها، في البيتِ وفي السوق، والمجالس والمنتديات، وعبر شبكات تقنية، يكثُرُ فيها اللغط دون تروٍّ أو توثق، أو محصلة من العلم والفهم، لمِمَّا يُقلِّل العافية والسلامة من الخطأ، فضلاً عن أن يقدِّم حلاً عاجلاً سوى الخلط والجهل والتضليل.

ولله دَرُّ أبي حاتم البُسْتِيِّ حين قال: إن العافية عشرة أجزاء، تسعةٌ منها في السكوت؛ لأن من الناس مَنْ لا يكرَّم إلا بلسانه ولا يُهان إلا به، فالواجبُ على العاقل ألا يكونَ ممَّن يُهان به.

ثم اعلموا عباد الله: أن المحادثات الشفهية، والمطارحات الورقية، لا ينبغي أن تكون مركباً لكل راكب، ولا عَلَكاً يلوكه الكل، وأمورُ الناس بعامة لا ينبغي أن يتصدَّى لها أي أحد كيفما

اتفق، دون تمييز بين الغثِّ والسمين، وبين ما يعقل وما لا يعقل، وإنه لمن المستكره أن يكون مقدارُ لسان الإنسان أو قلمه فاضلاً على مقدار علمه، ومقدارُ علمه فاضلاً على مقدار عقله، فلقد روى البخاري في صحيحه عن علي رضي الله عنه أنه قال: «حدِّثوا الناسَ بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟!»؛ فمن هَرَفَ بما لا يعرف فهو ممن قال الله فيهم: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾[الذاريات: ١٠]، قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هم أهل الغِرَّةِ والظنون.

وروى الإمام أحمد وغيره، عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ أمامَ الدجَّال سنين خَدَّاعات، يكذَّبُ فيها الصادق، ويُصدَّق فيها الكذوب، ويخوَّنُ فيها الأمين، ويؤتمن فيها الخائن، ويتكلمُ الرويبضة، قيل: وما الرويبضة؟ قال: الرجلُ التافهُ يتكلَّم في أمر العامة».

فعلى حَمَلَة الأقلام، وذوي اللسان: أن يتقوا الله سبحانه ولا يستخِفُّوا بأحد، وألا يبغوا على أحد من المسلمين، يقول ابن عبدالبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أحقُّ الناس بالإجلال ثلاثة: العلماءُ، والإخوان، والسلطان؛ فمَن استخفَّ بالعلماء، أفسد مروءته، ومَن استخفَّ بالسلطان، أفسد دنياه، والعاقل لا يستخف بأحد.

ومما يزيد الأمر تأكيداً وتوثيقاً عباد الله: حينما يكون الخوض فيما قال الله، أو قال رسوله ﷺ، فليس لذلك إلا العلماءُ

الأتقياء الأنقياء، فهم وَرَثَةُ الأنبياء، ومصابيحُ الدُّجىٰ؛ فحذارِ حذارِ لِمَنْ تجاوَز طريقهم أن يقع في قول النبي ﷺ: «مَنْ أُفْتِيَ له بغير علم، كان إثمه على مَنْ أفتاه» [رواه أبوداود].

وقد قال عبدالله بن وهب: قال لي مالك بن أنس: يا عبدالله، لا تحملنَّ الناسَ على ظهرك، وما كنت لاعباً به من شيء، فلا تلعبنَّ بدينك.

ولذلك قال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما كُفِيتَ عن المسألة والفتيا، فاغتنمْ ذلك ولا تنافس، وإياك أن تكونَ ممَّن يحبُّ أن يُعْمَلَ بقوله، أو ينشر قوله، أو يسمع قوله، وإياك وحُبَّ الشهرة، فإن الرجل يكون حبُّ الشهرة أحبَّ إليه من الذهب والفضة، وهو بابٌ غامض لا يبصره إلا العلماء السماسرة.

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

اللهم صَلِّ على محمد...

* * *

الأمن بين الحقيقة والتلبيس

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي يبسط الرزق لمَنْ يشاء ويقدر، ويحيط علماً بما يظهره العبد وما يُضْمِر، الكريم الذي يقبلُ التوبةَ عن عباده، فيمحو الزلَلَ ويغفر، أحمده سبحانه وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله إلى جميع الثَّقَلَين بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنِهِ وسِراجاً منيراً، وترَكَنا على المَحَجَّة البيضاء ليلُهَا كنهارِها لا يَزِيغُ عنها إلا هالِك، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه الغُرِّ الميامين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعــد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله سبحانه؛ فإنها الأمان عند الخوف، والنجاة عند الهلاك، بها يشرف المرء وينبل، وبالنأي عنها يذل العبد ويسفل، هي وصية الله للأولين والآخرين، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

في ظلِّ الأمن والأمان تحلو العبادة، ويصير النوم سُباتاً،

والطعام هنيئاً، والشراب مريئاً، الأمن والأمان، هما عمادُ كلِّ جهد تنموي، وهدف مرتقب لكل المجتمعات على اختلاف مشارِبها، بل هو مطلب الشعوب كافة بلا استثناء، ويشتد الأمر بخاصة في المجتمعات المسلمة، التي إذا آمنت أَمِنَت، وإذا أَمِنَتْ نمت، فانبثق عنها أمن وإيمان ونماء؛ إذ لا أمن بلا إيمان، ولا نماء بلا ضمانات واقعية ضد ما يعكِّر الصفو في أجواء الحياة اليومية، إنَّ إطراء الحياة اليانعة، هو ديدنُ كافة المنابر، لِمَا للأمن من وَقْعٍ في حس الناس، من حيث تعلُّقُهُ بحرصهم على أنفسهم فضلاً عن كونه هِبة الله لعباده، ونعمة يُغْبَطُ عليها كلُّ من وُهِبَهَا، ولا غرو في ذلك فقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: **«مَن أصبحَ آمناً في سِرْبِهِ، معافًى في بدنه، عنده قوتُ يومِهِ، فكأنَّما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها»**.

بضعف الأمن وانحلاله تظهر آثار خبث الشيطان وألاعيبه هو وجنده من الجن والإنس، وإقعادِهِمْ بكلِّ صراط يوعدون في الأغرار من البشر، ويستخفُّونهم فيطيعونهم؛ فيبين حِذْقُهم وإغواؤهم؛ محقِّقاً الشيطان توعده بقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

إن المزايدة على الأمن والأمان في مجتمعات المسلمين

بعامة، لهو مدعاةٌ للسخرية والفوضى، المفرزَيْنِ للممارسات الشاذَّة، والإخلالِ المرفوض بداهةً، والمهدِّدِ لسفينَةِ الأمان الماخرة، كل ذلك غير مستساغ شرعاً ولا عقلاً، ولا قبولَ له تحت أي مبرر كان، بل كل مزايدة في اختلال الأمن، إنما هو من نسيج الأعداء المتربصين بنا، وإن استعملوا في نفاذ اختلاله، اللهازمَ من أبناء أمَّتنا وأغرارهم، من أجل سلب أمن الأُمَّة المسلمة ومُقَدَّراتها بكل ما تعنيه الكلمة.

إن المرء المسلم، لفي فسحة من دينه عن أن يَزُجَّ بنفسه في مهاوي الرذيلة ومَحَالِّ الريب، ومزعزعُ الأمن ومخلخله إنما هو - بادي الرأي - يزعزع أمن نفسه ووالدَيْهِ وبقيةِ أسرته، قبل أن يزعزع أمن غيره من الناس، كل هذا يبدو جليًّا في مثل كأس خمر، أو قتل نفس، أو جرعة مخدِّر، أو هتك عرض، أو إحلال فساد بين الخلق، بمثل ذلك ينسلخ مُوَاقعُ هذه الأمور عن إنسانيته، ويتقمَّص شخصية الإجرام والفتك والفاحشة والإخلال بالمسلمين؛ فيشل الحياة، ويهدم صرحَ الأمة، ويوقع مجتمعه وبني ملَّته في وهدة الذل والدمار، فيَخِلُّ بالأمن، ويروِّع المجتمع، ويبدِّد أمنهم شذَرَ مذَرَ.

إنه متى امتدَّ شذوذ المرء ليشمل الآخرين، ويمس أمن أهله

ومجتمعه، فإنه لا محالة، يُعَرِّضُ نفسه لحَتْفِهِ بالغاً ما بَلَغَ من العنفوان والشجاعة، وإلا فلو فكَّر مزعزع الأمن مليًا في مصير والده ووالدته، حينما تأخذهما الحسرات كل مأخذ، وهما اللذان ربياه صغيراً، يتساءلان في دهشة وذهول: أَمِنَ المعقولِ أن يكون مَنْ ولدْنَاهُ تحت ناظرنا، مِعْوَلَ هَدْمٍ لأمن المجتمع وصرحه؟!

أَمَا يُفَكِّرُ مزعزع الأمن في زوجه وأولاده الذين يخشى عليهم الضياع من بعده، والأسى من فقده؟! ألا يشعر بأن زوجه أرملة ولو كان حيًّا؟! أَمَا يشعر بأن أولاده أيتام ولو كان له عرق ينبض؟! ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]!

أَوَلاَ يُفَكِّرُ مزعزع الأمن، كيف يحل عليه الضعف محل القوة، والهمّ من نفسه محل الفرح، والكَدَر مكان الصفاء، حيث لم يعد يؤنسه جليس، ولا يريحه حديث، قَلِقٌ متوجِّسٌ كثيرُ الالتفات، فكيف يصل إلى منشوده، بعد أن يسأم الحياة بفعله الشاذ، والذي سيجعله قابعاً في غياهب السجون بسبب جرمه، فضلاً عمَّا يُخالِجُ أنفاسه وأحاسيسه من ارتقاب العقوبة كامنةً عند كل طرقة باب، ولاسيَّما إن كان في هذه العقوبة حتفه وتغييبه من هذه الحياة، ولا غرو في ذلك فإنَّ في قَتْلِ مجرمٍ واحد حياةً هنيئة

لأُمَّة بأكملها؛ ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقديماً قِيل: القتل أنفىٰ للقتل.

أيها المسلمون، من أجل استتباب الأمن في المجتمعات، جاءت الشريعة الغرَّاء بالعقوبات الصارمة، وحفظت للأمة في قضاياها ما يتعلَّق بالحق العام والحق الخاص، بل إن من المُسَلَّم في الشريعة قَطْعَ أبواب التهاون في تطبيقها أيًّا كان هذا التهاون، سواءٌ كان في تنشيط الوسطاء في إلغائها، أو في الاستحياء من الوقوع في وصمة نقد المجتمعات المتحضِّرة، فحفظاً للأمن والأمان، غضب النبي ﷺ على مَنْ شَفَعَ في حدٍّ من حدود الله بعد ما بَلَغَ السلطان، وأكَّد على ذلك بقوله: «**وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»، وما ذاك أيها الناس إلا من باب سدِّ الذريعة، المُفْضِية إلى التهاون بالحدود والتعزيرات، أو التقليل من شأنها.

وإنه حين يدب في الأُمَّة داءُ التسلُّل الأمني، فإن أفرادها بذلك يُهِيلون التراب على تراث المسلمين، ويقطعون شرايين الحياة عن الأجيال الحاضرة، والآمال المرتقبة، وهم يخدمون بمثل هذا، عن وعي أو عن غباء، الغارةَ الاستعمارية على ديار الإسلام من خلال أعمال خرقاء تزيد السقم عِلَّة، والطينَ بِلَّةً، فيُطاح بالمسلمين

وتوصَدُ أبوابُهم أمام الحياة الهانئة الآمنة، ومثل هذا ظاهر جلي، في طرح الدعوات الصارخة لِمَا يُسمَّىٰ بمبادئ حقوق الإنسان، والتي تجعل من فتح الحريَّات، وعتق الرغبات، رفضاً باتًّا للفِطَر السليمة، وسبباً مباشراً تدمَّر به الأخلاق المستقيمة، ومن ثَمَّ يزعمون أنَّ مَن خالَف ذلك فهو ضد الإنسان والإنسانية، وضد الحقوق الشخصية، والرغبات الفردية، وهي في الحقيقة ليست من الإنسانية في شيء، ولا هي من بابتها، فلا تَمُتُّ لها بخيط رقيق ولا حبل متين.

بل إن ما ينمّق حول ذلك ويزوّق مُرُّ العاقبة وإن حلا ظاهره، وصعب المرتقى وإن سهل ترويجه، ودميمُ الطرح مهما بدت للاهثين دماثته.

لقد سَفَّهَتْ دعواتُ حقوق الإنسان أحكامَ الشريعة، فوصفت إقامة الحدود بالسفه والحطة والغلظة، دعا أهلها إلى حفظ حقوق الإنسان فقتلوه من حيث أرادوا حفظ حقه، أخرجوه من القيود الشرعية حرصاً عليه، فإذا بهم في نهاية المطاف يدركون أنهم إنما كانوا ينادون بحفظ حقوق الإنسان المجرم، فإلى الله المشتكى.

أيها المسلمون، القاعدة المقررة تقول: إن الحكم على الشيء فرع عن تصوُّره، ولأجل أن نعرف حقيقة الأمن وصورته، فلابد أن

تكون هذه المعرفة متَّصفة بالشمولية، وألا تكون ضيِّقةَ العَطَن مستهجنةَ الطرح، من خلال قَصْرِ بعض الأفهام حقيقةَ الأمن على ناحية صيانة المجتمع من الجرائم فحسب، أو أن يقصرَ مفهوم حمايته على جناب الشُّرَط والدوريات الأمنية في المجتمعات العامة، كلا، فالحديثُ عن الأمن ليس مقصوراً على هذا التصوُّر البسيط؛ إذ الحقيقةُ أشدُّ، والخَطْبُ أعظم، بل إن المواطن نفسه، رجلاً كان أو امرأة، ينبغي أن يكون رجلَ أمن، ورجلُ الأمن ما هو إلا مواطن صِرف.

فإذا استحضرنا هذا التصور بما فيه الكفاية، وجب علينا بعد ذلك، أن نعلم شمولية مفهوم الأمن، وأنه ينطلق بادي الأمر، في عقيدة المجتمع وارتباطه الوثيق بربِّه، والبُعد عن كل ما من شأنه أن يوقع أفراده في الخوف بدل الأمن، والزعزعة بدل الاستقرار.

فأوَّل الواجبات الأمنية: البُعْدُ عن الشرك بالله، في ربوبيته أو ألوهيته أو حكمه، أو الكفر بدينه، أو تنحية شرعه عن واقع الحياة، أو مزاحمة شرع غير شرعه معه، بالغةً ما بَلَغَت المبررات المغلوطة؛ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، الأمن بهذه الصورة هو المطلب الأول، وهو الذي تتحقَّق به الصلة بالله، والتي بسببها يعمُّ الأمن أرجاء

المجتمعات، ويتحقَّق وعد الله لها بقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾؛ فكان الجواب التالي لذلك: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥]، والشرك هنا غير مقصور على مجرَّد عبادة الأصنام، كما يتصوره البعض، فيُخْرِجون معنى هذه الآية عن صور شتى في هذه الأزمنة، فكلمة «شيئاً» نكرة في سياق النفي، فتعم جميع صور الشرك مهما قلَّت؛ ألا تسمعون قول الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وقد ذَكَرَ الإمام أحمد أن الفتنة هنا هي الشرك.

ثم إن ما ينبغي علينا تجاه مفهوم الأمن، ألا ننحِّيه عن مراكز القوى في مجتمعاتنا، أو نتجاهل أثر هذه المراكز في تحقيق معنى الأمن بصورته الأساس، فهناك ما يسمَّى بالأمن الغذائي، وما يسمى بالأمن الصحي الوقائي، وهناك ما يتعلَّق بالضوابط الأمنية في مجالات التكافل الاجتماعي وتَهْيئةِ فُرَصِ العمل والإنتاج، والقضاء على البطالة، المثمرة للخلل والفوضى، إضافة إلى النواحي الأمنية المنبثقة من دراسة الظواهر الأُسْرية وما يعتريها من ثقوبٍ واهتزاز في بنيتها التحتية؛ لأن الأمن بين الجنسين وبالأخص

بين الزوجين، هو سبب ولا شك من أسباب أمن العشيرة، وأمنُ العشيرة أمنٌ للأُمَّة المؤلَّفةِ من العشائر المؤلَّفة من الأزواج، فهذا الأمن المترابط، هو الذي يتكوَّن منه مزاج الأُمَّة الأمني...

كما يجب علينا ألا نغفُلَ عمَّا لا يقل أهمية عمَّا مضى، بل إنه في هذه العصور، يعد هاجساً أمنيًا لكل مجتمع، ألا وهو الأمن الفكري، إنه الأمن الفكري الذي يحمي عقول المجتمعات، ويحفظها من الوقوع في الفوضى، والعَبِّ من الشهوات بِنَهَم، أو الولوغ في أُتُون الانسلاخ الأخلاقي الممزِّقِ للحياء الفِطري والشرعي، الأمنُ الفكري عباد الله: ينبغي أن يُتَوَّجَ بحفظ عنصرين عظيمين.

أولهما: عنصر الفكر التعليمي.

وثانيهما: عنصر الأمن الإعلامي.

إذ يجب على الأمة من خلال هذين العنصرين ألا تقع في مزالِق الانحدار والتغريب، والتي هي بدورها تطمس هوية المسلم، وتُفْقِده توازنه الأمني، والاعتزاز بتمسُّكه بدينه؛ **إذ إن الأمن على العقول،** لا يقل أهمية عن أمن الأرواح والأموال، فكما أن للبيوت لصوصاً ومختلسين وللأموال كذلك، فإن للعقول لصوصاً ومختلسين، بل إن لصوص العقول أشد خطراً، وأنكى جرحاً من

سائر اللصوص، فحمايةُ التعليم بين المسلمين من أن يتسلَّل لِوَاذاً عن هويته، وحماية التعليم في إيجاد الآلية الفعَّالة في توفير سُبُل العِلْم النافع، الداعي إلى العمل الصالح، والبُعْدِ عن التبعية المقيتة، أو التقليل من شأن العلوم النافعة والتي لها مساس أساس في حياة الأُمم، من الحيثية الشرعية الدينية التي يعرف بها المرءُ ربَّه وواجبه المفروض عليه، أو التهوينِ من شأن علوم الدين، أو استثقالها على النفوس، لمن شأن ذلك كله أن تضعُفَ المجتمعات بسببه، وأن تندرس معالِمُ الأمن الفكري إبَّان عصر التحكم المعرفي والاتصالات العلمية والثقافية، التي غلبَتْ على أدوار الأُسر والبيئات، التي تنشد الصلاح العام.

أما الفكر الإعلامي عباد الله، فهو مقبض رَحَى المجتمعات المعاصرة، وأقنومها الأساس، به يُبَصَّرُ الناس وبه يُغَرَّبون، به تخدم قضايا المسلمين وتنصر، وبه تطمس حقائقها وتهدر، بالفكر الإعلامي تُعْرَفُ المجتمعاتُ الجادَّة من المجتمعات المستهترة، المجتمعات المثلى من المجتمعات الناكبة، فما يكون في الفكر الإعلامي من اعتدال وكمال، يكون كمالاً في بنية الأمن الإعلامي واعتدالاً، وقرة عين لمجموع الأمة، وما يطرأ عليه من فساد واعتلال، فإنه يكون مرضاً للأُمَّة يُورِدها موارد الهلكة والتيه.

وحاصل الأمر عباد الله: أنه ينبغي علينا جميعاً، أن ننظر إلى الحقيقة الأمنية من أوسع أبوابها، وأقربِ الطُّرُقِ الموصلة إليها، بل لا نبعد النجعة إن قلنا: ينبغي على المسلمين جميعاً ألا يغفلوا جانب أسلمة الأمن الفكري؛ فالإسلام هو دين السلام، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[آل عمران: ٨٥]، ولله ما أعظَمَ قولَ النبي ﷺ لعظيم الروم: «أدعوكَ بدعايةِ الإسلام: أَسْلِمْ تَسْلَمْ، أَسْلِمْ تَسْلَم».

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحبُّ ربّنا ويرضىٰ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعــد:

فاتقوا الله أيها المسلمون، ثم اعلموا أن من أهم الوسائل الموصلة إلى الراحة الأمنية من كافة جوانبها، دون كلفة أو تجنيد أو إعداد، هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنُّصْح لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامَّتهم؛ فإن ذلك عماد الدين الذي فُضِّلَتْ به أُمة الإسلام على سائر الأُمم، والذي يسد من خلاله خوخات كثيرة من مداخل الشر على العباد، بالنُّصْح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تتكاتفُ الجهود، ويُلَمُّ الشعث، ويُرْأَب الصَّدْع، وتتقىٰ أسبابُ الهلاك، وتُدْفَعُ البلايا عن البشر، وفقدُ ذلك أو تزعزعه من نفوس الناس، يعني بداهةً حلولَ الفوضى، وانتشار اللامبالاة، المولِّدة للأمن العكسي، وهو الأمن من مكر الله، ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ

﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، بالأمر والنهي عباد الله يصلح المجتمع، ويقوم الفرض الكفائي الذي يُسْقِطُ التبعية والإثم عن بقية المجتمع، وإلا تحقَّق فينا قول الباري جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، ولم يقل: وأهلها صالحون؛ فإنَّ مجرَّد الصلاح ليس كفيلاً في النجاة من العقوبة الإلهية الرادعة، والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر بين المسلمين إنما هم في الحقيقة يقومون بمهام الرُّسُلِ في أقوامهم وذويهم، فبقدر الاستجابة لنُصْحِهم تكون الحُجَّة والنجاة، والعكس بالعكس، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

إن انعدام النُّصْحِ بين المسلمين سِمَةٌ من سمات اليهود، ومعرَّةٌ من معرَّاتهم الخالدة؛ فقد كانت مواقفهم في الصيد يوم السبت عن طريق الحيلة مشهورة، حتى أعلن الفَسَقة منهم بصيده، فنهضت فرقة منهم ونهَتْ عن ذلك وجاهرت بالنهي واعتزلت، وفرقة أخرى لم تعص ولم تنه بل قالوا للناهين: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤]، فلمَّا لم يستجب العاصون، أخذهم الله بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون، فنصَّ الله على نجاة الناهين بقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ

عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، وسكت عن الساكتين؛ روى ابن جرير بسنده عن عكرمة قال: دخلتُ على ابن عباس رضي الله عنهما والمصحف في حجره وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك يا ابن عبَّاس، جعلني الله فداءك؟ فقال: هؤلاءِ الورقات، وإذا هو في سورة الأعراف، فقال: ويلك، تعرف القريةَ التي كانتْ حاضرةَ البحر؟ فقلت: تلك أَيْلَةُ، فقال ابن عباس: لا أسمَعُ الفرقةَ الثالثةَ ذُكِرَتْ، نخاف أن نكونَ مثلهم، نرىٰ فلا نُنْكِر، فقلت: أما تسمعُ الله يقول: ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأعراف: ١٦٦] فسرِّي عنه وكساني حُلَّة.

إذاً ينبغي لأفراد الناس عموماً، وأهل العلم بخاصَّة: أن يقوموا بواجِب النُّصْح لمجتمعاتهم وأُسَرِهم ومنتدياتهم، على الوجوه التي جاءتْ بها الشريعة الإسلامية، حكمةً وموعظةً حسنة ومجادلةً بالتي هي أحسن، وإنَّ الله لَيَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن، ثم إنه لا يمنع من التمادي في الوعظ والنُّصْح والإصرار عليه، عدمُ قبول الحق من الناصح؛ لأنه فَرْضٌ فَرَضَهُ الله علينا جميعاً قُبِلَ أو لَم يُقْبَل، فإن هذا هو الذي يحفظُ للأُمَّة كيانها بأمر الله، وبه تكونُ المعذرةُ إلى الله، ويكون الخروجُ من التبعة وسوءِ المغبَّة، واللهُ الهادي إلى سواء السبيل.

اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد...

العقـل بين مفهومَـين

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مضلَّ له ومَن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعـــد:

فإنَّ أصدقَ الحديث كلامُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النار.

أيها الناس، جميلٌ جدًّا أن يتحدَّث المرء بنعمة الله عليه، وبآلائه التي أسبَغَها على عباده ظاهرة وباطنة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، ومما لا شكَّ فيه أن

نِعَم الله علينا تَتْرَا، بل كل النِّعَم هي منه وحده لا يشركه معه غيره، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

عباد الله، قد لا تختلف أفهامنا جميعاً، على أنَّ مِن أعظم النِّعَمِ التي أكرمنا الله بها، هي نعمة العقل، العقل الذي وَهَبَنا الله إياه لنمتاز به عن الحيوان الأعجم والصَّخْرِ الصَّلْد، فبالعقل يشرُفُ الإنسان، وبالعقل يُكَلَّف المرءُ المسلم، وبه يعرف خالِقَهُ جلَّ شأنه، ذلكم العقلُ الذي يميِّز به بين الخير والشر، والهدى والضلالة، إذا استعمله الإنسان كان سبباً في سلوك طريق الهدى، والبُعْدِ عن موارد الردى، العقل الذي يُعَدُّ من أكبر الطاقات البشرية طُرًّا؛ إنه نعمة عظمى، وسِمة جُلَّى امتنَّ الله بها علينا، ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

إنه لا يعلم قدر العقل إلا مَن وُهِبَه، وإلا كان هو وعَيْرٌ في الفَلاة سواء. ومَن تأمَّل حكمة الله جل وعلا في أن يكون الطفل الوليد بلا عقل اكتسابي: يدركُ أثر هذه النعمة عليه حينما يوهب شيئاً بعدما منع منه؛ ليكون الإحساس به أشدَّ وقعاً، وأجدىٰ نَفْعاً، ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: لو وُلِدتَ أيها الإنسان عاقلاً، كحالك في كبرك، لتنغَّصَتْ عليك حياتك أعظَمَ تنغيص؛ لأنك ترىٰ نفسك محمولاً رضيعاً، عاجزاً مسجوناً في المهد، أو كنتَ ممَّنِ ابتلي بفقد والديه، فكنتَ

كالوالِهِ الحيران، ولكنَّها محض الحكمة والرحمة بك والتدبير. اهـ.

ثم اعلموا أيها الناس أنَّ العقل إما أن يكون غريزيًّا، وإما أن يكون اكتسابيًّا:

فالأولُ: كعقل الطفل الذي سَبَق ذِكْره.

والثاني: ما يكتسبه الصبي على مرور الأيام إلى أن يبلغ أربعين سنة، ثم بعد ذلك يأخذ في النقصان إلى أن يخرف، بخلاف العلم؛ فإنه يكون كل يوم في زيادة، ومنتهى تعلُّم العلم هو منتهى العمر، وهذا يدل على أن العقل أضعف من العلم، فلأجل ذلك عباد الله، أجمعت الرُّسل قاطبة على حفظ الضرورات الخمس، والتي هي الدين والعقل والعرض والمال والنفس.

فالعقل إذاً ضرورةٌ كُبْرَىٰ من هذه الضرورات، مرهونة بإيجاد ومنع، **فالإيجاد**: إنما يكون من خلال استعماله في طاعة الله سبحانه، واعتقاد دين الإسلام به، **والمنع**: إنما يكون من خلال سدِّ كل ذريعة مفضية إلى إفساد هذا العقل أو تعطيله عن الاتصال بنور الهداية، فلأجل ذلك حُرِّمَ كلُّ ما من شأنه أن يكون سبباً في زواله؛ كشرب المسكرات والمخدرات ونحوها، بل لقد جعل الشارع الحكيم الدِّيَةَ كاملة في زوال العقل بسبب الاعتداء عليه، ولو لم يكنْ من ذلك إلا كون العقل شرطاً في معرفة العلوم، وفي الأعمال وصلاحها، وبه يكمل دين الإنسان، لكفىٰ، غير أنه لا يستقل بذلك وحده، إذ هو غريزةٌ في النفس، وقوة فيها كقوةِ البصر

إيجاباً وسلباً، وما ذاك إلا بقدر اقتباسه من نور الإيمان، بيدَ أنه إذا انفرد عن النور، أو أبعد عنه بالكلية، كانت أقواله وأفعاله أموراً حيوانية؛ كما قال ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

ثم إن العقل البشري الذي يستطيع أن يؤدِّي وظيفته على أكمل وجه هو ذلكم العقل الذي تجرَّد عن الهوىٰ، وخلص من ربقة التقليد الأعمى، فلم يتأثَّر بالآراء والأفكار المنحرفة، التي تدفع للوقوع في الزيغ والضلال، كما أنه لم يعطل عقلهُ باتباع أعمى، فينجرّ به إلى انحراف ذريع، وزيغ مردٍ. هذا هو العقل الذي يمكن أن يحمل رسالة الإسلام حملاً صحيحاً، وأما الذين كبَّلوا عقولهم وعطَّلوها عن موارد النهل الصافي، فهم الذين قال الله عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١].

وجِماع ما مضى ذِكْره عباد الله: هو ما ذكره أبوالقاسم الأصبهاني رحمه الله بقوله: العقل نوعان: عقل أُعِينَ بالتوفيق، وعقل كِيدَ بالخِذْلان، فالذي أعين بالتوفيق يدعو صاحبه إلى موافقة الأمر المفترض بالطاعة، والانقياد لحكمه والتسليم، والعقلُ الذي كيد يطلب بتعمقه الوصول إلى علم ما استأثر الله بعلمه، وحَجَبَ أسرار الخلق عن فهمه، حكمةً منه بالغة.

عباد الله، إنما قلنا ما قلناه في هذه العُجالة كمدخل لتوطئة نشير بها إلى أن جملة من عقول هذه الأجيال المتأخرة، يخشى

عليها من تسلُّل ظلمات بعضها فوق بعض، أو أن تدب إلى عقولهم شبهات ومكابرات، لا يجد الوالِغُ في حمأتها بصيصَ نور يهتدي به إلى سواء الصراط، أو يخلص به من ضلالة، وذلك من خلال حلول شيء من الازدواجية الممقوتة غير يسير، عبر وسائل التلقِّي المختلفة، والتي يتعارَكُ فيها الحق والباطل، والصحيح والضعيف، والعقل والشرع، والزين والشين، يبرز فيها الحق مرة والباطل فيها مرات، جنِّدت لمثله أقلامُ بعض الورقيين من ممتهني الصحافة أو الكتابة، عبر الوسائل المقروءة أو المسموعة أو المرئية، وهي خير شاهد على هذا حيث لم تسخَّرْ جملة فيها للذب عن الإسلام شريعة وروحاً واعتقاداً، بل حبرت بعض الأقلام لتقرير نزعة جديدة يخلع الجلباب الساتر لكاتبيها عن إبراز هذا المقصد.

فراحوا يخوضون فيما يسمَّى «تمجيد العقل وإكباره»، وجعله حكماً قهريًّا على عدد ليس بالقليل من نصوص الشريعة الإسلامية، فعرضوا الحاكمية في الشريعة على العقل، وعرضوا الحدود والجنايات على العقل، وعرضوا الولاء والبراء في الإسلام على العقل، وعرضوا بعض المسلَّمات في قضايا المرأة المسلمة وشؤونها على العقل، حتى صار ذلك لوثةً نعوذ بالله من تبعات قسماتها، وشمالةً نعوذ بالله من غوائلها، بل هي معرَّة برمَّتها، لاكتها أفواه المعارضين بعقلانيتهم، حتى لفظتها أسماع أهل الشريعة.

ومثل هذا عباد الله ليس ببعيد على مَن أطلق العِنَانَ لعقله، يصول به ويجول في شرع الله بلا خِطَام ولا زِمَام، ولا غرو في ذلك، فقد قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وكل مَنْ له مسكة من عقل، يعلم أن فساد العالم وخرابه، إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي، ومن أعظم معصية العقل إعراضُهُ عن كتاب الله ووحيه، الذي هدى به رسله، والمعارضةُ بينه وبين كلام غيره، فأي فساد أعظم من فساد هذا العقل؟! اهـ.

فيالله العجب أيها الناس، كيف يكون الحق قريباً وليس إليه وصول؟! وكيف يكون أمثال هؤلاء كالعِيسِ في البيداءِ يقتُلُهَا الظما والماءُ فوقَ رؤوسها محمول، وإذا كان يسعى إلى الماء من يغص بلقمة واحدة، فإلى أي شيء سيسعى من يغص بالماء ذاته؟!

إن سنن الله جل وعلا وشريعته لا تخاصم، ولا ينبغي لها أن تتبع بالعقل، ولو فعل الناس ذلك، لم يمض يوم إلا انتقلوا من دين إلى دين، ولعمر الله، إن بعض السُّنن لتأتي أحياناً على خلاف الرأي ومجانبته خلافاً بعيداً، فما يجد المسلمون بدًّا من اتباعها والانقياد لها؛ ولذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لو كان الدين بالرأي، لكان أسفلُ الخف أولىٰ بالمسح من أعلاه». وقد قال بعض السلف كأبي الزناد وغيره: وما برح مَنْ أدركنا من أهل الفضل والفقه، من خيار أولية الناس، يَعِيبون أهل الجدل والتنقيب، ويعيبون الأخذ بالعقل أشدَّ العيب، وينهونا عن لقائهم

ومجالستهم، ويخبرونا أنهم أهل ضلال وتحريف.

حتى قال الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا رأيتَ الرجلَ إذا قيل له: لِمَ لا تكتب الحديث يقول: العقل أولى، فاعلم أنه صاحب بدعة.

بل لقد ذهب الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أبعد من هذا، حيث جعل ترك السُّنَّة والاعتراض عليها، وعدم الأخذ بها نوعَ جنون أو هو جنون، وإن لم يكن حسيًّا، فقد قال: متى عرفتُ لرسول الله ﷺ حديثاً ولم آخذ به، فأنا أشهدكم أن عقلي قد ذهب. ومن هنا وَصَفَ ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ العقل بالصنم، إذا غلا فيه المرء وطغى، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والداعون إلى تمجيد العقل إنما هم في الحقيقة يدعون إلى تمجيد صنم سمَّوه عقلاً، وما كان العقل وحده كافياً في الهداية والإرشاد، وإلا لما أرسل الله الرُّسل.

ولله! ما أجمَلَ كلاماً لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يشفي العليل، ويروي الغليل، في تقرير هذه المسألة فيقول: كيف ينقدح في ذهن المؤمن أن في نصوص الوحي المنزَّلة من عند الله عز وجل، ما يخالفُ العقولَ السليمة، بل كيف ينفك العقلُ الصريح عن ملازمة النصِّ الصحيح، بل هما أخوان لا يفترقان، وصَلَ الله بينهما في كتابه، وإذا تعارض النقلُ وهذه العقول، أخذنا بالنقل الصحيح، ورمي بهذه العقول تحت الأقدام، وحطَّت حيث حطَّها الله وأصحابها، فكيف يظن أن شريعة الله الكاملة، ناقصةٌ تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تُكْمِلها، أو إلى قياس أو معقول خارجٍ عنها، ومَنْ ظنَّ ذلك

فهو كمَنْ ظَنَّ أن بالناس حاجةً إلى رسول آخر بعد محمد ﷺ. اهـ.

وحاصل الأمر عباد الله: أن العقل في هذه العصور المتأخرة، قد كبا كبوة خطيرة وأقحم في أمور ينبغي أن يكون العقل فيها تابعاً لا متبوعاً.

والسلف الصالح رحمهم الله قد استعملوا الأقيسة والدلائل العقلية، ولم ينكروها بإطلاق، وإنما أنكروا ما كان منها فاسداً مما يخالِفُ الشرع، ويعلم فساده، مما يتذرَّع به مَنْ يبطل بعض النصوص الشرعية، أو يحرِّفها؛ بحجة أنها تخالِفُ القواطع العقلية، وهي في الحقيقة خيالاتٌ وأوهام وشهوات لا يميز فيها بين الشخص والصورة ولا بين الطَّيْفِ والحقيقة، حتى ركبت بهم متن عمياء، وخبطت خبط عشواء، ثم نقول لأمثال هؤلاء: إن أردتم إقحام العقول في فرز الشريعة فعقل أيٍّ من البشر نحكِّم؟! أهو عقل زيد، أم عقل عمرو؟ أعقل رجل، أم عقل امرأة؟! أعقل متزن، أم عقل صاحب هوى؟!

ألا إن دلائل العقل قلَّما تتفق، بل عقل كل واحد يرى صاحبه غير ما يرى الآخر، وهذا بيِّن والحمد لله، وقديماً قيل: لو سكت الذي لا يعلم، لما كان هناك خلاف. ومن لم ير الهلال، فعليه أن يسلِّم لأناس رأوه بأبصارهم، ثم كيف يحتجُّ العقل على خالِق، مِنْ بعض مخلوقاته هذا العقلُ؟!

وأما ما يسطِّره بعض الكتبة، وما يدندنون حوله، من ذكر

أحاديث للرسول ﷺ وردت في تعظيم العقل وإكباره، فإنه خلافُ الحق، فقد قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أحاديثُ العقل كلُّها كذب. ونقل عن بعض السلف قوله: لا يصح في العقل حديث؛ فصار فعل أمثال هؤلاء فيما يطرحونه من تحكيم العقل، والاستقلال به من القيود، كما يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو أخبث من لحم خنزير في صينية من ذهب.

فالواجبُ على كل مسلم عباد الله، أن يتَّقي ربَّه جلَّ وعلا، وأن يعلم أن شريعة الله ليست عُرضة للعقول لتخاصم بها ؛ فقد حدَّ الله للعقول حدوداً لا ينبغي تجاوزها، ولا الافتياتُ على الله فيها، والله يقول: ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٤٠]، ويقول: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة: ١٣٨]، وقال سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [الحج: ٨]، قال بعضُ أهل العلم: وهذا دليلٌ ظاهرٌ في أن الذي نراه معارِضاً للوحي، ويقدّم العقل عليه، ليس من الذين أوتوا العلم في شيء، كيف لا والله سبحانه يقول: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

اللهمَّ لا عِلْمَ لنا إلا ما علَّمتنا، فانفعنا بما علَّمتنا وزِدْنا عِلماً، إنك أنت العليم الحكيم.

قد قلتُ ما قلتُ، إنْ صواباً فمن الله، وإنْ خطأً فمن نفسي والشيطان والله ورسوله بريئان منه؛ وأستغفر الله إنه كان غفَّاراً.

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلَّم وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعـــد:

فاتقوا الله أيها المسلمون، واقدروا الله حقَّ قدرِه، وإياكم ومحدثات الأمور، والمخاصمةَ لنصوص الشارع بعقولكم وآرائكم، ولا تجعلوا شيئاً من ذلك مقدَّماً عليها، فما وافق العقولَ قبلتوه، وما لا فلا؛ لأن هذه بليَّةٌ عُظمىٰ، وهُوَّة كُبْرى، اتَّسع نطاقها في بِقاع شَتَّىٰ من ديار الإسلام، وأصحابها يصفون أنفسهم بالعقلية أو الاستنارة أو التحرُّر.

ثم لتعلموا أيها المسلمون أن الذين يخالِفون بعض النصوص بسبب أنَّ عقولهم لا تحتملها، أو لا تقتنع بها، أو بأي حجة رجَّحوا فيها كفَّة العقل على كِفَّةَ الشرع: فإنهم لا يخرجون عن خمس طوائف كما ذكر ذلك ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فالطائفة الأولى: عارضت الوحي بعقولهم، وقدَّمت عليه العقل، فقالوا لأصحاب الوحي: لنا العقل، ولكم النقل.

والطائفة الثانية: عارضته بآرائهم وقياساتهم، فقالوا لأهل

الحديث: لكم الحديثُ، ولنا الرأي والقياس.

والطائفة الثالثة: عارضته بأذواقهم وحقائقهم، وقالوا: لكم الشريعة، ولنا الذَّوْقُ والحقيقة.

والطائفة الرابعة: عارضَتِ الوَحْيَ بسياساتهم وتدبيرهم، فقالوا: أنتم أصحابُ الشريعة، ونحنُ أصحاب السياسة.

والطائفة الخامسة: عارضته بالتأويلِ الفاسد، وادَّعَوْا أنهم يفهمون أكثر مما يفهمه أهل الحديث والفِقه.

ثم إنه إذا رُدَّ على كل من هؤلاء باطلُهُ، رجع إلى طاغوته وقال: في العقل ما لا يقتضيه النقل، وقال الآخر: في الرأي والقياس ما لا يجيزه الحديث، وقال الثالث: في الذوق والحقيقة ما لا تسوغه الشريعة، وقال الآخر: في السياسة ما تمنع منه الشريعة، وهكذا دوالَيْكَ، حتى لا يبقى من الشريعة إلا اسمها، فباطلُ هؤلاء كلِّهم لا ضابط له، بخلاف الوحي؛ فإنه أمر مضبوط، مطابقٌ لِمَا عليه الأمر في نفسه، تلقَّاه الصادق المصدوق مِنْ لَدُنْ حكيم عليم.

وقد قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما عُلِمَ بصريح العقل، لا يتصوَّر أن يعارضه الشرع ألبتة، بل المنقول الصحيح لا يعارضه معقولٌ صريح قطُّ، ونحن نعلم أن الرُّسُلَ لا يخبرون بمحالات العقول، بل بمحارات العقول، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته».

ويدل لذلك عباد الله: أن الله تعالىٰ ذمَّ المنافقين، الذين كانوا يرجعون في نفاقهم إلى عقولهم؛ فقال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، أي: مِنْ بعد ما قالوا: وقفنا على كلام الله بعقولنا، وهم يعلمون بطلان ما أدركوه بعقولهم.

ويؤكِّد هذا الأمر: أن الله تعالى قال عن جهابذة كفار قريش وصناديدهم: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا﴾ [الطور: ٣٢] أي: عقولهم؛ فدلَّ أن العقل لا يهدي إلى الدين استقلالاً.

فالله الله أُمَّةَ الإسلام في دينكم، وحذارِ حذارِ أن يُؤْتىٰ هذا الدين من قِبَلِ تسليط الأفهام والعقولِ القاصرة عليه، وليكن موقفنا من شريعة ربِّنا كلِّها سواء، أدركنا ذلك بعقولنا معها أو لم ندركه، أن نقول: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٧، ٨].

اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد...

❊ ❊ ❊

مفاهيـم في رمضـان

الخطبة الأولى:

الحمد لله المبدئ المعيد، الفعَّال لِمَا يريد، خَلَقَ الخَلْقَ بعلمِهِ وقدَّر لهم أقداراً، وضَرَبَ لهم آجالاً، لا يستأخرون عنها ساعةً ولا يستقدمون، قدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرضَ بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء، عَلِمَ ما كان وما سيكون ولو كان كيف يكون، كلُّ شيءٍ عنده بمقدار، ومشيئتُهُ تنفذ لا مشيئة العباد، إلا ما شاء لهم، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، عنده علم الساعة، وينزِّلُ الغَيْث، ويَعْلَمُ ما في الأرحام، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، فله الحمد كُلُّهُ وإليه يُرْجَعُ الأمرُ كُلُّهُ، وبيدِهِ الخيرُ كلُّه، يَخْلُقُ ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخِيَرَةُ، وأشهد أَنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبده ورسوله، خيرُ مَن صلَّى وقام، وحجَّ وصَام، ونَصَحَ لله وجاهَدَ فيه حقَّ جِهَادِه، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أُولي العفافِ والنُّهىٰ، وسلَّم تسليماً كثيراً.

أما بعـــد:

فيا أيها الناس، لا وصية مبذولة، ولا تذكير مطروق، يقرِّبُ إلى الله أفضل من الوصية بتقواه سبحانه؛ فاتقوه وراقبوه على كل حال، واعبدوه كأنكم ترونه، فإن لم تكونوا ترونه فإنه يراكم، والعاقبة للتقوىٰ.

أيها المسلمون، في شهر رمضان المبارك، تتجلَّى أسرارٌ خوالِد، وتترادف حلقاتُ حكمٍ بواهر، يتضوَّأ بعضها على بعض، بحيث لا يُمَلُّ كثرةُ الحديث عنها، فلا تخلق جِدَّته، ولا يبلى ترجيعُهُ، ولا تسأم سيرته، بل قد يحلو أو يعلو إذا أُعيد وتكَرَّر، كما يحلو مذاقُ الشهد عند تكريره.

ولأجل هذا عباد الله، ما بَرِحَتِ النفوسُ المسلمة، تشرئبُّ لِمثل هذه الإطلالة السنوية، والتي تعم المَدَرَ والوَبَرَ ما عمَّ الأَجَدَّانِ الليلُ والنهار، فلا غرو إذاً عباد الله، حين نُسَلِّط الضوء ـ ولو قليلاً ـ على ما نُصَحِّح به بعض مفاهيمنا أو رتابتنا مع رمضان، وما نُحيي به ما تَرَاكَم عليه غبار النسيان في النفوس، حين يتَّخِذُ كثيرٌ من الناس في هذا الشهر، صورةً تقليدية تحكمها حركةُ العادة لا حركة العبادة.

ففي هذا الشهر المبارك عباد الله: تُشَدُّ النفوس إلى الدين والتديُّن، ويُذَكِّرهم هذا الشهرُ بحقِّ الله تعالى عليهم، تُشَمُّ رائحةُ

التديُّن في أكثرَ من مجلسٍ يُجْلَسُ فيه، يُحَسُّ بإقبالِ الناس على العبادة والعمل الصالح، حتى إنهم يعرفون بذلك درجة الاستعداد لتغيير ما في النفوس حتى يغير الله ما بهم؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، يشعر الكثير في هذا الشهر المبارك بضرورة هذا الدين لهم؛ كضرورة الماء والهواء، ثم إن كل أُمَّة تهمل أمر دينها وتعطِّلُ كلمة الله في مجتمعها، فإنما تهمل أعظم طاقاتها، وتعطِّل أسباب فلاحها في الدنيا والآخرة، وكلُّ أُمَّةٍ يُفقد التديُّن في مجتمعها، فلا جرم أن أمورها تضطرب، ويموج بعضها في بعض، فيقلب الله عزَّها ذُلاً، وأمنها خوفاً، وإحكامها فوضىٰ.

في شهر رمضان المبارك، ترتفع معايير القوّة لدى المرء، بحيث يصعب اهتزازه إذا هو أحسَنَ الإعداد فيه، وأدرك سرًّا عظيماً من أسرار هذا الشهر، قد تمثل في مثل قول النبي ﷺ: «**إذا دَخَلَ شهر رمضان، فُتحَتْ أبواب الجنة، وغُلقَتْ أبواب النيران، وصُفِّدَتِ الشياطين**» [رواه البخاري ومسلم]، يقول ابن القيِّم رحمه الله معلِّقاً على هذا الحديث: «لأن في الصوم تضييق مجاري الشيطان من العبد بتضييقَ مجاري الطعام والشراب». اهـ.

فالخشية إذاً كُلُّ الخشية عباد الله، على أنفس مسلمةٍ، لم تجعل للشيطان حساباً في واقعها، وباتت غير آبهةٍ بِمَكْره وألاعيبه

هو وجنده من الجن والإنس، ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

إنه مما لا شكَّ فيه: أن النفوس المسلمة قد تكون معترفةً بقابليتها لألاعيب الشيطان ومكره؛ لكونها غير معصومة، إلا أن بعض هذه النفوس قد ظنَّ أهلها أنهم محميُّون ضد آثاره وإفساده، بعد أن كوَّنوا حولهم هالةً زائفةً من الاطمئنان لأحوالهم وأوضاعهم الرتيبة، مع الاكتفاء بظواهرَ طفيفةٍ من الإسلام، حتى أمسوا وكأنَّ ما يحملونه هو الإسلامُ فحسب، مما يحرمهم ولا شك من إصلاح أخطائهم من جهة، ومن الاستفادة من الصواب الذي يأتي به الغيرُ من جهة أخرى؛ ألا إن هذا هو الشلل الأخلاقيُّ بقضِّه وقضيضه، وهو الارتضاعُ من ثدي الهوى بعد الفِطَام، مع أن الرضاع إنما هو للطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء، والذين يتضورون على مرارة الفِطَام، فلا جَرَمَ عباد الله، إذ الهوى مكايد، وكم من صنديد في غبار الحرب اغتيل، كيف لا ورسول الله ﷺ يقول: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**» [رواه البخاري ومسلم].

إن الشعور الدائم بالتقصير هو الشعورُ الإيجابي المثمر، الذي يدفع للعملِ الآنيِّ واليومي، كما أنَّ الشعور بالكمال العقيم شعورٌ عاطفي، لن ينفي عن كلِّ مسلم مسؤوليَّته أمام الله، عن أي

سوء في حاله وسلوكه وحياته، دينيًا كان أو دنيويًا، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

أيها المسلمون، كثيرون هم الذين يتحدَّثون من على منابر متنوِّعة عن شهرِ رمضان، وأنه شهر البطولاتِ والأمجاد، وهذا أمر لا مِرَاءَ فيه ولا جِدَال، غير أن الذي يجب تأكيده والثباتُ عليه، هو أن البطولاتِ والأمجاد، لا تُنالُ بمجرد التمنِّي والتخيُّل، في حين أنَّ القلبَ غافلٌ لاهٍ، ألا إن للبطولاتِ والأمجادِ ثمناً يندر تحصيله والوقوف عليه؛ لأن سلعة الله غالية، وسلعةُ الله هي الجنة؛ ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [التوبة: ١١١]. إن هذه السلعة عباد الله، هي الرابطُ الأساس، بين المؤمنين وبين نصر الله لهم، وأنهم كلَّما كانوا إلى تحصيل هذه السلعة أقرب، كان النصر إليهم أقرب، والعكس بالعكس، ولا أدلَّ على ذلك من قوله تعالى عن غزوة أُحُد، حين ذاق فيها المسلمون أوَّلَ هزيمة لهم إبَّان أوج كيانهم، ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ﴾

[آل عمران: ١٥٢].

إن أثر المعصية وشؤمها على المجتمعات المسلمةِ لفي أمر مريج، من كثرة المواقعين لها، والعابِّين من قيعانها كما الهيم، ألا إن للنصر شروطاً، منها جزُّ المعاصي، والنأيُ بالنفس عن أن تواقعها أو تتراءى لها، ولا أدلَّ على أثرها في الخذلان والهزيمةِ أمام العدو، من قول ابن مسعود رضي الله عنه فيما رواه أحمد في «مسنده» عن هزيمة أُحُد: «فلو حلفتُ يومئذٍ رجوتُ أن أبر، أنه ليس منا أحدٌ يريد الدنيا حتى أنزل الله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾».

إن طريق المسلمين إلى النصر، هو في سلوك فعل النبي ﷺ حينما أحيا ليله في بدرٍ وهو قائمٌ يصلِّي ويلظُّ بالحي القيوم، ليتأكَّد من خلال هذا عظمُ شأن الصلاة واللجوءِ إلى الله في كشفِ الملمَّاتِ ورفعِ النوازل؛ فقد جاء في السُّنن أن النبي ﷺ **«كان إذا حَزَبَهُ أمر، فَزِعَ إلى الصلاة»**، إنَّ شعوباً لا تخاف إلا الله لن يغلبها مَنْ لا يخاف الله، وإنَّ مَنْ لا يعرف إلا الحقَّ لن يغلبه مَنْ لا يعرف إلا الباطل، فجُنْدُ الله هم الغالبون بالسيف والسنان؛ كما أنهم هم الغالبون بالحجة واللسان، غير أن الأمر قد بات مِنَ الخطورة بحيث يوجبُ البحث عن الأسباب المفضيةِ إلى ضعف المسلمين، وإلى تكاثر خسائرهمُ الفادحة، ثم لننظر إلى مصدرها، هل هو خلل

ثقافي، أو عوجٌ خُلُقي أو تضاربٌ سياسي واجتماعي؟ وما الذي أفقَدَ الأُمَّة كيانها، وجعلها تتلقَّى الضربات تِلو الضربات، ثم هي تصرع أمامها.

عباد الله، في شهر رمضان المبارك، يلوح عبر الأجواء المطمئنةِ، خُلُقُ الرحمة والتراحم بين المسلمين، الذي هو مفتاحُ القبول لدى القلوب، والذي يضعُ الحياةَ الهانئة محلَّ الجاهلية الجهلاء، والأثرةِ العمياء، فيرهُفُ الطبع وتَجِمُّ فيه النفس، إذ هذا هو الدواءُ إذا استشرى الداء، وهو النصرةُ حين تخذل القوة!! إنه لو أدرك المرءِ المسلم أن أول حق للمسلمين عليه، أن يحمل في نفسه معنى الناس، لا معنى نفسه، لَعَلِمَ أنْ مَن فاقَ الناس بنفسه الكبيرة دون تميز، كانت عظمته في أن يفوق نفسه الكبيرة، بهذا الأثر الطيب يُحِسُّ المرء بقيمة المال؛ لما يحقِّقه من مصالح ويضمنه من منافع.

إن الأمة المسلمة يوم يكون مالها أداة ترف، ومصدر استعلاء وطغيان، ويوم يكون الأغنياء وذوو اليسار، أحلاسَ شُحٍّ وبُخْل، فالويلُ والخسران لأمةٍ أورثها مالها هذه الحال. إنَّ الجمع بين الصيام والصدقة، موجبٌ من موجبات الجنة حيث يقول رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة غُرَفاً يرىٰ ظهورها من بطونها، وبطونها من**

ظهورها»، قالوا: لِمَنْ هي يا رسول الله؟ قال: «**لِمَنْ طيَّب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلَّىٰ والناس نيام**» [رواه أحمد والترمذي].

إن من القسوة عباد الله: أن يمنع الواجدُ المعونة، وأن يتقلَّب في رغدٍ من العيش وسعةٍ من الرزق، ومن أبقت عليهم صروف الحياة في شدةٍ من الضيق وألمٍ من الإعسار، ومن هذه حاله فلا جرم أنه قاسي القلب، خالٍ من الشفقة، وكأنما قُدَّ قلبه من صخر صلد، فهو بعيد من رحمة الله؛ ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، إن المال غادٍ ورائح، ومُقبِلٌ ومُدْبِر، وما هو إلا وسيلةٌ للإنفاق والبذل، وبلوغِ الأرب الأخروي، يقولُ النبي ﷺ: «**أفضلُ الصدقة ما كان عن ظهرِ غنى**» [رواه البخاري ومسلم].

فرحم الله عبداً كَسَبَ فتطهَّر، واقتصد فاعتدل، ورُزِقَ فأنفق؛ وذكر ربَّه ولم ينس نصيبه من الدنيا، فنِعم المالُ الصالح للرجل الصالح، ويا خيبةَ مَن طغىٰ عليه ماله، وأضاع دينه وكرامته، فضلَّ وطغىٰ أن رآه استغنى، وكان من الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ [الجمعة: ١١].

إن الواجب على الأُمَّة المسلمة ألا تُعَظِّم الدينار والدرهم، لئلا تستعبدها المعاني المنحرفة، في النظرة للمال والحياة، فيكنز الغني مالاً، ويكنز ذو المسغبة عداوةً، وليعلم الجميع أن العزة في

الإسلام بإنفاق المال لا بإمساكه، وفي بذل الحياة لا في الحرص عليها، وفي اعتبار الغنيِّ ما يعمل بماله لا ما يجمع منه، بهذا كلِّه غلب أهلُ الإسلام الأُمم؛ لأنهم قبل ذلك غلبوا النفوسَ والشهواتِ، ألا إن النِّعَم لا تدوم، وإن مع اليوم غداً، وإن بعد الحياة موتاً، وإنَّ بعد الموت لحساباً، ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء: ٩].

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم.

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، أحمده حمداً لا ينفد، أفضلَ ما ينبغي أن يُحْمَد، وأُصلي وأُسلِّم على أفضل المرسلين محمد، وعلى آله وصحبه ومَن تبعهم بإحسان وصام وصلَّىٰ وتَعَبَّد.

أما بعــد:

فيا أيها الناس، حسنُ العبادة، ووفرةُ الطمأنينة، الناتجةِ عن الذِّكر والتذكير، والمدارسةِ في هذا الشهر المبارك، تبدو واضحةً جليّة في استشعار عظمةِ هذا الشهر، والإحساسِ بحرمته وهيبته، والبُعدِ عن المُنَغِّصات والملهيات، التي تُفْسِدُ على المرء دينه، أو تشوِّشُ عليه عبادته، أو تُوجِدُ له جوًّا من المتضادات اللامسؤولة، فكما أن للشهر مرغِّباتٍ وحوافز، فإن هناك مزعجاتٍ ومنغصات، ينبغي أن يَزُمَّ المسلمون نفوسهم عنها، فمِنْ ذلكم عباد الله: ما يُشاهَدُ من حركةٍ نشطةٍ، واستنفارٍ مثير للدهشة، في برامجَ مرئيةٍ عبر أقمارٍ متنوِّعة، تفتقد إلى الهدف المنشود، من خلال عرض ما يخدش الحياء، أو ينشر الإثم، مما يَحْلِقُ الدين قبل حلق العفاف

والحياء، فيبرزُ الطرب والسهر، الذي يتناوش الرشيد والسفيه، والقويم والفاسد، وكأنَّ مُعِدِّي تلك المشاهد قد رأوا الأمة في حالةٍ من المحاصرة عن الترويح بحلول هذا الشهر، أو أنهم على شفا جرف هلكة، لا يتم الإيناس فيها، والتعويضُ عن الصوم والإمساك فيها عمَّا يُغْضِب الله، إلا بمثل ذلك؛ فلا غرو أنه بذلك يختلُّ برُّنا برمضان، ثم إن الأمة بذلك، تخسر في كل لحظةٍ مواطناً صالحاً يضل بسبب مشهد، فيَغُشُّ به ويخدع، ويَسْرِقُ ويحتال، ويتعلَّم مما يرى كيف يتخلَّص من عقوبة السرقة، أو بفتاةٍ فاتنةٍ يصورون فكاكها من غيرة وليّها بالتضليل عليه، أو بالتعويد على ألفة الاختلاط بين الجنسين، وليس بمثل هذا يترفَّه الناس، ولا يتعلَّم الناس، ولا يصلح الناس!!! إذ كيف يستقيم الظل حينئذٍ والعُودُ أعوج؟!

ومنغِّصٌ آخرُ من المنغِّصاتِ في هذا الشهر المبارك، يتمثَّل في وضع الشباب والفتيات حينما يشغلون أوقاتهم فيما يذهب سبهللاً، بحيث لا يأوي الشباب إلا الطُّرُق والممرَّات، فيزعجون ويوقظون، ويلحظون ويضايقون، حتى تبدو الممرَّاتُ والطُّرُق، وكأنها لهم مأدباتٌ إبليسية، لتلقي القبيحِ من القول، والسيئَ من الفعل.

وأما الفتاة المسلمة، فبإضاعة وقتها في التفنُّنِ بأنواع الطعام والشراب إن هي أحسنت، أو أن تكون خرَّاجة ولأَّجة، جرياً بين

الأسواق، أو أماكن العبادة، دون تقيُّد بآداب الشرع، أو إعطاء الطريق حقَّه بالحشمة والسِّتْر والبُعْدِ عن أن تَفْتِن أو تُفتَن، فتحمل بذلك الوِزر من حيث أرادت الأجر، وليس ذلك كله بمعفٍ الوالدين عن المسؤولية، فالكلُّ راعٍ والكل مسؤولٌ عن رعيَّته، وكفىٰ بالمرء إثماً أن يُضَيِّع مَن يعول.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد. . .

❊ ❊ ❊

إطلالـــة رمضـــان

الخطبة الأولى:

الحمد لله الأوَّل الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، يعلم ما يَلِجُ في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرُجُ فيها، وهو بكل شيء عليم، أحمده سبحانه وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصَفِيُّه وخليله، وخِيرَتُهُ من خَلْقِه، أفضلُ مَنْ صلَّىٰ وصَام، وخيرُ مَنْ حجَّ لله وقام، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعـــد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله سبحانه؛ إذ بها يشرف الناس، ويثقُلُ الميزانُ ويعلو القدر، ويعظُمُ الجاه، ولا جرم ـ عباد الله ـ فإنَّ العاقبة للتقوى، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

أيها الناس: إن المُطَّلِعَ في واقع كثير من الناس، وسط أجواء المتغيرات المتكاثرة، والركام الهائل من المصائب والبلايا،

والنوازل والرزايا، ليلحظُ بوضوحٍ أن كثيراً من النفوس المسلمة توَّاقةٌ إلى تحصيل ما يثبت قلوبها، وإلى النهل مما تطفئُ به ظمأها، وتسقي به زرعها، وتجلو به صدأها فهي أحوَجُ ما تكون إلى احتضانِ ضيفٍ كريم، يحمل في جَنَبَاته مادةَ النماء، فهي مُشْرَئِبَّة لحلوله، يقطعها التلهُّفُ إلى أن تطرح همومها وكدَّها وكدحها عند أول عتبة من أعتابه، بعد أن أنهكَتْ قواها حلقاتُ أحداث مترادفة، يموجُ بعضها في بعض، حتى غَلَتْ مَرَاجِلها، واشتدَّ أتونها، فما برحت تأكلُ الأخضر واليابس، تفجع القلوب، وتُعَكِّر الصفو، وتصطفق وسط زوابعها العقول والأفهام، فلأجلِ هذا كلِّه كان الناس بعامَّة أحوجَ ما يكونون إلى حلول شهر الصيام والقيام، شهر الراحة النفسية والسعود الروحي، شَهْرِ الركوع والسجود، شهرِ ضياء المساجد، شهرِ الذِّكر والمحامد، شهرِ الطمأنينة ومحاسبة النفس، وإيقاظِ الضمير، والتخلُّصِ من النزعات الذاتية، والملذَّات الآنية، في شهوات البطون والفروج، والعقول والأفئدة، والتي شُرِعَ الصيام لأجل تضييق مجاريها في النفوس، وكونه فرصةَ كلِّ تائب، وعِبْرة كل آيب؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

أيها المسلمون، شهر رمضان المبارك هو شهر القرآن، القرآن الذي لا تنطفئ مصابيحه، والسِّرَاج الذي لا يخبو تَوَقُّده، والمِنْهَاج

الذي لا يَضِل ناهجه، والعِز الذي لا يُهْزَم أنصاره، القرآن عباد الله هو في الحقيقة بمثابة الروح للجسد، والنور للهداية، فمَن لم يقرأ القرآن، ولم يعملْ به فما هو بِحَيٍّ، وإن تكلَّم أو عمل أو غدا أو راح، بل هو ميِّتُ الأحياء، ومَنْ لم يعملْ به ضَلَّ وما اهتدى، وإن طار في السماء أو غاصَ في الماء، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

إن الإنسان بلا قرآن كالحياة بلا ماء ولا هواء، بل إن الإفلاس متحقِّقٌ في حسِّه ونفسه؛ ذلك أن القرآن هو الدواء والشِّفاء، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٤٤﴾ [فصلت: ٤٤].

إن مما لا شك فيه ـ أيها المسلمون ـ أنَّ صلة الكثيرين بكتاب ربِّهم يكتنفها شيءٌ من الهجران والعقوق، سواءٌ في تلاوته أو في العمل به، بل قد لا نبعدُ النجعة لو قلنا: إن علل الأُمم السابقة قد تسلَّلت إلى أُمَّة الإسلام لِواذاً وهي لا تشعر، ألا تقرأون ـ يا رعاكم الله ـ قول الباري جلَّ وعلا: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]؛ يقول المفسِّرون: «أي: لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة وترتيلاً، بحيث لا

يُجاوِزُ حناجرهم وتراقيهم»، كل ذلك بسبب الغياب القلبي، والحجر الروحي عن تدبُّر القرآن، بل إن البعض على قلوبهم أَقْفَالُها، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] أفلا يَتَدَبَّرُون القرآن إذاً؟!

إن من أسباب عدم التدبُّر هو البُعْد عن اكتشاف سُنن الله في الأنفس والآفاق، وحُسْن تسخيرها والتحرُّر غير المبعَّض من تقديس الأفهام المغلوطة، والتأويلات المآربية المخلوطة، والتي انحدرت إلى كثير من أوساط الناس، عبر لوثات عِلَل، وأفهام يعتريها شعورٌ طاغٍ من حب الدنيا وكراهية الموت، وما عند الله خيرٌ وأبقى للّذين هم لربِّهم يرهبون.

روى الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه، عن زياد بن لبيد الأنصاري رضي الله عنه قال: ذَكَرَ النبي ﷺ شيئاً فقال ﷺ: **«وذلك عند ذَهَابِ العِلْم»**، قلنا: يا رسول الله، كيف يَذْهَبُ العلم، ونحن قرأنا القرآن، ونقرئه أبناءنا، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم؟! فقال: **«ثكلتْكَ أمك يا ابن لبيد، إن كنتُ لأَرَاكَ مِنْ أفقه رجلٍ في المدينة، أوليس هذه يهود والنصارى بأيديهم التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء؟!»**.

إن المرء المسلم لتأخذ الدهشةُ بلُبِّه كلَّ مأخذ، حين يرى مواقف كثير من المسلمين مع كتاب ربِّهم، وقد أحاط بهم الظلام،

وادلهمَّت عليهم الخُطُوب مِن كل حَدَبٍ وَصَوْب، ثم هم يتخبَّطون خَبْط العشواء، أفلَسَت النُّظُم، وتدهورت القوميَّات، وهشَّت العولميَّات، فيالله العجب، كيف يكون النور بين أيدينا ثم نحن نلحَقُ بركَاب الأُمم من غيرنا؟!! تتهاوى بنا الريح في كل اتجاه لا نلوي على شيء!

لقد عاش رسول الله ﷺ ثلاثة وستين عاماً، ولقد كنَّا نسمع كثيراً أن كبر السن وصروف الحياة المتقلبة قد تَشِيبُ منها مفارق الإنسان، فما ظنكم بمَنْ تمرُّ به هذه كلُّها واحدة تلو الأخرى، ثم هو ينسب المشيب الذي فيه إلى آيات من كتاب ربِّه كان يردِّدها، ومعان يتأوَّلها ويتدبَّرها؛ روى الترمذي والحاكم؛ أن أبا بكر رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ما شيَّبك؟ قال: **«شَيَّبَتْنِي هُودٌ والواقعةُ وعَمَّ يتساءلون وإذا الشمس كُوِّرَت»**.

إن رمضان بهذه الإطلالة المباركة، ليعدُّ فرصةً كبرى، ومِنْحة عُظمىٰ، للمرء المسلم في أن يُطَهِّر نفسه بالنهار لكي يعدَّها لتلقِّي هدايات القرآن في قيام الليل، ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴾ [المزمل: ٦]، وناشئةُ الليل هي ساعاته وأوقاته، فهي أجمعُ على التلاوة من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس ولَغَط الأصوات، فكأنَّ الصيام في النهار تخلية، والقيام بالقرآن في الليل تحلية.

عباد الله، شهر رمضان المبارك، شهرٌ رحبٌ وميدان فسيح،

يوطِّدُ المرء نفسَهُ من خلاله على أن يُحيي ليله، وعلى ألا يلجأ في حوائجه إلا إلى قاضيها سبحانه؛ إذْ لا ملجأ من الله إلا إليه، وهو يقضي ولا يُقضىٰ عليه.

فثلث الليل الآخر هو وقت التنزل الإلهي على ما يليق بجلاله وعظمته إلى سماء الدنيا، إذ يقول: «**هل مِن سائل فأعطيَهُ؟ هل من داع فأستجيبَ له؟ هل مِنْ مستغفرٍ فأغفرَ له؟**».

تُرَىٰ هل فكَّر كل واحد منَّا في استثمار هذا الوقت العظيم الذي هو من آكد مظانِّ إجابة الدعاء؟! ترى ما هي أحوال الناس مع ثلث الليل الآخر؟! بل كم من شاك لنفسه قد غاب عنه هذا الوقت المبارك!! كم من مكروب غلبته عينه عن حاجته ومقتضاه!! كم من مكلوم لم يفقه دواءه وسِرَّ شفائه، كم وكم وكم!! ألا إن كثيراً من النفوس في سُبَاتٍ عميق، إنها لا تكسل في أن تجوب الأرض- شمالها وجنوبها، وشرقها وغربها، باحثةً عن ملجأ للشكوى، أو فرصة سانحة لعرض الهموم والغموم، على مَنْ تقصده من بني البشر، غافلة غير آبهة بالالتجاء إلى كاشف الغَمِّ وفارِج الهم، ومُنَفِّس الكرب، ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، ﴿يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣، ١٤].

روى الإمام أحمد والترمذي والنسائي؛ أن النبي ﷺ قال:

«ثلاثةٌ لا تُرَدُّ دعوتهم: الإمامُ العادل، والصائمُ حتى يُفْطِر، ودعوةُ المظلوم يرفعهَا اللهُ فوق الغَمَامِ يوم القيامة، ويفتحُ لها أبواب السماء ويقول: بعزَّتي لأنْصُرَنَّكِ ولو بعد حين».

غير أنَّ ثَمَّةَ أمراً مهمًّا عباد الله، وهو أن كثيراً ممَّن يرفعون أَكُفَّ الضَّراعة بالدعاء إلى الباري جلَّ شأنه، قد يستبطئون الإجابة، ولربما أصابهم شيء من اليأس والقنوط، ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

بَيْدَ أن هناك خللاً ما هو السرُّ الكامِنُ في منع إجابة الدعاء، كأن يكونَ المرء ممَّن يستعجلون الدعاء، ويتحسَّسون الإجابة على تململ ومَضض، وهذا مانع أساس من الإجابة؛ لقول المصطفى ﷺ في الحديث الصحيح: «إنَّ الله يستجيبُ لأحدكم ما لم يَعْجَلْ، يقول: دعوتُ ربي فلم يُسْتَجَبْ لي»، ولربما لم يستجبِ الدعاء؛ لما فيه من الإثم، أو قطيعة للرَّحم، أو أن يكون الدعاء المنبثق من شفاه الداعين غير مقترن بالقلب اقترانَ الماء والهواء بالروح؛ لأن اللسان ترجمان القلب وبريده، والقلبُ خزانة مستحفظةُ الخواطر والأسرار ومسارب النفس الكامنة، فالدعاءُ باللسان والقلب غافلٌ لاهٍ إنما هو قليل الجدوى أو عديمها؛ فرسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبلُ الدعاءَ مِنْ قلبٍ لاهٍ» [رواه الحاكم والترمذي وحسَّنه].

فالقلب إذاً لا يخلو من الالتفات إلى شهوات الدنيا الصارفة،

ومن المعلوم بداهة أن المتلفت لا يصل سريعاً.

فالله الله ـ أيها المسلمون ـ في الدعاء، فهو العبادةُ ومخُّها، وهو السِّهَامُ النافذة لذوي العجز وقلَّة الحيلة، ولا يحقرن أحدكم الحوائج مهما قلَّت أو كثرت؛ فإن الله أكثر، وقد قال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وبعد ـ يا رعاكم الله ـ نقول لذوي المصائب والفاقات، والهموم والمقلقات: خذوا هذا المَثَل عِبْرَة وسُلْواناً يتجلَّىٰ من خلالها أثر الدعاء في حياة المرء، وأنه لا غِنىٰ له عنه مادام فيه عِرْقٌ ينبض؛ إذ هو الدواء إذا استفحل الداء، وهو البرد إذا اشتدَّ الحَرُّ.

دَخَلَ رسول الله ﷺ المسجد ذات يوم فإذا هو برجل من الأنصار يُقال له أبوأمامة، فقال: **«يا أبا أمامة، ما لي أراك جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة؟!»** قال: هموم لَزِمَتني وديون يا رسول الله، قال: **«أفلا أعلِّمك كلاماً إذا قلته أذهَبَ الله همَّك، وقضىٰ عنك دَيْنك؟»** قال: بلىٰ يا رسول الله، قال: **«قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهَمِّ والحَزَن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجُبن والبُخل، وأعوذ بك من غَلَبَة الدَّيْن وقهرِ الرِّجال»**، قال أبوأمامة: ففعلت ذلك فأذهَب

الله هَمِّي وقَضىٰ عَنِّي دَيْنِي. [رواه أبوداود].

وعند أحمد والترمذي أن عليًا رضي الله عنه جاءه مُكَاتَبٌ يشكو إليه ديناً عليه، فقال علي رضي الله عنه: ألا أُعَلِّمك كلمات علَّمنيهنَّ رسول الله ﷺ لو كان عليك مثل جبل دَيْناً أدَّاه الله عنك؟ قل: «**اللهم، اكفني بحلالِك عن حرامك، وأَغْنِنِي بفضلِك عمَّن سِواك**»، [قال الترمذي: حديث حسن].

فاللهمَّ، إنَّا نعوذُ بك من الهَمِّ والحَزَن، ونعوذُ بك من العجز والكسل، ونعوذُ بك من الجُبن والبُخل، ونعوذُ بك من غَلَبَة الدَّيْن وقهرِ الرِّجال.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله وليِّ الصالحين، ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آله وأصحابه والتابعين، ومَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعـــد:

فلقد أظلَّكم ـ أيها المسلمون ـ شهرٌ كريم يحمل في طيَّاته تهيئة النَّفس على تحمُّل الجوع والعطش، ترى الطعام بين ناظريك، تشتهيه نفسك، وتصل إليه يدك، ولكنَّك لا تستطيع أن تأكله، ويشعل الظمأ جوفك، والماء من حولك، فلا تقدر على أن تنهل منه، ويأخذ النعاس بلُبِّكَ، ويُداعِبُ النوم جفنيك، ويأتي رمضان يوقظك لصلاتك وسحورك، إنها ـ ولا شك ـ حلقاتُ الصبر والمصابرة، التي قال عنها النبي ﷺ: «الصومُ نِصْفُ الصبر» [رواه الترمذي].

شهر رمضان ـ عباد الله ـ شهر الجُود والإنفاق، شهر النفوس السخيَّة، والأكُفِّ النديَّة، شهر يسعف فيه المنكوبون، ويرتاح فيه

المتعبون، فليكن للمسلم فيه السهمُ الراجح، والقِدْحُ المعلَّى، فلا يترددنَّ في كفكفة دموع المعوزين واليتامى والأرامل، من أهل بلده ومجتمعه، ولا يَشحَّنَّ عن سدِّ مسغبتهم، وتجفيف فاقتهم، وحذار من الشُّحِّ والبُخل حذار، فإنهما معرَّة مكشوفة السوأة، لا تخفىٰ على الناس فتوقها، ناهيكم عن كون النبي ﷺ استعاذَ بربِّه منهما، بل إن الجُود والكرم كانا لزيمي رسول الله ﷺ طيلة حياته، في حين أنه يتضاعف في رمضان، حتى يكون كالريح المرسلة، وفي «الصحيحين» أنه ﷺ ما سُئِلَ شيئاً فقال: لا، إضافة إلى أنَّ نِتَاج هذا التحضيض غيرُ قاصر على سعادة ذوي المسكنة وحدهم، بل يزيد أمانه حتى إلى الباذلين أنفسهم؛ فلقد قال النبي ﷺ: «**مَثَلُ البخيل والمنفِق كمَثَلِ رجلين عليهما جبَّتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأمَّا المنفِق: فلا يُنْفِقُ إلا صَبغتْ على جلده حتى تخفي بنانه، وتعفو أثره، وأما البخيل: فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسِّعها ولا تتَّسع**»[رواه البخاري ومسلم].

والمعنى هنا ظاهر ـ عباد الله ـ فإن الجواد السخي إذا همَّ بالصدقة، انشرح لها صدره، وطابت بها نفسه، وتاقت إلى المثوبة، فتوسَّعت في الإنفاق، ولا يضيره الحديد، بل هو يتَّسع معه حيثما اتَّسع، ولا غرو في ذلك؛ فإن الجواهر ولو كانت تحت التراب فهي جواهر، والأسد في قفص الحديد أسد ولا شك، بَيْدَ

أن البخيل إذا حدَّث نفسه بالصدقة، شحَّت نفسه، وضاقَ صدره، وانقبضت يداه، وأحسَّ كأنما يعطي من عمره وفؤاده، حتى يعيش في نطاق ضيِّق لا يرى فيه إلا نفسه، غير مكترِثٍ بالمساكين، عن اليمين وعن الشمال عِزين، مثل هذا ـ ولا شك ـ قد وَضَعَ الإصر والأغلال في يده، وجَعَلَها مغلولةً إلى عنقه، ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، ولكن ليس شيء أشدّ على الشيطان، وأبطل لكيده، وأَدْحَر لوسواسه من الصدقة الطيبة، ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

اللهم صَلِّ على محمد، وعلى آل محمد. . .

* * *

التفريط في الأعمال الصالحة

الخطبة الأولى:

الحمد للهِ فاطرِ السموات والأرض، غافرِ الذنب وقابل التوب، شديد العقاب ذي الطَّوْل، لا إله إلا هو إليه المصير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خَلَقَ فسَوَّى، وقَدَّر فهدىٰ، وأخرج المرعىٰ، فجعله غُثاءً أحْوىٰ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله إلى جميع الثَّقَلَيْنِ الإنس والجِنِّ بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسِراجاً منيراً، أقام الله به الحُجَّة، وأوضَحَ الطريق، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه وخلفائه الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وعلى سائر أصحابه الأخيار النُّجباء الأطهار.

أما بعـــد:

فأوصيكم أيها الناسُ ونفسي بتقوى الله سبحانه، والاعتصام به في السرَّاء والضرَّاء، وألا تلبسوا الحق بالباطل، وتكتموا الحق وأنتم تعلمون، واعلموا أن ما بكم من نعمة فمِن الله، أفغير الله تتَّقون.

عباد الله، في دنيا الناس أمثلةٌ وضروب، ومحادثاتٌ لاقَت رَجْعَ الصَّدى بين الحين والآخر في غير ما مجلس، يتحدَّث من خلالها المتحدِّثون، عما يشاهدونه بمرَّات وكرَّات، من تفويت للحظوظ، وتفريط في المصالح الظاهرة، لاسيَّما تلك التي تكون

في معايش الناس، وهي لا تساوي إلا ثمناً بخساً زهيداً، يتحصَّل من خلاله على مردود ليس بالقليل، من الحظ الوافر والرزق الواسع.

ألا وإنَّ من المقرَّر شرعاً وعُرفاً بين الناس: أن مَنْ ظهر له ربح ما في مرابحة، لا يحتاجُ في أن يعتاض عنها إلا شيئاً يسيراً، ثم هو يُفَرِّطُ في تحصيلها، فإنه قلَّ أن يسلم ولا شك من بروز مَنْ يصفه بالسَّفَهِ والحُمْق، ولربَّما تعدَّى الأمر إلى دعوىٰ أن مثله أهل لأن يُحْجَرَ عليه بسبب تفويته مصلحةً محقَّقةً بأقلِّ كُلْفَة دون مسوِّغ.

والأمر الذي نريد أن نتحدَّث عنه باقتضاب في هذه العُجالة، شبيه بما ذكرناه آنفاً، غير أن ما يعنينا هنا، هو أمر أُخروي لا دُنيوي، وراجحٌ لا مرجوح، بل هو خير من كنوز كِسْرَىٰ وقيصر، وخير من مال قارون وخيرات سَبأ، بل إنه من الحسنات اللاتي يُذْهِبن السيئات، ذلك ذكرىٰ للذاكرين.

ذلكم عباد الله هو ما يُعْرَفُ باسم «التفريط في الأعمال الصالحة»، وأخص في الحديث منها: فضائلَ الأعمال.

أيها الناس، إننا حينما نتحدَّث عن فضائل الأعمال وفِقهها، فسيأخذ الحديث بألبابنا، ولربما طالَ بنا المقام، والقلوب مشرئبة إلى سماعها بتمامها، بَيْدَ أن الذي نَوَدّ تسليط الحديث عليه، هو ذلكم الشعور السلبي، والإحساسُ شبه المغيَّب حقيقة عن استحضار الصورة الحقيقية لفضائل الأعمال، لاسيَّما تلك الأعمال

التي تستجلب الحَسَنات الكثيرة في مقابل العمل الصغير، والتي قد يفعلها جمهور من الناسِ غير أنه يقل من يستشعر أبعادها، أو يدرك حقيقة أجرها، بقطع النظر عن كون بعضهم يؤدِّيها على شبه صورة اعتيادية، فضلاً عمَّن نأىٰ بنفسه عنها بالكلية، مع أنه لو عَلِمَ ما فيها من الأجر والمثوبة، لحكم على نفسه بالسَّفَهِ والحِطَّة، كيف يضيعها لتغدو عنه سبهللاً.

ولا جرم عباد الله، فعمر الإنسان مهما طال، فهو إلى القِصَر أقرب، ولو استحضرنا قليلاً حديث النبي ﷺ في قوله: «**أعمار أمَّتي ما بين ستين إلى سبعين، وأقلُّهم مَن يجوز ذلك**» [رواه الترمذي وغيره]، لو استحضرنا هذا الحديث عباد الله، وقُمْنا بقسمة عمر مَنْ بلغ الستين، وجعلنا له من يومه ما يقارب سبع ساعات يأخذها في النوم، فإنَّ ثلث الستين سنة سيكون نوماً قطعاً، وإن ما يعادل سنتين تقريباً سيكون لتناول الطعام، لو قلنا بالوجبات الثلاث، وما يُقارِب خمس عشرة سنة يكون سن طفولة وصبوة دون التكليف؛ وحينئذٍ لا يبقى له حقيقةً من الستين إلا ما يقارب ثلاثاً وعشرين سنة. كل ذلك يؤكِّد للمرء أنه أحوجُ ما يكون إلى كل مبادرة للعمل الصالح.

أيها المسلمون، إن في ضرب المثل غنيةً وكفاية لِمَنْ هم في الفهم والإدراك فُحُل، فإليكم عباد الله أمثلةً متنوعة، نستطيع من

خلال ذِكْرِها، أن ندرك جميعاً مدى الهُوَّة السحيقة، والبَوْن الشاسع، بيننا وبين البدار إلى الأعمال الصالحة.

جاء عند مسلم في «صحيحه» أن ابن عمر رضي الله عنهما «كان يصلي على الجنازة ثم ينصرفُ، فلما بَلَغَهُ حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «**مَن تَبِعَ جنازةً، فله قيراط**» قال ابن عمر رضي الله عنهما: لقد فرَّطنا في قراريط كثيرة.

ألا فانظروا يا رعاكم الله، إلى ندم ابن عمر رضي الله عنهما، كيف أسف على تضييعه لهذه القراريط، ولا غرو أيها المسلمون في ذلك؛ فإن القيراط الواحد كجبل أُحُد.

في «الصحيحين» أن النبي ﷺ قال: «**مَن قال حين يُصْبِح وحين يُمْسِي: سبحان الله وبحمده، مائة مرَّة؛ حُطَّتْ خطاياه وإن كانت مثل زَبَد البحر**»، وعند مسلم أنه ﷺ قال: «**أيعجز أحدكم أن يكسِب كل يوم ألف حسنة؟** فسأله سائل من جُلَسَائِه: كيف يكسب أحدنا ألف حسنة؟ قال: **يُسَبِّح مائة تسبيحة؛ فيكتب له ألف حسنة، أو يحط عنه ألف خطيئة**» وعند أحمد وأصحاب السُّنن أن النبي ﷺ قال: «**مَن قال: سبحان الله وبحمده، غُرِسَت له نخلة في الجَنَّة**».

فانظروا يا رعاكم الله إلى هذه الحسنات الهائلة، وإلى ما يقابلها من العمل اليسير، حسنات يَعُبُّ منها الإنسان عَبًّا، لا غلاء ولا كلفة، غير توفيق الله لمَن بادَر، ألا فليت شِعْري أترون نخيل

الجنة كنخيل الدنيا، لله بكم يشترىٰ أطيبُ النخيل في دنيانا؟! ألا فالله أكبر ولا إله إلا الله، نخلةٌ في الجنة ثمنها سبحان الله وبحمده!! أوَّه، تالله لقد فرَّطنا في نخيل كثيرة؛ فالله المستعان.

هذا في الذكر عباد الله، فما تقولون فيمن حَسُنَ خلقه؛ فكفَّ أذاه، وخفض جناح رحمته، وزَمَّ نفسه عن سفساف الأمور لينال معاليها، فرحم وصدق، وبر وأوفى، وهشَّ في وجه أخيه وبش، إن ظلم صبر، وإن أخطأ اعتذر، لا يستنفره الغضب، ولا يستثيره الحمق، فيه وفي أمثاله يقولُ النبي ﷺ: «**ما من شيءٍ أثقَلَ في ميزان المؤمنِ يوم القيامة مِنْ خُلُقٍ حسن، وإنَّ الله ليبغضُ الفاحش البذيء**» [رواه الترمذي].

وعند أبي داود وغيره أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ المؤمنَ لَيُدْرِكُ بحُسْنِ خُلُقه درجةَ الصائم القائم**»، فيالله العجب، إذا كان هذا أجر الخُلُق، فعلام النَّزَقُ من أقوام؟! وما سرُّ ضيق العطن لدى آخرين؟! ولِمَ الحسد والغرور وبَطَرُ الحق وغمط الناس؟!! ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله هي الجنة.

عباد الله، لقد جاء في أجور صيام النوافل وفضلها، ما يعلم المقصر من خلاله أنه كان حِلْسَ تفريط، صار به من القَعَدَةِ المفرِّطين، ولو رمق المفرِّط بمقلتيه نصوص السنة النبوية في فضل صيام النوافل، لعلم سر التحريض والتحضيض في تحصيلها،

وإدراكِ ما أمكَنَ من الفرص التي يتأكد استغلالها؛ جاء في الحديث الصحيح: «**أن مَنْ صام رمضان، ثم أتبعه ستًّا من شوال، كان كصيام الدهر**» أي: كصيام سنة كاملة بعدد أيامها، وفي الحديث الصحيح الآخر، يقول النبي ﷺ عن صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وهي أيام البيض: «**إنها كصيام الدهر**» أي: كصيام سنة كاملة، فلو نظرنا عباد الله: إلى محصلة مجموع هذا الصيام في السنة، لوجدناه يبلغ اثنين وأربعين يوماً، فتكون النتيجة أن مَنْ صامها كاملةً، كان كمن صام سبعمائة وعشرين يوماً فيما سواها، أي: أكثر من سبعة عشر ضعفاً، فلا إله إلا الله، والله أكبر، كم نحن مفرِّطون!!

عباد الله، ما مضىٰ ذِكْره، إنما هو جزءٌ من كل، ونقطةٌ من محيط، والفُرَصُ الثمينة ما لفواتها من عوض، وإن انتهازها لَدَليل على قوة الإرادة، النابعة عن عزم موفَّق، فمن علم خيراً فليُبادِرْ هواه لئلا يغلبه، فلعلَّه يظفر بما إمضاء الوقت فيه هو الغنم، وعلى الضد يكون الغرم، ألا إن مَنْ فرح بالبطالة، جَبُنَ عن العمل، ومهما علم الإنسان من الأمور والفضائل، وكانت رغباته صالحة، فإنه لن يستفيد إلا إذا انتهز كل فرصة سانحة له، ثم إن الأعمال الصالحة بعامة لا تأخذ من الناس وقتاً طويلاً، ما لم يشرع الناس لأنفسهم ما لم يأذن به الله، فَيَشُقُّوا على أنفسهم، ويرهقوها عسراً.

فاعلم أيها المسلم أنك في ميدان سباق، والأوقات تنتهب، وإياك إياك والخلودَ إلى الكسل، فما فات ما فات إلا بالكسل، ولا

نالَ مَن نالَ إلا بالجدِّ والعزم، وثمرة الأمرين أن تعب المحصل للفضائل راحة في المعنى، وراحة المقصِّر في طلبها تعب وشين إن كان ثَمَّ فهم لديك رعاك الله، والدنيا كلها إنما تُراد لتعبر لا لتعمر، وما يناله أهل النقص بسبب فضولها والانشغال بها عما هو خير منها، فإنه يؤذي قلوبَ معاشريها حتى تنحط، ومن ثمَّ يأسفُ أمثالُ هؤلاء على فقد ما وجوده أصلَحُ لهم، في حين إن تأسُّفهم ربما يكون شِبه عقوبة عاجلة على تفريطهم.

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **متحدثاً عن زمنه**: «لقد اشتدَّ الغلاء ببغداد، فكان كلَّما جاء الشعير، زاد السعر، وتدافع الناس على شراء الطعام، فاغتبط من يستعدُّ كلَّ سنة يزرع ما يقوته، وفرح من بادر في أول الناس إلى شراء الطعام قبل أن يضاعف ثمنه، وأخرج الفقراء ما في بيوتهم، فرمَوْهُ في سوق الهوان، وبان ذُلُّ نفوس كانت عزيزة، فقلت: يا نفس، خذي من هذه الحال إشارة!! ليغبطنَّ من له عمل صالح وقت الحاجة إليه، وليفرحنَّ من له جوابٌ عند إقبال المسألة». انتهى كلامه. روى الإمام مالك في «الموطَّأ» أن النبي ﷺ كان يقول في بعض دعائه: «**واقبضني إليك غير مضيّع ولا مُفرِّط**»، ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إرغاماً لمَن جَحَدَ به وكَفَر، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد البشر، والشافعُ المشفَّعُ في المَحْشَر، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه السادة الغُرَر.

أما بعـــد:

فاتقوا الله عباد الله، ثم اعلموا أن للتفريط في الأعمال الصالحة أسباباً كثيرة يطولُ حصرها.

غير أن من أهمها: الغفلةَ عن مدى حاجة المرء المسلم إلى تحصيل مثل هذه الأجور المضاعفة، والتي قد يسدُّ بها نقصاً كبيراً من الخلل الوارد على الفرائض، ناهيكم عن التزوُّد في الطاعة، والله جلَّ وعلا يقول: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[البقرة: ١٩٧].

ومن الأسباب عباد الله: ضعفُ التصوُّر الصحيح أو تلاشيه وبُعْدُه عن حقيقة أجور بعض الأعمال المضاعفة؛ فإن الاستمساك بالشيء، والعضَّ عليه بالنواجذ، إنما هو فرعٌ عن تصوُّره وإدراكه.

يقول ابن الجوزي رحمه الله: «من لمح فَجْرَ الأجر، هان عليه ظلامُ التكليف».

ومن **الأسباب كذلك**: توهُّم البعض من الناس أنهم بَلَغُوا درجة عُليا من كمال زائف في الجوانب الإيمانية، مما شكَّل حاجزاً منيعاً في الحيلولة دون اغتنام الفُرَص، وزيادة نسبةِ الإيمان لدى الواحد منهم.

ومنها يا رعاكم الله: العجز والكسل، اللذان تعوَّذ منهما النبي ﷺ، وإن كان العاجز معذوراً في بعض الأحايين لعدم قدرته، فإن الكسول الذي يتثاقل ويتراخىٰ مع القدرة قد لا يعذر ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

وآخر الأسباب عباد الله: كثرة الاشتغال بالمباحات والإفراط فيها، حتى ينغمس فيها المرء فيثقل، ويركن إليها فيبرد، ولذلك كان نهج السلف واضحاً في الإقلال من المباحات الملهية، ولذلك قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إني لأدع ما لا بأس فيه خشية الوقوع فيما فيه بأس».

وبعد عباد الله، ثَمَّ أمر ينبغي أن يُوَضَّح ويُجلى، وهو أن هناك سيئات تتضاعَف وتتكاثَر، حتى تُثْقِل سجل العبد وميزانه، وهي فيما يظهر له أنها من السيئات اليسيرة التي لا يتصور العبد أنها من الخطورة بمكان، فقد يفوه بكلمة لو مُزِجَت بماء البحر لمزجته، أو لا يلقي لها بالاً فتهوي به في النار سبعين خريفاً، أو يكون سبباً في

إحياء سيئة أو سنّها بين الناس، فيتبعها غيره فيضل، فيعود إليه وزرها ووزر مَن عَمِل بها من بعده، ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ [النحل: ٢٥]. يقول الرسول ﷺ: «**لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها؛ لأنه أوّل مَن سنَّ القتل**» [رواه البخاري ومسلم]. فحذار حذار أيها المسلم من أن توقع نفسك في مغبَّة هذا الشرك الموحِش، أو أن يكون لك من السوء ما لا يقتصر أثره عليك أنت وحدك، بل يتعداك إلى آحاد المسلمين، ولقد أحسن الإمام الشاطبي حين قال: «طُوبىٰ لمَن مات وماتت معه ذنوبه، والويل الطويل لمَن يموت وتبقىٰ ذنوبه مائة سنة ومائتي سنة، يُعَذَّب بها في قبره ويُسأل عنها إلى انقراضها».

اللهم إنَّا نعوذ بك من الإثم وما حاكَ في الصدور، أو أن نجرّ به على مسلم أو مسلمة، إنك سميع مجيب.

اللهم صَلِّ على محمد. . .

* * *

التواضع إلى أين؟

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعـــد:

فيا أيها الناس، في خِضَمِّ هذه العصور المتأخِّرة بَرَزَتْ وبصورة جليّة آليات مستجدة، وإحداثيات خَدَمَتْ معظم بِقاع الأرض في تغطية حاجياتها وتحسينياتها، حتى أصبحت طوفاناً ماديًّا جارفاً، منحدِراً مِن فُوّهة بركان، فجّرته الحضارة الماديّة الجافّة، والتي اجتالَت على حسابها كثيراً من المعايير الفاضلة؛ كما أن حمأة التنافس على اكتساب مستجدّات هذه الحياة، لا ينبغي أن

تكون حاجزاً مانعاً عن بقاء المبادئ الإنسانية الشريفة والتي رعاها الإسلام حقَّ رعايتها، بل وطالَبَ بها ودعا إليها في كل حين وآن، مهما اتَّسع الناس في ماديتهم أو ضاقوا.

ما أشدَّهُ مَضَضاً ما تعانيه الأُمَّة المسلمة اليوم، إن كثيراً من موروثاتها الروحية ليَذْهَبُ فُرُطاً، وإن الغفلة قد بلغت من الناس مبلغ مَنْ يظنُّ أنه مسرمَدٌ في هذه الحياة، وكأنَّ رَحَىٰ الأيام لن تدور عليه يوماً ما، مما أبرز الصَّدْرَ الوَحر، واللسانَ المَذق، والذي على إثره تندرِس جملة من معاني الأخلاق الشريفة، كما يدرس وَشْيُ الثوب، حتى لا يُدْرَىٰ ما زهدٌ ولا رحمةٌ ولا صلة، ولا تواضع ولا لين.

لقد أصبحت مفاهيم بعض السُّذَّج من الناس تجاه التعامل مع الآخرين ومعاشرتهم: إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب، وإن لم تجهل يُجْهَلْ عليك، وإن لم تتغدَّ بزيد تعشَّى بك.

ثُمَّتَ زعموا: أن الفلسفة الأخلاقية العظمى عندهم، هي في انطلاق النظرة للآخرين من زاوية: كم تملك؟! وما مركزك؟! ويرون أن في ذلك غنية وضماناً للسلام والرخاء، وعِوَضاً عن التربية والتهذيب الروحي، وأن ما عداها، فهي سجايا وخِصَال أَكَلَتْ عليها السِّنون وشَرِبَت، هكذا يزعُمُ جُفاةُ الأخلاق الحميدة، الذين أثَّرت فيهم المعاني النفسية، التي تعلو بِعَرَض من الدنيا،

وتهبط بعرض، وأن أي خلل في الحياة الاعتيادية، فإن المال يرمِّمها، والحسب والجاه يَرْأَب الصَّدْع فيها.

أما إنه لو أدرك المسلم أن أوّل حقٍّ عليه للمسلمين: هو أن يحمل في نفسه معنى الناس لا معنى ذاته؛ لَعلِمَ أن مَن فاقَ الناس بنفسه الكبيرة دون تميُّز، كانت عظمته حقيقة في أن يفوق نفسه الكبيرة، متخطياً ما فيها من طمع وجشع وكبرياء، وبمثل هذا يصبح الناس أحراراً متى حكمتهم معاني الدَّعَةِ والتواضع والتوادِّ والتعاطف، تحت ظل الإسلام الوَارِف، وأمَّا المركزُ والمال والجاه، فإنما هي عوارِضُ سرعان ما تزولُ بعدما كانتْ رسماً ظاهراً لا يَمَسُّ بواطِن القلوب، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

كتب وهب بن منبه إلى مكحول: «أما بعد، فإنَّك قد أصبت بظاهرك عند الناس شرفاً ومنزِلة، فاطلب بباطن عملك عند الله منزلةً وزُلفَىٰ، واعلم أن إحدى المنزلتين تنازع الأخرى».

بمثل هذا كله عباد الله، يتصل ما بين العظيم والسُّوقة، وما بين الغني والفقير، اتصالَ التواضع في كل شيء بعيداً عن معاني الدينار والدرهم وحماهما، حتى يكونوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو، تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمى.

أيها المسلمون، التواضع بين المسلمين خَصْلَةٌ مرجوّة، هي أُسُّ

في خلق المجتمعات، ومقبض رَحَىٰ حُسن الاتصال بينهم، لها موادُّ من الحكمة، وأضدادٌ من خِلافها، بتمامها وصفائها يَمِيز الله الخبيث من الطيب، والأبيض من الأسود المرباد المجخي كما الكوز.

إنه لابد أن يكون للتواضع بين ظهرانينا محل طري لين، لم تستحكمه الشهوات ولا المصانعات، محل يهش أمامه ويبش، محل يوحي إلى المجتمع: أنهم ليسوا غرباء ولو تفرَّقت نواحيهم؛ وإلا كان تواضعاً مفقوداً في تيه العقل المادي، الذي اكتسىٰ فاقده ثياب كِبْرٍ مدمِّرة لا يهش له الناظر، بل تغض منه العيون، وتنبو عنه الأفئدة الحية، ويَنْفَضُّ الناس من حوله؛ وحينئذٍ يكشف مضمار المجتمع عن الستار المسدل، في صراعِ الأخلاق المحموم بين طغيان الأنفة، وطوفان الإعواز إلى التواضع.

إنه لا ينبغي لأحد من المسلمين، أن يمتنع عن التواضع أو يجبن عن تحقيقه؛ إذْ به تكتسب السلامة، وتورث الألفة، ويرفع الحقد، ويشعر الجميع بحقوقهم تجاه غيرهم، والعكس بالعكس، ألا فإنَّ تواضع الشريف إنما هو زيادةٌ في شرفه، كما أن تكبُّر الوضيع إنما هو زيادة في ضعته؛ كالعائل المستكبر الذي لا يكلِّمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم، فيا سبحان الله، كيف لا يتواضعُ مَن خُلِقَ من نطفةٍ مذرة، وآخره يعود جيفة

قذرة، وهو بينهما يحمل العذرة، أجلَّكم الله؟!

إنه لو لم يكن في التواضع خصلة تُحْمَد، إلا أن المرء كلَّما كثر تواضعه، ازداد بذلك رفعة؛ لكان الواجب على كل واحد منا ألا يتزيَّا بغيره؛ ولا جرم عباد الله فإن رسول الله ﷺ يقول: «**ما من امرئ إلا وفي رأسه حَكَمَة** - يعني كاللجام - **والحَكَمَةُ بيد مَلَكٍ: إنْ تواضع قيل للملك: ارفع الحَكَمَة، وإنْ أراد أن يرفع، قيل للملك: ضَعِ الحَكَمَة**» [رواه الطبراني والبزار بسند حسن]، وعند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما تواضَعَ أحد لله إلا رَفَعَهُ الله**».

فاقِد التواضع عباد الله: إنما هو امرؤ، استعبده الكِبْرُ الغائل، والعجب الغالب؛ فهو عنيد صلت، به يخبو قبسه، ويكبو فرسه، فاقدُ التواضع، عقله محصود؛ لأنه بعجبه وأنفته يرفع الخسيس ويخفض النفيس؛ كالبحر الخضم تسفُلُ فيه الجواهر والدر، ويطفو فوقه الخشاش والحشاش، أو هو كالميزان يرفع إلى الكفة ما يميل إلى الخفة.

فاقد التواضع عباد الله، عديم الإحساس، بعيد المشاعر، شقي لا يتَّعظ بغيره، غير مستحضر أن موطئه قد وطئه قبله آلاف الأقدام، وأن مَنْ بعده في الانتظار، ألا وإنه ما رُئِيَ أحد ترك التواضع وترفَّع على مَنْ هو دونه، إلا ابتلاه الله بالذلة لِمَنْ فوقه،

ومَنِ استطال على الإخوان، فلا يثقنَّ منهم بالصفاء.

مَن تكبَّر فلم يتواضع، فقد رمى بثقله في ثلاث خصال مذمومة:

أولها: أنه لا يتكبَّر على أحد حتى يعجب بنفسه، ويرى لها الفضل على غيرها.

وثانيها: ازدراؤه بالناس من حوله؛ لأن مَن لم يستحقر الناس، لم يتكبَّر عليهم، وكفىٰ بالمستحقر لمَن أكرمه الله بالإيمان طغياناً. وأنَّىٰ للمستكبر أن يستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً.

وثالث الخِصال: منازعة الله جلَّ وعلا في صفاته؛ إذ الكبرياء والعظمة له وحده، يقول سبحانه في الحديث القدسي: «**الكبرياءُ ردائي، والعظمةُ إزاري، مَنْ نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم**». [رواه مسلم].

ألا فليت شعري: ما الذي يحمل الكثيرين على أن يركنوا إلى العجب والأنفة، وينأَوْا بأنفسهم عن التواضع وخفض الجناح، أفيكون السبب في ذلك فطرةً يفطر عليها المتكبِّر فيدَّعي جبليَّتها وصعوبةَ الخلاص منها؟! كلا والله، فالنبي ﷺ يقول: «**إن الله أوحَىٰ إليَّ أن تواضعوا؛ حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**» [رواه مسلم].

أم أن ذلك نقيصةٌ يجدها المرء في نفسه، ثُمَّتَ يسد ثلمتها بعجب وفخر يحتال بهما على نفسه؟! ربما يكون مثل هذا، ولكن لمن جهل حقيقة الشرف والرفعة، وأنها في التواضع لا في الفِرار منه بحجة سد النقيصة أو قضاء الوطر؛ يقول الصدِّيق رضي الله عنه: «وجدْنَا الكرمَ في التقوى، والغِنى في اليقين، والشرفَ في التواضع».

ثم إن لم يكن الأمر لا هذا ولا ذاك، فما الذي يحمل المرء على ذلك، هل هو الحسد، والتشفِّي، وحب الذَّات؟! أم هو سَوْرة كسورة الخمرة، تأخذ بشاربها كل مأخذ حتى ينتشي، فإذا انتشى عاود حتى يصير مدمناً فيستوي عنده حال الخمار والإفاقة؟! وأيًّا كان ذلك، فإن النأي عن التواضع سِمَةٌ مرذولة، وخصلة مستهجنة، ووسم تعلق به نار الحدادين؛ لأن عين المعجب بنفسه تنظر عن زاوية داكنة، فهي تَعْمَىٰ عن الفضائل، حتى يكون أسرع ما يتسرب الإيمان من امرئ هذه حاله، كما يتسرَّب السائل من الإناء المثلوم.

ويالله العجب، كيف لا ينظر أمثالُ هؤلاء إلى سير الأسلاف من قبلهم، وعلى رأسهم إمامُنا وقدوتنا، سيد ولد آدم، ذو النسب الرفيع، والجاه الوسيع، فها هو قد نام على الحصير، وابتسم في وجه مَنْ أوجعه، ووقف إلى جانب امرأة في الطريق تشكو إليه، وشرب مع أصحابه في إناء واحد، وكان آخرهم شرباً، كما أكل مع أهل الصفة، ثم دخل مكة في الفتح متواضعاً، ومشى في الأسواق

والناس من حوله يأكل مما يأكلون منه، ويشرب مما يشربون، بأبي هو وأمي، صلوات الله وسلامه عليه!!

وهذا خليفته الصدِّيق رضي الله عنه، كان يحلب لأهل الحي أغنامهم، فلمَّا بويع بالخلافة، قالت جاريةٌ منهم: الآن لا يحلب لنا منائح دارنا، فسمعها فقال: بلى لأحلبنَّها لكم، وإني لأرجو ألا يغيِّرني ما دخلْتُ فيه. ثُمَّتَ الفاروقُ، وما أدراكم ما الفاروق؟! خطب بعد خلافته فقال: اعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدِّي على المسلمين، فأما أهل السلامة والدين والقصد، فأنا ألين لهم من بعضهم البعض، وإنني بعد شدَّتي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف!! فلا إله إلا الله، أحقيقة ما نسمع أَم هو نَسْج من الخيال؟! أهو فتونٌ يتردَّد أم هي حقيقة اكتنفتها قلوبُ مَنْ يعرفون ما الدنيا وما الله؟! عند الترمذي والحاكم؛ أن جبير بن مطعم قال: تكونون في التيه وقد ركبت الحمار، ولبست الشملة، وقد حلبت الشاه. وقد قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ فعل هذا، فليس فيه من الكبر شيء**»؛ ألا فليتنبه لذلك المغرورون المعجبون بأنفسهم وجاههم، في حين أنهم بادو الكبرياء، كالحو الوجوه، ومَنْ هذه حاله فلا يغتر بكونه يملك ألفاً؛ فإن عليه من الحقوق والتبعات ما قد يزيد على الألفين.

ألا وإن حسن الصورة وجمال المظهر لا يُقَدِّم في ذلك ولا يُؤَخِّر؛ فإن جمال الوجه في قبح نفس كقنديل على جدار مجوسي، وهل ينفع الفتيانَ حُسْنُ وجوههم إذا كانتِ الأخلاقُ غَيْرَ حِسَانِ، ومن قايس بين الجمال والفعال، تبيَّن له أن المَلاحَة بالقباحة لا تفي بالمقصود، فلله: ماذا يعني لباس المظهر إذا كان المَخْبَر عارياً بادية للناس سوءته؛ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

إن من سُرَّ بأنفته، فليعلم أن الجمل أشدُّ كبراً منه، بل وأشد منه ذلكم الطاووس الذي يمشي مشي المرح المختال، يتصفَّح ذنبه وجناحيه، فيقهقه ضاحكاً لجمال سرباله وأصابيغ وشاحه، فأي فخر وأي سرور فيما تكون فيه صورة البهائم متقدِّمة عليه؟!

فينبغي للعاقل إذا رأى مَنْ هو أكبر منه سنًّا، تواضَع له وقال: سبقني إلى الإسلام، وإذا رأى مَن هو أصغر منه سِنًّا، تواضَع له وقال: سبقته بالذنوب، وإذا رأى مَن هو مثله، عدَّه أخاً قريباً، فلا يحقرنَّ أحداً من المسلمين، فكم من عَوْدٍ منبوذ، ربما انتفع به فحك الرجل به جسده!! وقد قال ابن عيينة: لو قيل: أخرجوا خيار هذه القرية، لأخرجوا مَنْ لا نعرف.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

الخطبة الثانية

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيماً لشانه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وإخوانه.

أما بعــد:

فيا أيها الناس، لازلنا نؤكِّد بأن التواضع شأنه عظيم، وأمره جسيم، قد تكلَّم فيه أهلُ العلم والحكمة، وأجلبوا عليه بخيلهم ورجلهم مبيِّنين ما له وما عليه بالأدلة الشرعية، فجعلوا منه التواضع المحمود، والتواضع المذموم.

فكان من التواضع المحمود: أن يترك المرءُ التطاولَ على عباد الله، والترفُّعَ عليهم، والإزراءَ بهم حتى مع وقوع الخطأ عليه؛ فقد قال النبي ﷺ: **«ما زاد اللهُ عبداً بعفو إلا عزًّا»** [رواه مسلم].

ومن ذلك أيضاً: التواضعُ للدين، والاستسلامُ لشرع الله، بحيث لا يعارضه المرءُ بمعقول ولا رأي ولا هوى، ولا يتَّهم للدين دليلاً صحيحاً، وأن ينقاد لما جاء به خاتم الرسل ﷺ، وأن تعبد الله وفق ما أمرك به، وألا يكون الباعث على ذلك داعي العادة،

وألا ترى لنفسك على الله حقًّا لأجل عمل عملته، وإنما تعلم أنك ترجو رحمته وتخشى عذابه، وأنك لن تدخُلَ الجنةَ بعملك، وإنما برحمته لك.

كما أن من التواضع المحمود أيضاً: أن تترك الشهوات المباحة، والملذَّات الكمالية؛ احتساباً له وتواضعاً، بعد التمكُّن منها والاقتدار عليها، دون أن توصف ببخل أو طمع أو شُحٍّ؛ فقد قال النبي ﷺ: «**مَنْ ترَكَ اللباس تواضعاً لله، وهو يقدر عليه، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائِق حتى يخيِّره من أيِّ حُلَلِ الإيمان شاء يلبسها**» [رواه أحمد والترمذي].

ومما يزيد الأمر وضوحاً: أن فاقِدَ الشيء لا يعطيه، وأن المتواضِعَ حقيقةً هو المقتدر على الشيء، لا العاجز عن تحصيله؛ فلقد قال رسول الله ﷺ: «**يا عائشةُ، لو شئتُ لسارتْ معي جبال الذهب، جاءني مَلَكٌ إنَّ حُجْزَتَهُ لتساوي الكعبة** ـ أي: موضع شد الإزار ـ **فقال: إنَّ ربَّك يقرأُ عليك السلام ويقول: إنْ شئتَ نبيًّا عبداً، وإن شئتَ نبيًّا مَلِكاً، فنظرتُ إلى جبريل** عليه السلام**؟ فأشار إليَّ أن ضَعْ نفسك، فقلت: نبيًّا عبداً**» [رواه أبويعلى والطبراني بسند حسن].

أما التواضع المذموم يا رعاكم الله: فهو التواضع أمام نصرة دين الله سبحانه، والذي يسبِّب التخاذل، وهجر النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والخنوعَ أمام الباطل، والبُعْدَ عن

نصرة الظالم والمظلوم، حتى يكون من هذه حاله، كالكوز مجخيًّا؛ لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً.

كما أن من التواضع المذموم: تواضعَ المرء لصاحب الدنيا والجاه والنَّسَب؛ رغبةً في شيء مما عنده حتى يصبح عالة أمام المغريات فيفتن بها.

وحاصل الأمر عباد الله: أن التواضع مِنْ أعظم ما يتخلَّق به المرء؛ فهو جامع الأخلاق وأسُّها، بل ما من خُلُقٍ في الإسلام، إلا وللتواضع فيه نصيب، فبه يزول الكِبْرُ، وينشرحُ الصدر، ويعم الإيثار، وتزول القسوة والأنانية، والتشفِّي وحب الذات، وهلم جرًّا. اللهم، إنا نعوذ بك من الغل والحسد، ونعوذ بك أن نجرَّ بهما على مسلم سوءاً يا ذا الجلال والإكرام.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد...

❊ ❊ ❊

حيازة الدنيا بحذافيرها

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مضلَّ له ومَن يُضْلِل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعـــد:

فأوصيكم ـ أيها الناس ـ ونفسي بتقوى الله سبحانه؛ فإنها دليل الحيران، وريُّ الظمآن، وأنيس الولهان، بها يسمو المرء ويرتفع، وتُصْقَل النفس وتنتفع، هي الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال.

أيها الناس، إن إعطاء المرء المسلم نفسه شيئاً من فرص المناصحة، وأوقات المراجعة، وسَطَ دواوين من السنة المطهرة،

ومن ثَمَّ حملُ نفسه على أن يقف وقوفاً دقيقاً عند حديث رسول الله ﷺ المنبعث من مشكاة النبوَّة؛ ليعرف أسراره، ويستضيء بأنواره، حتى تنشرح النفس وتصفو، فتؤمن بالنبي المصطفى، والرسول المجتبىٰ، صلوات الله وسلامه عليه، وتَتَّبِعَ النور الذي أُنزِل معه.

إنه ـ ولا شك ـ سيقرأ أو يسمع كلاماً صريحاً لا فلسفة فيه ولا تعقيد، كلاماً يقرِّر أن حقيقة الإنسان المسلم، ومكانته العالية، وحياته المستقرَّة الخالصة من المكدِّرات المزمنة، والشوائب العالِقة، لن تكون فيما ينال من لذَّة عارضة، أو صبوة سانحة، أو انفلاتٍ من مسلَّماتٍ يظنُّها الأغرار نوعاً من القيود والتحجير، كلا! فالأمر ليس كذلك عباد الله، بل إن المطَّلع في سُنة المصطفى ﷺ لن يجد إلا ما يسرُّه، ويرسم له طريق الحياة المختصر الذي يسرع بوصوله إلى الغاية العُظمى، ورؤية الرب تبارك وتعالى.

يقولِ المصطفى ﷺ في الحديث الصحيح: **«مَنْ أصبح آمناً في سِرْبِه، معافىً في جسده، عنده قُوتُ يومِه، فكأنَّما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها»** [رواه الترمذي وابن ماجه والبخاري في الأدب المفرد].

الله أكبر، إنها كلماتٌ يسيرات، لكنها حَوَتْ معنى الحياة الحقَّة، والاستقرار الدائم، بل إنها كلماتٌ ترسم للمرء صورة الحياة بقضِّها وقضيضها، وحلوها ومرِّها، وسهلها وصعبها، على أنها لا تتجاوز هذه المعايير الثلاثة، والتي لا يمكن لأيِّ كائنٍ

بشري عاقل أن يتصوَّر الحياة الدنيوية الهانئة بدون توافرها؛ إنه أمن المرء في سَرِبهِ أي: في بيته ومجتمعه، ومعافاتُهُ في بدنه، وتوفُّرُ قوت يومه.

إنها عباراتٌ سهلة على كل لسان، غير أن وصف النبي ﷺ لها بكونها تعادِلُ حيازةَ الدنيا بحذافيرها يجعلُ كل واحد منَّا يتأمَّل ويُدَقِّق النظر في أَبْعَاد هذه المعاني، وتنزيلِهَا على واقع حياتنا جميعاً، ومدى تأثيرها فينا وجوداً وعدماً، إيجاباً وسَلْباً.

أَمْنُ المرء في سربه، عباد الله: مطلبُ الفرد والمجتمعات على حدٍّ سواء، وهو الهدف المرتقب لكل المجتمعات بلا استثناء على اختلاف مشاربها، ثم إن إطراء الحياة الآمنة هو ديدنُ كافة المنابر؛ للصلة الوثيقة بينه وبين إمكانية استقرار المجتمعات، وإلا فما قيمة لقمة يأكلها المرء وهو خائف، أو شَرْبَةٍ يشربها الظمآن وهو متوجِّس قَلِق، أو نعسةِ نومٍ يتخلَّلها يقظات وسنان هلع، أو علمٍ وتعليم وسَطَ أجواء محفوفة بالمخاطر؟!

إن كل مجتمع يفقد الجانب الأمني في ثناياه إنما هو في الحقيقة فاقدٌ لمعنى الحياة لا محالة، حتى يكون تُكَأَةً لنهب الناهبين، وتفريط المقصِّرين، فيذهب أقساماً بين أشتات المطامع والأهواء.

ومن أجل الأمن ـ عباد الله ـ جاءت الشريعة الغرَّاء،

بالعقوبات الصارمة، والحدود الرادعة تجاه كل مُخلٍّ بالأمن كائناً مَنْ كان، بل وقطعتْ أبواب التهاون في تطبيقها، أيًّا كان هذا التهاون، سواء كان في تنشيط الوسطاء في إلغائها، أو في الاستحياء من الوقوع في وصمة نقد المجتمعات التي تدَّعي الحضارة، ومعرَّة وصفهم للغير بالتخلُّف.

وحين يَدِبُّ في الأُمَّة داءُ التسلُّل الأمني، فإن المتسببين في ذلك يهيلون التراب على تراث المسلمين، ويقطعون شرايين الحياة الآمنة على الأجيال الحاضرة، والآمال المرتقبة.

ثم إنه يجب علينا ألا نقصرَ جانب المفهوم الأمني على الفرد وحده، ولا على معنى واحد من معانيه فحسب، كأن يُقْصَرَ على ناحية حماية المجتمع من الجرائم لا غير، أو أن يُقْصَرَ مفهوم حمايته على جانب الشُّرَط والدوريات الأمنية دون سواها، بل إن شمولية مفهوم الأمن تنطلق باديَ الرأي في عقيدة المجتمع، وارتباطه الوثيق بربِّه، والبُعد عن الشرك وسبله، والذي هو الظلم بعينه؛ كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

ناهيكم ـ عباد الله ـ عن المجالات الأمنية المتكاثرة في المجتمعات؛ كالأمن الغذائي، والأمن الصحي والوقائي، والأمن الاقتصادي، والأمن الفكري، والأمن الإعلامي، والأمن الأدبي؛

فعلى الأمة برمتها ألا تقع في مزالق الانحدار والتغريب تجاه أي معنى من المعاني الأمنية الآنفة، وألا تقترف خيانات أمنية في أي لون من ألوانه؛ فالأمن على مثل هذا لا يقلُّ أهميةً عن أمن الأرواح والأموال؛ فكما أن للبيوت لصوصاً ومختلسين وللأموال كذلك، فإن للعقول لصوصاً ومختلسين، وللأفئدة لصوصاً ومختلسين، بل إن لصوصَ العقول والقلوب أشد خطراً وأدهىٰ وأمرّ.

إن إصباح المرء المسلم آمناً في سربه، لهو من أوائل بشائر يومه وغده، وما صحَّةُ البدن وقوتُ اليوم إلا مرحلةً تالية لأمنه في نفسه ومجتمعه؛ إذْ كيف يصحُّ بدن الخائف؟! وكيف يكتسب من لا يأمن على نفسه وبيته؟!

ولأجل هذا ـ عباد الله ـ كان لزاماً علينا أن نقدِّر حقيقة الأمن، وأن نستحضرها نصب أعيننا بين الحين والآخر، حتى لا نكون مع كثرة الإمساس لها فاقدي الإحساس بها، ولاسيما حينما نشخص بأبصارنا يمنةً ويسرة لنرى بعض الأقطار الملتهبة بالصراع، والتي يطحنْ بعضها بعضاً من داخلها، أو بما هو أدهى وأمرُّ، من خلال سطوة البغاة عليها، واجتياح العدوان المسلَّح، استباحةً لأرضها، وقطعاً لحرماتها.

ألا مِنْ مُشَاطِرٍ لنا أحزانَ ما يجري في مسرى رسول الله ﷺ، وثالث المسجدين؟! يُصاب المسلمون فيه بالذعر عند كل زفرة

نَفَسٍ من أنفاسهم، يستيقظون عند كل رمية برصاص، أو حركة مجنزرات ظالمة؟! إنهم يرجون الأمن والأمان، يناشدون العدالة والإنصاف، ينادون المتخصِّصين فيما زعموه مكافحة الإرهاب، لقد ناشدوا وناشدوا وناشدوا، حتى لربما انطلقت صيحات الغير تصفهم بالغباء حينما يناشدون بمدمعهم لا بمدفعهم، أو يطالبون بالعدل من حيث لا يوجد إلا الجور، أو بالسلم من حيث لا توجد إلا الحرب.

أين المتحدِّثون عن الإرهاب، وخطورةِ الإرهاب، واجتثاثِ الإرهاب؟! أين المتعاطفون مع الأبرياء؟! أين ما يسمَّىٰ بالحقوق الإنسانية؟! أين وأين وأين؟! ألا يكون قتل المسلمين إرهاباً؟! ألا يكون ترويعهم إرهاباً؟! ألا يكون اجتياح أرضهم إرهاباً؟! ألا ليت شِعْرِي مَنْ يدري لعلَّ دلالة اللفظ في حق ثالث المسجدين لا تسمَّىٰ عند البعض إلا تِرْحَاباً، وأما فيما عداها فإنها لا تسمَّى عندهم إلا إرهاباً: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

ولقد صدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «ولينزعَنَّ الله من صدور عدوكم المهابةَ منكم، وليقذفنَّ في قلوبكم الوَهَن» قالوا: وما الوهن؟ قال: «حبُّ الدنيا، وكراهيةُ الموت» [رواه الإمام أحمد وأبوداود].

ألا إن الله غالِبٌ على أمره عباد الله، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]، ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٦ ـ ١٩٨].

أيها المسلمون، لقد أتبع النبي ﷺ أمنَ المرء في سربِهِ **بكونه معافىً في جسده**، وجعل المعافاة في الجسد ثُلُثَ حيازة الدنيا بحذافيرها، وهذا أمر واضح جلي؛ لأن الصحة تاج فوق رؤوس الأصحَّاء لا يراه ويُحِسُّ به إلا المرضى من الناس.

الصحة والعافية ـ عباد الله ـ محلٌّ لأنْ يُغْبَنَ فيها المرء على حد قول النبي ﷺ: «**نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ**» [رواه البخاري وغيره].

السلامة لا يعدلها شيء، والصحةُ التَّامةُ والسلامة من العِلل والأسقام في البدن ظاهراً وباطناً هُوَ مِن مكامِن الحياة الهانئة المستقرَّة؛ إذ فيها عون على الطاعة، والقيام بالتكاليف الشرعية على أحسن وجه كان، ناهيكم عن أثر الصحة والبسطة في الجسم في نواحي الحياة المختلفة: و«**المؤمنُ القويُّ خيرٌ من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير**» [أخرجه مسلم].

والبسطة في العلم والجسم مما تُنَالُ بها معالي الأمور؛ كما

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وقال سبحانه عن موسىٰ: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

الأمراض والأسقام ـ عباد الله ـ أدواءٌ منتشرة انتشار النار في يابس الحطب، ومن هنا تكمن الغبطة للأصحاء، غير أن هذه الأسقام هي ـ وإنْ كانت ذات مرارة وثقل واشتداد وعرك ـ إلا أن الله جل شأنه جعل لها حكماً وفوائد كثيرة، عَلِمَهَا مَنْ علمها، وجهلها من جهلها، ولقد حدَّث ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن نفسه أنه أحصى ما للأمراض من فوائد وحِكَم فزادت على مائة فائدة. [شفاء العليل]. وقد قال رجل لرسول الله ﷺ: أرأيت هذه الأمراض التي تصيبنا ما لنا بها؟ قال: «كفَّارات»، قال أُبي بن كعب: وإن قلَّت؟! قال: «وإنْ شوكةً فما فوقها» [رواه أحمد]. وعند البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «ما مِنْ مسلمٍ يصيبه أذىً من مرض فما سواه، إلا حطَّ الله به سيئاته كما تحطّ الشجرة ورقها» [البخاري ومسلم].

غير أنه لا يُظَنُّ مما سبق ـ عباد الله ـ أن المرض مطلب منشود، أو بلاء يتطلَّع إليه العبد المسلم، كلا بل هو محنةٌ يكون الصبر مطلباً عند وقوعها، والمرءُ المؤمن لا يتمنَّى البلاء؛ إذ رسول الله ﷺ يقول: «سَلُوا الله العَفْوَ والعافية؛ فإنَّ أحداً لم يُعط بعد اليقين خيراً من العافية» [رواه النسائي وابن ماجه]، وقال مطرف

رَحِمَهُ اللَّهُ: «لأن أُعافىٰ فأشكر أحبُّ إليَّ من أن أُبتلى فأصبر».

وعلى كلا الأمرين ـ عباد الله ـ فإن الصحة بلا إيمان هواء بلا ماء، والمرض بلا صبر ورضا بلاء يتلوه بلاء، وجماع الأمرين دين وإيمان بالله، يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «إنكم تَرَوْنَ الكافرَ من أصحِّ الناس جسماً وأمرضهم قلباً، وتلقون المؤمن من أصح الناس قلباً وأمرضهم جسماً، وايم الله، لو مرضَتْ قلوبكم وصحَّت أجسامكم، لكنتم أهون على الله من الجِعْلاَن».

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذِّكر الحكيم، قد قلت ما قلت، إنْ صواباً فمن الله، وإن خطأ فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله إنه كان غفَّاراً.

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضىٰ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، وخيرته من خلقه، صلى الله وسلَّم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعـــد:

فيا أيها الناس، المال في الإسلام وسيلة لا غاية، وطلبه من طريق حِلِّه وطيبه أمرٌ مشروع لكلِّ مكتسب، والنبيُّ ﷺ حينما قال: «مَنْ أصبح آمناً في سِرْبِهِ، معافىً في جسده، عنده قوت يومه»، أراد بقوت اليوم، الحالَ الوسط بين الضدين، لا حال الأثرياء المترفين الذين ضعف عند بعضهم الخُلُقُ والدين، ولا حال المفلسين القَعَدَة الذين استمرأوا الكسل والبطالة والتشرُّد.

إن الذين يكسلون ولا يربحون، ثم يتسولون أو يحتالون باسم التكسب أو العيش، ليسوا على سواء الطريق، والذين يحبون المال حبًّا جَمًّا حتى يُعميهم عن دينهم وأخلاقهم، وخلواتهم القلبية، وجلواتهم الروحية، ليسوا على سواء الطريق أيضاً؛ فكلا طَرَفَيْ قصد الأمور ذميم.

فعن الأول يقول النبي ﷺ: «**تعوَّذوا بالله من الفقر والقلة والذلة**»، ويقول: «**اللهمَّ إني أعوذ بك من الكفر والفقر**» [رواهما الإمام أحمد].

وعن الآخر يقول الله تبارك وتعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

وخير الأمور ـ عباد الله ـ هو الوسَطُ؛ فإنَّ الفقر كاد يكون كفراً، بل هو مَظِنَّةُ الاتكال على الغير، وربطِ الأمورِ مع الناس بما يملكون من مال، لا ما يملكون من خُلُق، فتختلُّ عند الفقير المعايير، كما أن الغِنَىٰ مظنَّة الطغيان، والوقوع في طُرُق الكسب المحرَّمة بحثاً عن المال بنَهَم، أو هو مظنة الفرار من الحقوق؛ كالصدقة والزكاة وأوجه البِرِّ؛ ولهذا فإنَّ مَن مَلَكَ قوت يومه، فإنه يكون في منأى عن بطر الغنى، وهوان الفقر، فيكون كافًّا عافًّا، ومن هنا جاءت حيازة الدنيا.

فالفقر دُونٌ برمّته، والغنى يُحْمَدُ في الخير، ويُذم في الشر، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠]، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «**نِعْمَ المالُ الصالح للرجل الصالح**» [رواه أحمد].

نقول مثل هذا ـ عباد الله ـ لأجل أن نُذَكِّر كلَّ ذي نعمة

بنعمته، ولنعلم جميعاً أن هناك من المسلمين ـ ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ [المعارج: ٣٧] ـ مَنْ يصبح لا يدري مصير أمنه، ولا قوت يومه، ولا معافاة بدنه، يعيشون أجواء مقلقة، وحياةً متقلِّبة، ما عند يوم أحدهم ثقة له بِغَدِهِ، شيوخٌ ونساء وأطفال، برآء ما جَنَوْا ذنباً، أطهارٌ ما كسبت أيديهم إثماً، سقوفهم واكفة، وجدرانهم نازَّة، وجبالهم تسيل حمَماً وشظايا، حتى غَدَتْ أوديتهم بمآسيهم أباطح، فلم تَعُدِ الدُّور دوراً، ولا المنازل منازلاً، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

هذا وصلُّوا ـ رحمكم الله ـ على خير البَرِيَّة، وأزكى البشرية محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب، صاحب الحوض والشفاعة، فقد أمركم الله بذلك فقال في كتابه الكريم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صلِّ وسلِّم على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم...

* * *

اللهو والترفيه في ميزان الشرع

الخطبة الأولى:

الحمد لله المتوحِّدِ في الجلال بكمال الجمال تعظيماً وتكبيراً، المتفرِّدِ بتصريف الأحوال على التفصيل والإجمال تقديراً وتدبيراً، المتعالي بعظمته ومجده الذي نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعن التابعين ومَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعـــد:

فاتقوا الله معاشر المسلمين، واعلموا أن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وعليكم بجماعة المسلمين؛ فإن يد الله على الجماعة، ومَن شذَّ عنهم فمات فميتته جاهلية.

أيها المسلمون، إن حياة الناس بعامة، مليئة بالشواغل والصوارف المتضخمة، والتي تفتقر من حيث الممارسات المتنوِّعة إلى شيء من الفرز والترتيب لقائمة الأولويات منها، مع عدم إغفال النظر حول تقديم ما هو أنفع على ما هو نافع فحسب، ثم إن

الضغوط النفسية والاجتماعية الكبيرة الناتجة عن هذا التضخم، ربَّما ولَّدت شيئاً من النهم واللهث غير المعتاد تجاه البحث عما يبرد غلة هذه الرواسب المتراكمة ويطفئ أُوَارَهَا.

إن الحضارة العالمية اليوم قد عُنِيَتْ بإشعال السلاح، ورفع الصناعة، وعولمة بِقاع الأرض؛ تلكم الحضارة التي حوَّلت الإنسان إلى شبه آلة، تعمل معظم النهار إنْ هي عملت؛ ليكون ساهراً أو سادراً أو خامداً ليله، هذه هي الثمرة الحاصلة ليس إلا.

إن تلكم الحضارة برمَّتها، لم تكنْ كفيلةً في إيجاد الإنسانِ العاقل، الإنسانِ المدرِك، الإنسانِ الموقِن بقيمة وجوده في هذه الحياة، وحكمةِ خَلْقِ الله له، بل إن ما فيها من آليات متطوِّرة وتقنيات، كان سبباً بصورة ما في إيجاد شيء من الفراغ في الحياة العامة، مما ولَّد المناداةَ في عالم الغرب بما يسمَّى علم اجتماع الفراغ، وإن لم يكن هذا الفراغ فراغ وقت على أقل تقدير، فهو فراغ نَفْس، وفراغ قلب، وفراغ روح وأهداف جادة، ومقاصد خالية من الشوائب؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ١ ـ ٤].

إن الحضارة العالمية، حينما توفر للإنسان ـ بالتقدُّم العلمي،

والجهد الصناعي - قوةَ الإنسان ونشاطه، وتوفر له مزيداً من الوقت، ثم يكون في نفسه وقلبه وروحه ذلك الفراغ؛ فهنا تحدث المشكلة، ويكمن الداء، الذي يجعل أوقات الفراغ في المجتمعات تعيش اتساعاً خطيراً، حتى صارت عبئاً ثقيلاً على حركتها وأمنها الفكري والذاتي، ومنفذاً لإهدار كثير من المجهودات والطاقات المثمرة.

إنَّ غياب الضبط والتحليل والترشيد، للظاهرة الحضارية الجديدة، المنشئة أوقات الفراغ، ليمثّل دليلاً بارزاً على وجود شرخ في المشروع الحضاري والعولمة الحرة، غير بعيد أن تُؤْتَى الأمة المسلمة من قِبَلِه.

وإن عدم وعينا التام بخطورة هذا المسلك تجاه أوقات الفراغ، وعدم وعينا التام بالمادة المناسبة لشغل تلك الأوقات، في استغلال العمليات التنموية والفكرية والاقتصادية البنَّاءة، لجديرٌ بأن يقلب صورته إلى معول هدم، يضاف إلى غيره من المعاول من حيث نشعر أو لا نشعر، والتي ما فتئ الأجنبي عنا يبثها ليل نهار، لنسف حضارة المسلمين على كافة الأصعدة بلا استثناء، كيف لا ورسولُ الله ﷺ يقول: «**نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ**» [رواه البخاري].

إن الإسلام دين صالح للواقع والحياة، يعامل الناس على أنهم بشر، لهم أشواقهم القلبية، وحظوظهم النفسية؛ فهو لم يفترض فيهم أن يكون كل كلامهم ذكراً، وكل شرودهم فكراً، وكل تأملاتهم عبرة، وكل فراغهم عبادة، كلا ليس الأمر كذلك، وإنما وسع الإسلام التعامل مع كل ما تطلبه الفطرة البشرية السليمة، من فَرَحٍ وتَرَح، وضحك وبكاء، ولهو ومرح، في حدود ما شرعه الله، محكوماً بآداب الإسلام وحدوده.

عباد الله، إن قضية إشغال الفراغ باللهو واللعب والفرح، لهي قضية لها صبغة واقعية على مضمار الحياة اليومية، لا يمكن تجاهلها لدى كثير من المجتمعات، بل قد يشتدُّ الأمر ويزداد عند وجود موجبات الفراغ، كالعُطَلِ ونحوها، حتى أصبحت عند البعض منهم مصنَّفة ضمن البرامج المنظمة في الحياة اليومية العامة، وهي غالباً ما تكون غوغائية تلقائية ارتجالية، ينقصها الهدف السليم، لا تحكمها ضوابطُ زمانية ولا مكانية، فضلاً عن الضوابط الشرعية، وما يحسن من اللهو وما يقبح.

الترويح والترفيه عباد الله: هو إدخالُ السرور على النفس، والتنفيسُ عنها، وتجديدُ نشاطها، وزمُّها عن السآمة والملل، وواقعُ النبي ﷺ إبان حياته يؤكِّد أحقية هذا الجانب في حياة الإنسان،

يقول سماك بن حرب: «قلتُ لجابر بن سمرة: أكنتَ تجالسُ رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، كان طويلَ الصمت، وكان أصحابه يتناشدون الشعر عنده، ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ويضحكون، فيبتسم معهم إذا ضحكوا» [رواه مسلم].

وأخرج البخاري في «الأدب المفرد» عن أبي سلمة بن عبدالرحمن قال: «لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ منحرفين ولا متماوتين، وكانوا يتناشدون الأشعار في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أريد أحدهم على شيء مِنْ دينه، دارت حماليقُ عينيه». وذكر ابن عبدالبر رحمه الله عن أبي الدرداء أنه قال: إني لأستجم نفسي بالشيء من اللهو غير المحرَّم، فيكون أقوى لها على الحق. وذكر ابن أبي نجيح عن أبيه قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنِّي ليعجبني أن يكون الرجلُ في أهله مِثْلَ الصبي، فإذا بغي منه حاجة وجد رجلاً». وذكر ابن عبد البر عن علي رضي الله عنه أنه قال: «أَجِمُّوا هذه القلوب، والتمسوا لها طرائف الحكمة؛ فإنها تَمَلُّ كما تمل الأبدان».

يقول ابن الجوزي رحمه الله: «ولقد رأيت الإنسان قد حُمِّلَ من التكاليف أموراً صعبة، ومِنْ أثقل ما حمل مداراة نفسه، وتكليفُهَا الصبر عما تحب وعلى ما تكره؛ فرأيت الصواب قطع طريق الصبر

بالتسلية والتلطف للنفس». وبمثل هذا تحدث أبوالوفاء بن عقيل فقال: «العاقل إذا خلا بزوجاته وإمائه لاعَبَ ومازح وهازل، يعطي للزوجة والنفس حقهما، وإن خلا بأطفاله، خَرَج في صورة طفل وهجر الجد في بعض الوقت».

هذه بعض الشذرات عباد الله حول مفهوم اللهو والتسلية والترويح، نؤكِّد من خلاله أن الإسلام قد عُنِيَ بهذا الجانب حق العناية، غير أننا نود أن نبين هنا وجه الهوة بين مفهوم الإسلام للترويح والتسلية، وبين اللهو والمرح في عصرنا الحاضر، والذي هو بطبيعته يحتاج إلى دراسات موسَّعة تقتنص الهدف للوصول إلى طريقة مُثلى؛ للإفادة منها في الإطار المشروع، فينبغي دراسة الأنشطة الترويحية الإيجابية منها والسلبية، والربط بينها وبين الخلفية الشرعية والاجتماعية للطبقة الممارسة لهذا النشاط، ومدى الإفادة من الترويح والإبداع في الوصول إلى ما يقرِّب المصالح ولا يبعدها، وما يرضي الله ولا يسخطه، وتحليلِ الفعل وردود الفعل، بين معطيات المتطلَّبات الشرعية والاجتماعية، وبين متطلبات الرغبات الشخصية المشوَّهة، وأثر تلك المشاركات في إذكاء الطاقات والكفاءات الإنتاجية، العائدة للأُسَرِ والمجتمعات بالنفع في الدارين.

إن علينا جميعاً كمسلمين: أنْ نَشُدَّ عزائمنا لصيانتها ما أمكن، مِنْ أي ضياع في مرح أو لهو غير سليم، أو مما إثمه أكبر من نفعه، فلا ينبغي للمسلمين أن يطلقوا لأنفسهم العِنَانَ في الترويح، بحيث يزاحم آفاق العمل الجاد، واليقظة المستهدفة، ولا أن يشغل عن الواجبات، أو تضيع بسبب الانغماس فيه الفرائض والحقوق؛ إذْ ليست إباحة الترويح وسط ركام الجد إلا ضرباً من ضروب العون، وشحذ الهمة على تحمُّل أعباء الحق، والصبر على تكاليفه، والإحساسِ بأنَّ ما للجد أولى بالتقديم مما للهو والترويح، وبهذا يفهم قول النبي ﷺ لحنظلة بن عامر، وقد شكا إليه تخلُّل بعض أوقاته بشيء من الملاطفة للصبيان والنساء، فقال له ﷺ: «ولكن ساعة وساعة».

أما أن يصبح الترويح للنفس طابَعَ الحياة، في الغدو والآصال، والخلوة والجلوة، وهما أساساً من هموم المجتمعات في الحياة، فهو خروج به عن مقصده وطبيعته، واتجاهٌ بالحياة إلى العبث، والضياع. والإنسان الجاد عليه أن يجعل من اللهو والترويح له ولمن يعوله وقتاً ما، ويجعل للعمل والجد أوقاتاً لا العكس؛ لاسيما ونحن نعيش في عصر استهوتْ معظم النفوس فيه كل جديد وطريف، حتى صارت أكثر انجذاباً إلى احتضانِ واعتناقِ

ما هو وافِدٌ عليها في ميدان اللهو والمرح، ولا غرو في ذلك عباد الله، فإنَّ الاسترخاء الفكري، وهشاشة الضابط القيمي لدى البعض منا، هما أنسَبُ الأوقات لنفاذ الطرائف والبدائع إلى النفوس، وهنا تكمُنُ الخطورة، ويستفحل الداء؛ فاللهو المنفتح عباد الله، والذي لا يضبطُ بالقيود الواعية، إنه ولا شك يتهدَّد الأصالة الإسلامية، لتصبح سبهللاً بين خطرين:

أحدهما: خطرٌ في المفاهيم، إن كان هناك شيء من بعض المسابقات تدعى ثقافية، تقوم في الغالب على جمع للتضاد الفكري، أو تنمية الصراع الثقافي، أو تصديع الثوابت المعلوماتية لدى المسلمين، بقطع النظر عن التفسير المادي للتأريخ والحياة، أو على أقل تقدير الإكثار مِنْ طَرْحِ ما عِلْمُهُ لا يحتاج إليه الذكي، ولا يستفيد منه البليد.

والخطر الثاني عباد الله: تلك التي تعدُّ وسائل للترويح والتسلية، عبر القنوات المرئية، التي تنتج مفاهيم مضللة، عبر طرق جاذبة في الثقافات والشهوات، لاسترقاق الفكر من خلال فنون أو أساطير، أو عروض لما يفتن، أو للسحر والشعوذة وما شاكلها.

ونتاج الخطرين ولاشك تمزق خطير، متمثِّلٌ في سوء عشرة

زوجية، أو تباين أفراد أسرة إسلامية، ناهيكم عن القتل والخطف والانتحار، والتآمر والمخدرات والمسكرات، وهلمَّ جرًّا.

وما حال مَن يقع في مثل هذا الترويح، إلا كقول مَن يقول: وداوني بالتي كانت هي الداء، أو كما يتداوى شارب الخمر بالخمر، فلرُبَّ لهو بمرة واحدة، يقضي على برج مشيَّد من العلم والتعليم للنفس، ولله كم مِنْ لذَّة ساعة واحدة، أورثت حزناً طويلاً! ﴿ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩٥ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٥، ٩٦].

❊ ❊ ❊

الخطبة الثانية

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه.

أما بعــد:

فاتقوا الله أيها الناس، واعلموا أن شريعة الإسلام شريعة غرَّاء، جاءت بالتكامل والتوازن والتوسط، ففي حين أنَّ فيها إعطاءَ النفس حقَّها من الترويح والتسلية، فإن فيها كذلك ما يدل على أن منه النافع ومنه دون ذلك؛ فقد صحَّ عند النسائي وغيره أن النبي ﷺ قال: «كلُّ لهو باطل، غيرَ تأديبِ الرجلِ فرسَهُ، وملاعبتِهِ أهلَهُ، ورميِهِ بسهمه...» الحديث. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله معلِّقاً على هذا الحديث: «والباطل من الأعمال هنا، ما ليس فيه منفعة ولم يكن محرماً، فهذا يرخص فيه للنفوس التي لا تصبر على ما ينفع، وهذا الحق، في القدر الذي يحتاج إليه في الأوقات التي تقتضي ذلك، كالأعياد، والأعراس، وقدوم الغائب، ونحو ذلك» اهـ. ويقول ابن العربي رحمه الله عن هذا الحديث: «ليس مراده بقوله

«باطل» أي: أنه حرام، وإنما يريدُ به أنه عار من الثواب، وأنه للدنيا محض لا تعلُّق له بالآخرة، والمباح منه باق» اهـ. **هذا في اللهو المباح عباد الله.**

وأما اللهو المحرَّم، أو اللهو المباح الذي يفضي إلى محرَّم، فاستمعوا يا رعاكم الله، إلى كلام الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيحه» حيث يقول: «باب كلُّ لهوٍ باطلٌ إذا أشغله عن طاعة الله»، ويعلِّق الحافظ ابن حجر على هذا فيقول: «أي: كمن التهى بشيء من الأشياء مطلقاً، سواء كان مأذوناً في فعله أو منهيًّا عنه، كمن اشتغل بصلاة نافلة، أو بتلاوةٍ، أو ذِكْرٍ، أو تفكُّر في معاني القرآن مثلاً، حتى خرج وقت الصلاة المفروضة عمداً، فإنه يدخل تحت هذا الضابط، وإذا كان هذا في الأشياء المرغَّب فيها المطلوب فعلها، فكيف حال ما دونها؟!» اهـ.

فالحاصل أيها المسلمون: أن الترويح والفرح، ينبغي أن يخضعا للضوابط الشرعية، وألا يبغي بعضها على حدود الله، والله يقول: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ألا وإن من أراد أن يفرح فليكنْ فَرَحَ الأقوياء الأتقياء، وهو في نفس الوقت لا يزيغ ولا يبغي، بل يتَّقي الأهازيج والضجيج التي تقلق الذاكر، وتكسر قلب الشاكر.

ولله ما أحسَنَ كلاماً لأبي حامد الغزالي، يصف فيه الباغين في اللهو، العابِّين منه كما الهيم، دون رسم للحق أو رعاية للحدود، فقال في «إحيائه» عن مرحهم: «إنه من مشوِّشات القلب إلا في حق الأقوياء، فقد استخفُّوا عقولهم وأديانهم، من حيث لم يكن قصدهم إلا الرياء، والسمعة، وانتشار الصيت، فلم يكن لهم قصدٌ نافع، ولا تأديب نافذ؛ فلبسوا المرقَّعات، واتَّخذوا المتنزَّهات؛ فيظنون بأنفسهم خيراً ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ويعتقدون أن كل سوداء تمرة، فما أغزَرَ حماقةَ مَنْ لا يميز بين الشحم والورم؛ فإنَّ الله تعالى يبغض الشباب الفارغ، ولم يحملهم على ذلك إلا الشباب والفراغ». اهـ.

﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١].

اللهم، صَلِّ على محمد، وعلى آل محمد. . .

❊ ❊ ❊

خطبة الوداع «دروس وعِبَر»

الخطبة الأولى:

الحمد لله حمد الشاكرين، أحمده سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، خيرة خلقه، وخاتَمُ رسله، دعا إلى الله على بصيرة، فاستجاب لدعوته الراشدون، وتخلَّف عنها الأغرار والمخذولون، كان قدوةً صالحةً وأسوةً حسنة، فأكمَلَ الله به الدين، وأتمَّ به النعمة، ورضي لنا الإسلام ديناً، لم يَدَعْ شيئاً يُقرِّب إلى الله إلا دعا إليه، ولا شيئاً يبعد عنه إلا حذَّر منه، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الأتقياء البرَرَةِ الذين استجابوا له، وأَحْيَوْا سنَّته، وقَضَوْا بالحق وبه كانوا يعملون.

أما بعـــد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله سبحانه، فما ذلَّ مَن ارتدى بها، ولا خاب مَن جعلها وقاية بينه وبين سخط الله، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

أيها المسلمون، حُجَّاجَ بيت الله الحرام، لقد كانت مقاصد الحج في غابر الأزمان من الجاهلية الأولى، عبارة عن تجمعات

مكثَّفة، يكتنفها لوثةُ رجس الأصنام، والخمر والميسر والأنصاب والأزلام، يتناشدون هنالك الأشعار، ويفتخرون بالسلب والنهب، ووأدِ البنات إبَّان حياتهنَّ، وهم يعدُّون ذلك كلَّه من المكرمات، التي تهون دونها الحُرُمات، مواقفُ جاهلية، وخليطٌ ممزوج من الأضداد والمتناقضات، يظهرونها جلية آنذاك، في مثل سوق عُكَاظَ في شهر ذي القعدة نحواً من نصف الشهر، ثم يأتون بعد ذلك موضعاً دونه يُقال له: سوق مَجِنَّة، فيُقام فيه السوق إلى آخر الشهر، ثم يأتون موضعاً يُقال له: ذو المَجَاز، فيُقام فيه السوق إلى يوم التروية، ثم يصدرون إلى منى، ومِنْ ثَمَّ يختم أهل الجاهلية موسم الحج بما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: كان أهلُ الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم، ويحمل الحمالات، ويحمل الدِّيَات، ليس لهم ذكرٌ غير فعال آبائهم، فأنزل الله قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

حجاج بيت الله الحرام، حجة الوداع الكبرى للنبي ﷺ هي الحجة الأولى والأخيرةُ في الإسلام، حج فيها معه عشرات الألوف، بل قيل: إنهم مائةُ ألف حاجٍّ، من دون النساء والصبيان. والواقع عباد الله: أن هذا الجمع العظيم مع النبي ﷺ لم يَطِبْ له أن يَنْفَضَّ هكذا سُدىً، دونما كسبٍ للفرصة السانحة له ﷺ في تقرير ما يعد من

القواعد الكبرى في الإسلام، قد لا تكون برمَّتها جديدة على مَن كان معه، ولكن للتأكيد والتذكير دوره الذي لا يُهمل، كيف لا وهو قد لا يراهم بعد عامهم هذا مرةً أخرى يجتمع فيها مثلُ هذا الجمع العظيم؛ فكانت منه هذه الكلمات اليسيرات؛ جاء عند أبي داود، وابن ماجه، والبيهقي، وغيرهم؛ أن النبي ﷺ خطب الناس في يوم عرفة فقال: «إن دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم، كحرمةِ يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا إنَّ كلَّ شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإنَّ أول دمٍ أضعُ من دمائنا دمُ ابن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب ـ كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل ـ ورِبا الجاهلية موضوع، وأولُ رباً أضع ربانا، رِبا عباس بن عبدالمطلب؛ فإنه موضوعٌ كلُّه، فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهنَّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله، وإنَّ لكم عليهنَّ أنْ لا يوطئْنَ فرشكم أحداً تكرهونه، فإنْ فعلْنَ ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرِّح، ولهنَّ عليكم رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف، وإنِّي قد تركتُ فيكم ما لن تضلُّوا بعدي إن اعتصمتم به: كتابَ الله، وأنتم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغتَ رسالاتِ ربك، وأدَّيتَ ونصحْتَ لأمَّتك، وقضيتَ الذي عليك، فقال بإصبعه السبابةِ يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد، اللهم اشهد».

عباد الله، هذه الخطبةُ العظيمة، لا تستغرق دقائق معدودة، ولكنها في الوقت نفسه، أهمُّ من بيان يستغرق بضع ساعات، ولا غرو في ذلك؛ فصاحبها هو من أوتي جوامع الكلم، وأفصحُ من نطق بالضاد.

في هذه الخطبة عباد الله: يؤكد النبي ﷺ حتمية المخالفةِ لما كان عليه أهل الجاهلية، وبيانُ ذلك: أن مسمَّى الجاهلية يعني بداهةً أن يكون الأمر إسلاماً أوْ لاَ إسلام ألبتة؛ يقول الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، ويقول عز وجل: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]، قال البخاري في «صحيحه»: باب المعاصي من أمر الجاهلية. وذكر فيه قول النبي ﷺ لأبي ذرٍّ رضي الله عنه لما عيَّر رجلاً بأمه: «**إنك امرؤٌ فيك جاهلية**»، قال بعض شُرَّاح الحديث: إن كل معصيةٍ تؤخذ من ترك واجب أو فعل محرَّم، فهي من أخلاق الجاهلية.

لقد أكَّد رسول الله ﷺ مخالفة ما عليه أهل الجاهلية من الكتابيين والأميين، مما لا غِنىً للمسلم في أن ينبذها، وينأى بنفسه عن الوقوع في هوَّتها، والاصطلاء بأتُونها، كيف لا ورسول الله ﷺ يقول: «**ألا إنَّ كل شيء من أمور الجاهلية تحت قدمي موضوع**».

وفي خطبة الوداع عباد الله: يؤكِّد النبي ﷺ حُرمة المسلم

وحريَّته، وأنه لا يحلُّ دمه ولا ماله إلا بسبب يبيح ذلك، وإلا كان من الظلم المحرَّم، ولا جَرَم أن يكون ذلك؛ لأنه مقرون بحُرمة الأشهر الحُرُم، والمسجد الحرام. لكن بعض الجبارين من كافة الطبقات تحملهم قوّتهم على أن يجتاحوا الضعفاء، ويكبتوا حقوقهم المادية والشرعية، مما سبَّب اشتعالَ ثوراتٍ هائلةٍ في بعض المجتمعات؛ للثأر من الظَّلَمَة، فسالت الدِّماء، وهَلَكَ الأُلوف من الأبرياء.

وإن مما يُؤْسِفُ عباد الله: ما أصاب المسلمين في هذا العصر من حُمَّى التقليد والتَّبَعِيَّة العمياء، والتي بسببها شاعت الجرائم، وألغت بعض الدول حدود الله الشرعية، واكتفت بعقوباتٍ تافهة لا تُجْدِي شيئاً في حماية المجتمع المسلم، فانشغل المظلومون بِطَلَب الثأْر لمَن ينتمي إليهم أو ينتمون إليه، إلا أن النبي ﷺ قد حَسَمَ هذه الفوضى بشريعته العادلة فقال: «**ودماء الجاهلية موضوعة**».

وفي خطبة الوداع عباد الله: يُحَذِّر النبي ﷺ من أكل الربا، وإبطال ربا الجاهلية الذي أساسُهُ إمهالُ المُعْسِر مقابل ثمنٍ زائد، سواء كان يسيراً أو فاحشاً، وبالله كم للربا من ضحايا!! وكم خرب من بيوتات!! وكم جَلَبَ من مِحَن وبلايا!! ولو لم يكن إلا كونه حرباً لله ورسوله، لكفىٰ؛ كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ

﴿ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

أكل الرِبا عباد الله سِمَةٌ من سمات اليهود، والتي استحقُّوا عليها اللَّعنة الخالدة، ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١]؛ فليتق الله المرابون، وليعلموا خطورة ما هم عليه وسوء عاقبته، ألا فليعلموا أن أبواب الربا مغلقة شرعاً، وأن الذرائع المفضية إليه مسدودة؛ فلا تبيحها الحِيَلُ التي لا تخفىٰ على ربِّ البشر، وأيًّا كانت هذه الحيل، فلا يجوز فعلها، لاسيَّما في مرابحات الناس الاستهلاكية العامة، محليَّةً كانت أو دوليَّة، والتي يُخْدَع بها الرَّعَاع، ويُغَرَّر بها الذين ينشدون الكسب الحلال، فيوقعونهم في شر مما فروا منه، والنبي ﷺ يقول في الحديث الصحيح: «**لا ترتكبوا ما ارتكَبَ اليهودُ؛ فتستحلوا محارم الله بأدنى الحِيَل**» [رواه ابن بطة بسندٍ جيد].

وفي خطبة الوداع عباد الله: بيَّن النبي ﷺ قضية كبرىٰ من قضايا المسلمين، لم يفلحْ في التعامل معها أهلُ الجاهلية، بل كانوا وإياهم على طرفي نقيض، ألا وهي قضية المرأة، والتي تقاذفتها أهواء أهل الجاهلية يمنةً ويَسْرة، حتى جعلوا مصيرها الوَأْد وهي حيةٌ؛ خشيةَ الفاقة والعار، ولو تسامت عند بعضهم، فإنما هو لأجل الاحتطاب والسقي، وإبراد غُلَّةِ الشهوة، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم

بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

لقد أكرم الإسلام المرأة، وجعلها شقيقة الرجل، كما جَعَلَ القِوامةَ للرَّجُل عليها، وجَعَلَ لها نصف إرث أخيها، ونصفَ شهادة الرجل، ونصف دية الرجل.

وليس ذلك إهانةً لها، بل هو حد كمالها؛ فهي حاضنة الأطفال، ومربيةُ الأجيال، سمتها الحشمة والعفاف والقرارُ في البيوت، نائيةً بنفسها عن أن تكون علكاً ممضوغاً تحت ناب المغرضين، والذين يتسلَّلون إليها لواذاً، ليَجْتَثُّوا مُسَلَّمَاتِها، ويُشَكِّكوا في مقومَاتها الشرعية، ويَزُجُّوا بها خارج سِياج الشرع، ويعدُّوها مهضومة الحق مسروقة الكمال، في ظروف مدلهِمَّة، تسلبها الثقة بنفسها ومقوماتها، حتى تكاد تَئِدُ نفسها وهي حية، وذلك بِذَهَابِ حقيقتها التي أراد لها الشارعُ الحكيم.

ولهؤلاء وأمثالهم نقول: روى الإمام أحمد والترمذي، عن أم سلمة رضي الله عنها؛ أنها قالت: «يا رسولَ الله، يغزو الرجال، ولا تغزو النساء، ولنا نصف الميراث؟ فأنزل الله قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ﴾ [النساء: ٣٢]».

عباد الله، مع هذا التفضيلِ بين الرجل والمرأة، إلا أن لها

مِثْلَ الذي عليها بالمعروف، وقد قال عنها النبي ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً»، وقال: «خيارُكُمْ خياركم لنسائهم»، وجَعَلَ للأُم البرَّ ثلاثاً، وللأب مَرَّةً، وثبت عنه ﷺ أنه قيل له: يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: «أن تطعمها إذا طَعِمْتَ، وتكسوها إذا اكْتسيْتَ، ولا تضربِ الوجه، ولا تقبِّحْ، ولا تهجُرْ إلا في البيت».

اللهم، أصلحْ لنا ديننا الذي هو عِصْمَةُ أمرنا، وأصلحْ لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلحْ لنا آخرتنا التي إليها معادنا، ولا تجعلِ الحق ملتبساً علينا فنضل، برحمتك يا أرحم الراحمين، ونستغفرك اللهم إنك كنت غفَّاراً.

❊ ❊ ❊

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً مباركاً فيه كما يُحِبُّ ربُّنا ويَرضىٰ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلَّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعــد:

فاتقوا الله معاشر المسلمين، واعلموا أن آخر ما وصَّىٰ به رسولنا ﷺ في حجَّة الوداع: أن نعتصمَ بكتاب الله جلَّ وعلا، والذي بَيَّنَتْهُ وفَسَّرَتْهُ سُنته ﷺ؛ إذْ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]؛ فكتاب الله جلَّ وعلا بمثابة الروح للحياة، والنور للهداية، فمَنْ لم يعتصمْ به ما هو بحي وإن تكلَّم أو عمل، أو غدا أو راح، بل هو ميِّت، ومَن لم يؤمنْ به ضلَّ وما اهتدىٰ؛ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

لقد قَصَّر جمع من المسلمين مع كتاب الله حتى جعلوا بِرَّهم به في إتقان مخارجِ حروفه فحسب، أو ترديدِهِ في المآتم وتعليقه في المجالس وسؤالِ المال والجاه به.

يقول الفاروق رضي الله عنه: «يا أيها الناس، إنه أتى عليَّ

حينٌ وأنا أحسبُ أنه مَن قَرَأَ القرآن أنه إنما يريد به الله وما عنده، ألا وقد قيل لي: إن أقواماً يقرأون القرآن يريدون به ما عند الناس؛ ألا فأريدوا الله بقراءتكم، وأريدوه بأعمالكم».

قال الحسن البصري: «أُنْزِلَ القرآنُ ليُتَدَبَّر ويُعْمَلَ به؛ فاتَّخِذُوا تلاوته عملاً».

فواأسفا عباد الله، كيف يهجُرُ بعضنا كتاب الله؟! كيف لا يعملون به؟! كيف لا يُحَكِّمونه في شؤونهم؟! كيف قصروا حياتهم في تلاوته دون العمل به؛ يقول الله جلَّ وعلا: ﴿۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]؛ يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتَبَنَا الله بهذه الآية إلا أربعُ سنين».

اللهمَّ، اجعل القرآن العظيمَ ربيعَ قلوبنا، ونورَ صدورنا، وجلاءَ أحزاننا، اللهمَّ، اجعلنا ممَّن يحلِّل حلاله، ويحرِّم حرامه، ويعمل بمحكمهِ، ويؤمن بمتشابهه، ويتلوه حقَّ تلاوته على الوجه الذي يرضيك عنَّا.

اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد...

❊ ❊ ❊

لماذا كسِّرت الأصنام؟

الخطبة الأولى:

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعـــد:

فيا أيها الناس، منذ غابر الأزمان وقبل نبوّة المصطفى ﷺ، كان الناسُ على هذه البسيطة في جاهليةٍ جهلاءَ إبانَّ فترة من الرسل، قد انقطع الناس فيها عن المددِ الروحي والنورِ الإلهي، فلأجل ذلك اعترتهم ظلماتُ العقائد والقوانين والأنفس، ظلماتٌ لا يجد فيها الحاذقُ بصيصَ نورٍ يهتدي به إلى هداية، أو يَخْلُصُ به من ضلالةٍ وينجو من غواية، بل هي ظلماتٌ بعضها فوق بعض،

ظلماتٌ أودَتْ بذويها إلى أن يتخبَّطوا في مهامه الحياة ودروبها خبط العشواء، ظلماتٌ جعلت من عقولِ مشتمليها ودينهم أن يصنعوا معبوداتِهم بأيديهم، فنحتوا ما يعبدون واللهُ خلقهم وما يعملون، حتى عَمُوا وصَمُّوا، وضَلُّوا وغَوُوا، ثم انحط غيُّهم فعبدوا الأشجار والأحجار، والستائرَ المنصوبة، والتماثيلَ التي كانوا لها عاكفين، لقد أغراهم بذلك: غيبةُ إنسانيتهم، وإفلاسُ عقولهم بعد طيشها، حتى انتحرت فطرتُهم، وبَقُوا هواءً في جثمان إنس.

يقول حبر الأُمة ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما متحدِّثاً عن هذه الحقبة من الزمن: «صارت الأوثانُ التي في قوم نوحٍ في العربِ بعد؛ أما وَدّ: فكانت لكلبٍ بدومة الجندل، وأما سُوَاع: فكانت لِهُذَيْل، وأما يغوث: فكانت لمراد، ثم لبني غُطيفٍ في الجرف عند سبأ، وأما يعوق: فكانت لِهَمْدان، وأما نسر: فكانت لحمير لآلِ ذي الكُلاَع، أسماءُ رجالٍ صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم أنصاباً، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك، وتنسَّخ العلم، عُبِدَت» [رواه البخاري].

عباد الله، لقد كانت العربُ قبل هذا الأمرِ على ملةِ إبراهيمَ الخليلِ عليه السلام، فما فتيء الزمان يدور، حتى قلَّ العلمُ، وهلك

العلماء؛ لتحلَّ الأصنامُ بين العرب من جديد، وتتبدَّل ملةُ إبراهيمَ عليه السلام وتتنسَّخ، وقد كان الذي تولى كبرَ هذه الشِّقوةِ والمعرَّة أبوخزاعةَ عمرُو بنُ لُحَيٍّ؛ فهو الذي سيَّب السوائب، وعبَّد الأصنام، وقد رآه النبي ﷺ في صلاة الكسوف يجر أمعاءه في النار؛ لأنه أوَّلُ من سيَّب السوائب، وبدَّل دينَ إبراهيمَ عليه السلام [رواه مسلم في صحيحه].

يقول ابنُ كثيرٍ رحمه الله: كان عمرو بن لُحَيٍّ أولَ مَن غيَّر دينَ إبراهيمَ الخليل، فأدخل الأصنام إلى الحجاز، ودعا الرَّعَاع من الناس إلى عبادتها والتقرُّب بها.

أيها المسلمون، إنما خلق الله الثقلينِ الجنَّ والإنسَ ليعبدَ وحده في الأرض، وأرسَلَ رسوله ﷺ بالشريعة الغرَّاء، محاطةً بقواعدَ قرَّرها الشارع الحكيم، متمثلةً في ضروراتٍ خمس، أجمعت الأنبياءُ والرسلُ قاطبةً على حفظها ورعايتها، وهي: الدين، والنفس، والمال، والعرض، والعقل، فكلُّ مفسدةٍ يخشى أن تؤتى من قبل ضرورةٍ من هذه الضرورات، فإنه يجب درؤها، ودفعها أولى من رفعها، وكان على المتسبِّب فيها من الإثم والوزر، الذي يتجدَّد عليه بانتشارها، ويتوالىٰ تراكمه في صحيفة أعماله ـ إبان حياته وبعد مماته ـ كمثل ما على عَمْرِو بن لحي حين أدخل الأصنام، وبدَّل دينَ إبراهيم، وعلى رأس هذه الضروراتِ الخمس:

ضرورةُ الدين والعقيدةِ وتوحيد الله.

لقد أضاء النبي ﷺ الطريق، وأوضح السبيل، وطهَّر الله به جزيرةَ العرب من رجسِ الوثنية، وهيمنة الأصنام والتماثيل، وكان كبير هذه الأصنام هُبَل، وهو بأعلى مكة، وحوله ثلاثُمائةٍ وستون صنماً كُلُّها من الحجارة، فطعن فيها المصطفى ﷺ بيده الشريفة حين دخولِهِ الكعبةَ يوم الفتح، وهو يردِّد قول الله: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، يقول القرطبيُّ رحمه الله في تفسير هذه الآية: فيها دليلٌ على كسر نُصُبِ المشركين وجميع الأوثان إذا غُلِبَ عليها. قال ابنُ المنذر: وفي معنى الأصنام: الصورُ المتخذةُ من الدُّرِّ والخشبِ وشبهِها.

عباد الله، لقد حطم رسولُ الله ﷺ الأصنامَ حول الكعبة، وبعضُ الصحابة كان يردِّد: يا عُزَّ! كُفْرَانَكِ لا غفرانَكِ، إنِّي رأيتُ اللهَ قد أهانَكِ، ويبعث رسول الله ﷺ سراياه إلى الأصنام التي كانت حول مكة، ونادى مناديه بمكةَ قائلاً: «مَنْ كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر، فلا يدعْ في بيته صنماً إلا كسره»؛ فيبعث رسول الله ﷺ خالدَ بنَ الوليد إلى العزى ليهدمها، فهدمها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فقال: «هل رأيت شيئاً؟ قال: لا. قال: فإنك لم تهدمها فارجعْ إليها، فاهدمها، فرجع خالد وهو متغيِّظ فجرَّد سيفه، فخرجت إليه امرأةٌ عجوز، عُريانة سوداء، ناشرةَ الرأس، فجعل

السادِنُ يصيح بها، فضربها خالدٌ فجزلها باثنتين، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «**نعَمْ، تلك العزّى! وقد أَيِسَتْ أن تعبد في بلادكم أبداً**» [رواه النسائي].

ثم بعث رسول الله ﷺ عَمْرَو بنَ العاص إلى سُوَاع، وهو صنم لهذيل، فاعترضه السادن فقال: لا تستطيعُ أن تقتله؛ فإنك ستمنعُ منه، فدنا منه رضي الله عنه فكسره، فأسلَمَ السادن بعد ذلك.

ثم بعث رسولُ الله ﷺ سعيدَ بنَ زيدٍ إلى مَنَاةَ، فهدمها، ولما أراد النبي ﷺ المسير إلى الطائف، بعث الطفيلَ بنَ عمرٍو إلى ذي الكَفَّيْنِ ليهدمه فهدمه، وجعل يحشي النار في وجهه ويحرقه ويقول: يا ذا الكَفَّيْنِ لستُ مِنْ عبادِكَا، مِيلادُنَا أقدَمُ مِنْ ميلادِكَا، إنِّي حَشَشْتُ النار في فؤادِكَا، ثم بعث النبي ﷺ عليَّ بنَ أبي طالبٍ إلى الفُلْسِ: وهو صنم لطيِّئٍ، فهدمه هو ومن معه؛ كما بعث جريرَ ابنَ عبدالله البجلي في سريةٍ لكسر صنم ذي الخَلَصَةِ باليمن.

بهذا كله عباد الله: يجدِّد رسولُ الله ﷺ ملةَ إبراهيمَ وإخوانِهِ الأنبياءِ؛ فلقد قال إبراهيم سائلاً ربه: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وقال لقومه: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، ويجِّدد النبي ﷺ فعلَ موسى مع السامري حين قال: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ

﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧].

أيها المسلمون، لقد كانت مواقف النبي ﷺ من الأصنام والتماثيل بارزةً لِلعيان قولاً وفعلاً، بل إنه لم يقتصرْ كسرُهُ للأصنام على ما عُبِدَ من دون الله، أو على ما عُظِّمَ كتعظيم الله فحسب، بل تعدَّاه إلى التماثيلِ التي تتخذُ في البيوت ونحوِها على هيئة الاقتناء والزينة ولو لم تُعْبَدْ؛ فقد جاء عند أبي داودَ والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أتاني جبريلُ فقال: إنِّي كنت أتيتُكَ البارحة، فلم يمنعني أن أكونَ دَخَلْتُ عليك البيتَ الذي كنتَ فيه إلا أنه على بابِ البيت تماثيل...**» الحديث. وفيه: أن جبريلَ أمره برؤوس التماثيل أن تُقطعَ؛ فتُصيَّر كهيئةِ الشجرة. ومعلوم عباد الله أنه لا يقول عاقلٌ ألبتة: إن النبي ﷺ قد اتخذ هذه التماثيل للعبادة أو للتعظيم، وإنما كان لمجرد الاقتناء، كيف لا وقد سأله عمرو بنُ عَبَسَةَ فقال: بأي شيء أرسلك الله، قال: «**أرسلني بصلةِ الأرحام، وكَسْرِ الأوثان، وأن يوحَّدَ اللهُ ولا يُشْرَكَ به شيء**» [رواه مسلم].

عباد الله، بمثل فعل النبي ﷺ هذا، وفعل الأنبياء من قبله، سار الصحابةُ الكرامُ وأئمةُ الدين؛ فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي الهَيَّاج الأسدي، قال: قال لي علي رضي الله عنه: «**ألا أبعثُكَ على ما بعثني عليه رسولُ الله ﷺ؟ أنْ لا تدَعْ تمثالاً إلا طمستَهُ،**

ولا قبراً مشرِفاً إلا سوَّيته»؛ والمقرَّر عند أهل العلم: أن كلمة «تمثال» هنا نكرة في سياق النهي، فتعم كلَّ تمثال، أيًّا كان نوعه، سواء كان للعبادة أو لمجرد الاتخاذ والاقتناء، وذكر ابن إسحاق في «مغازيه» عن أبي العالية قال: «لما فتحنا تُسْتَرَ، وجدنا في بيتِ مال الهرمزان سريراً عليه رجل مَيِّتٌ، عند رأسه مصحف له، فأخذناه فحملناه إلى عمرَ رضي الله عنه... إلى أن قال: فماذا صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا له بالنهارِ ثلاثةَ عشر قبراً متفرقةً، فلما كان الليلُ دفنَّاه وسوينا القبورَ كلَّها لنُعمِّيَهُ على الناس لا ينبشونه. فقال رجل: وما يرجون منه؟ قال: كان يُقال: إن السماءَ إذا حُبِسَتْ عنهم، برزوا سريرَهُ فيُمْطَرُون.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ معلِّقاً على هذه القصة: «ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصارُ رضي الله عنهم من تعميةِ قبره لئلا يفتتَنَ به، ولم يُبْرِزوه للدعاء عنده أو التبرُّك به، ولو ظفر به المتأخِّرون، لجالدوا عليه بالسيوف». اهـ.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر: أن ابنَ سعدٍ روى بسند صحيح؛ أن عمر رضي الله عنه: بلغه أن قوماً يأتون شجرةَ بيعةِ الرضوانِ فيصلُّون عندها، فتوعَّدهم، ثم أمر بقطعها فقطعت.

هكذا كانت مواقف النبي ﷺ وأصحابهِ في حماية جناب التوحيد، وسدِّ الذرائع المفضية إلى الشركِ بالله؛ لأن البدعَ إذا

حدثت، وصارت صارفةً عن مقتضى القرآن والسُّنَّة، ولُفِّقَتْ لها شُبَهٌ، ورتِّبَ لها كلامٌ مؤلف، صارت تلك البدعُ بحكم الواقع من المسلَّمات التي لا يمكن درؤها إلا بعد لأْيٍ وشدائد.

ويدل لذلك: ما نقله الحافظُ ابنُ حجر، عن الفاكهي وغيره، عن عبيد الله قال: «أول ما حدثتِ الأصنام على عهد نوح، وكانت الأبناءُ تَبَرُّ الآباء، فمات رجل منهم، فَجزِعَ ولدُهُ عليه، فجعل لا يصبر عنه، فاتخذ مثالاً على صورته، فكلَّما اشتاق له، نظر إليه، ثم مات فَفُعِل به كما فَعَل، ثم تتابعوا على ذلك، فمات الآباءُ فقال الأبناء: ما اتخذ هذه آباؤنا إلا أنها كانت آلهَتَهم فعبدوها».

وبعد أيها المسلمون: لقائلٍ أن يقول مستفهماً: هل يعقل في أزمنة الحضارة الماديَّة، والثقافات العولمية، ودائرةِ الأقلام السيَّالة، أن تتسرَّب لوثةُ عبادةِ الأصنام وتعظِيمِهَا إلى مجتمعاتها المعاصرة؟

فالجواب: نعم، ولا عجب من ذلك إذا تنسَّخ العلمُ، وضعُف الدين في النفوس، ولا أدلَّ على ذلك من وجود معبودات في هذا العصر، منها ماهو على هيئة نُصُب، ومنها ما هو على هيئة حيوانٍ أعجم، وليس ذلك بخافٍ على كل ذي لُبٍّ ونظر.

ثم إن الجاهليين الأولين كانت لهم عقول مثل عقولنا، وأجساد كأجسادنا، ولهم لسان فصيح، وسياداتٌ بين العرب،

وجميعهم يقرُّون أن الخالَق والرازِقَ والمدبِّر هو اللهُ وحده، ومع ذلك عبدوا الأصنام وعظَّموها، وإلا لما دعا إبراهيمُ ربَّه أن يجنِّبه وبنيه عبادةَ الأصنام.

ولتأكيد هذا القولِ عبادَ الله: فإنَّ النبي ﷺ قد خاف من دبيبِ هذه اللوثةِ على أمته، بل لقد بيَّن أن هذه اللوثةَ ستُطيحُ ببعض الناس في آخر الزمان؛ فقد روى أبوداود في «سننه» أن النبي ﷺ قال: «**لا تقومُ الساعة حتى تَعْبُدَ قبائلُ من أمتي الأوثان**»؛ بل جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لا تقومُ الساعةُ حتى تضطربَ أَلْيَاتُ نساءِ دَوْسٍ على ذي الخَلَصَة**». وذو الخَلَصَة: صنمٌ معروف كسره جريرُ بنُ عبدالله البجلي لما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن؛ فدلَّ على أن الأمر سيعود بمثل ما كان.

إذاً هي الأيامُ يداولها الله بين الناس؛ فمن موحِّدٍ فيها، ومن مشرك، ومن خائف من مكر الله فيها، ومِنْ آمِن، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

وإلا فما سِرُّ تحذيرِ النبي ﷺ وكان قد أسَّس دولةَ التوحيد، ومحا الشركَ في عصره حيث يقول، وهو يعالجُ سكراتِ الموت في مرضِه الذي لم يقم منه: «**لَعَنَ اللهُ اليهودَ والنصارى، اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد**»، ثم خشي من تسلل هذا الداء بعد وفاته، فقال: «**اللهم، لا تجعَلْ قبري وثناً يُعْبَد**» [رواه مالك].

روى ابنُ جريرٍ، وابنُ أبي حاتِم؛ أن إبراهيمَ التيميَّ قال في قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. قال: «ومن يأمنُ البلاءَ بعد إبراهيم عليه السلام».

فلا يأمن الوقوعَ في لوثةِ الأصنام والتماثيل إلا مَن هو جاهلٌ بها، وبما يُخلِّصُ منها من العلم بالله، وبما بعث به رسولَه ﷺ من التوحيدِ الخالصِ، والنهي عن الشرك به.

يقول ابن القيم رحمه الله عن دور الشيطان في هذا الميدان: «ومازال الشيطان يوحي إلى عُبَّاد القبور بالبناء والعكوف عليها، ثم ينقلهم منه إلى دعائهم وعبادتهم واتخاذهم أوثاناً؛ تعلَّق عليهم القناديلُ والستور، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم إلى أن مَنْ نهى عن ذلك، فقد تنقَّص أهلَ هذهِ الرتبِ العاليةِ، وحطهم عن منزلتهم، وزعم أنه لا حرمةَ لهم ولا قدر، فيغضب المشركون، وتشمئزُّ قلوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]، وسرى ذلك في نفوس كثيرٍ من الجهال والطَّغَامِ وكثيرٍ ممن ينتسب إلى العلم والدين، حتى عادَوْا أهلَ التوحيد، ورمَوْهم بالعظائم، ونفَّروا الناس عنهم». اهـ.

ثم لتعلموا عباد الله: أن الصنم قد يطلق على الوثن كما قرَّر ذلك بعض أهلِ العلم، والوثن: هو كلُّ ماعبد من دون الله على أي

وجه كان، وقد نهى الله عن ذلك بقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، وقد قصَرَتْ مفاهيمُ بعضِ الناس معنى عبادة غير الله على مجرَّد عبادة الحجر أو الصنم، وهذا من فرط جهلهم بحقيقة هذه المسألة؛ إذْ ليس بلازم أن يكون الشرك بالله محصوراً عند الصنم والركوع والسجود له، بل لقد أوضح النبي ﷺ هذا الفهم القاصر، وذلك حين سمع عَدِيُّ بنُ حاتمٍ رسول الله ﷺ وهو يقرأ قول الله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، فقال عدي: إنا لسنا نعبدهم، قال: «**أليس يحرِّمون ما أحلَّ اللهُ فتحرمونه، ويُحِلُّون ماحرم اللهُ فتحلُّونه؟**» قال: بلى، قال: «**فتلك عبادتهم**» [رواه أحمد والترمذي وحسَّنه].

اللهم إنا نعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن، ونعوذ بك اللهم أن نشرك بك شيئاً ونحن نعلم، ونستغفرك مما لا نعلمُ؛ إنك كنت غفاراً.

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله حمد من يشكرُ النعمة ويخشى النقمة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبدُهُ ورسولُهُ معلِّمنا الكتابَ والحكمة، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه الأتقياء البررة.

أما بعـــد:

فاتقوا الله معاشر المسلمين، واعلموا أن لله الدينَ الخالص، وأن على كل مسلم ومسلمة تطهيرَ النفوس من الدواخل والشواغل، الصارفةِ عن أن يعبد اللهُ وحده في الأرض، كما أن علينا جميعاً الامتثالَ لأمر الله ورسولهِ ﷺ، وتقديمَهُمَا على أنفسِنَا أو الوالدَيْنِ والأقربين، وليحرصِ الناسُ جميعاً على تطهير مجتمعاتهم من رجس الأصنام والتماثيلِ قدر الطاقة، لاسيما مما يتكاثرُ انتشاره في البيوت من باب الزينة والاقتناء؛ لأن الملائكةَ لا تدخل البيت الذي فيه تمثالٌ أو صورة، وقد كان الفاروق رضي الله عنه إذا دعي إلى وليمةٍ، سأل الداعي إن كان في بيته شيء من التماثيلِ أو الصور، فإن قال: لا، أجاب دعوته.

ألا فإن درء المفاسد وسَدَّ الذرائع المفضيةِ إلى الشرك لأَمْرٌ

جلل ينبغي ألا يَغْفُلَ عنه المسلمون بعامة؛ فما قَطْعُ عمرَ لشجرةِ الرضوان إلا من هذا الباب.

ثم إنَّ اتخاذ التماثيلِ والأصنام، أو تعظيمَها وتعظيمَ الأضرحة، لهو أمرٌ حادثٌ في الإسلام، وإحداثه لم يكن متصلاً بأهل العلم والتقوى، وإنما هو من إدخالات ذوي الأهواء والجهالات، وذوي السلطة والغلبة؛ إذ في القرآن الكريم إشارةٌ إلى مثل هذا بقول الله تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

لقد استفحَلَ هذا الأمر في هذه العصور المتأخِّرة، حتى وقع بعضُهُمْ في شرك الربوبية والألوهية، فاعتقدوا في بعض أهلِ القبور، وصوَّروا لهم الأصنامَ والتماثيل، وزعموا أنهم يعلمون الغيب، ويجيبون من توجَّه إليهم، وأنَّ لهم القدرةَ على تفريج الكربات، وقضاءِ الحاجات، حتى صارتْ كالأنصابِ التي يتخذها مشركو العرب، فأقسموا بها واستشفَوْا واستنصروا ولاذوا، بل سيَّبوا لها السوائب، وساقوا إليها القرابين، بل ولربَّما جعلوها نُصُباً تذكاريًّا لعظيم، وجعلوا لها من الحرمة والعظمة وعقوبة الاعتداء عليها ما لا يجعلُ لمن اعتدى على دين الله أو سَبَّ الله ورسوله.

وقد تحدَّث ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقاً على غزوة النبي ﷺ للطائف، وهدمِهِ لصنم اللات، فقال: «وفي ذلك من الفوائد: أنه

لا يجوزُ إبقاءُ مواضعِ الشرك والطواغيتِ بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً، وكذا حكمُ الأضرحةِ والقبور التي اتخذتْ أوثاناً تعبدُ من دون الله، وكثيرٌ منها بمنزلةِ اللات والعزى ومناة، أو أعظمُ شركاً عندها وبها، فاتبعَ هؤلاءِ سَنَنَ مَنْ كان قبلهم وسلكوا سبيلهم حَذْوَ القُذَّةِ بالقذة، وغلب الشركُ على أكثر النفوس؛ لظهور الجهل وخفاءِ العلم، وصار المعروفُ منكراً والمنكرُ معروفاً، والسنةُ بدعةً، والبدعةُ سنةً، واشتدت غربةُ الإسلام، ولكنْ لا تزالُ طائفة من العصابة المحمدية بالحقِّ قائمين، إلى أن يرث اللهُ الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين». انتهى كلامه رحمه الله.

ألا فاتقوا الله معاشرَ المسلمين، واحرصوا على إقامة توحيد الله في الأرض؛ تفلحوا، ويتحقَّقْ لكم النصر والتمكين، ويجعلْ لكم العاقبةَ في الأولى والآخرة.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد...

❊ ❊ ❊

الأمة الإسلامية بين الواقع والمأمول

الخطبة الأولى:

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعـــد:

فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، مَنْ يُطِع الله ورسوله فقد رشد، ومَنْ يعص الله ورسوله فقد غوىٰ، ولا يضر إلاَّ نفسه، ولا يضرُّ الله شيئاً.

أيها الناس، المجتمعُ المسلمُ المتميِّزُ هو ذلكم المجتمع الذي تتحقَّق له ضروريَّاتُه وحاجياته وتحسينيَّاته، تحت ظلِّ الشريعة الغرَّاء التي لا ينغِّصها أزمةٌ ولا يعكِّرها ضيق، ذلكم المجتمع الذي يجد

حرمتَهُ مصونةً مكرَّمة، لا تُهْدَرُ تحت ناب سَبُع عَادٍ، ولا تُستباح بمخالب باغٍ متوحِّش، أو سطوةِ معتدٍ صائل.

هكذا يعيش المجتمع المسلم إذا كان في صورته المثلى، واستقراره المعهود.

غيرَ أنَّ أدنى اختلالٍ لما مضى، وإحلالِ الضدِّ محلَّه ـ من الاستخفاء وراء أسوارٍ من الصَّلَفِ والغطرسة والمقت لوحي الله وحَمَلته، وجَعْل سبيل الله موحِشةً لطول ما ترادف على سالكيها من أدواء وأعباءَ ـ هُوَ البابُ الحقيقيُّ للمثول أمام حاضرٍ كريه، ومستقبل مقلق؛ وحينئذٍ تزلّ القدم بعد ثبوتها، ويسبق الخصمُ إلى إذلالها وكبت حريتها.

إن الشعورَ العامَّ بين الناس ليحكي بأن العالم اليوم قد قطع مراحلَ شاسعةً في طريق التقدم الحضاري، والصعود المادي، فسارعتْ هممُ الناس تترا كالبارع الذكي، والنَّشِطِ المتوقِّد، في اللهث وراء التقدُّم الصناعي والحضاري ونحوهما، ولكنَّ هذا كلَّه كان على حساب إيجاد المرء الصالح التقي، والبارِّ الوفي، فتقدَّمت الصناعة، وتخلَّفت الروح، واستطالتِ المادة، واستكانَ الالتزام بالدين، حتى نشأ من هذا الضمور في الوعي تفاوتٌ مُقْلِق، كان سبباً ـ ولا شك ـ في اختلال سير القافلة المسلمة واعتلالها، وانعدام اتزانها وإبصارها الواعي بما تُقْبِل عليه وما تُحْجِم عنه، ثم يجتال القنوطُ آمالَ لفيف من العلماء والمفكِّرين بعد أن اعتلى جؤارهم من القحط الروحي الذي يسود أرجاءَ المسلمين بصورة لافتة.

إن التديُّن الحقيقي: هو الإيمانُ بالله، والشعورُ بخلافته في الأرض قلباً وقالباً، والتطلُّعُ إلى السيادة الشرعية التي اقتضتها هذه الخلافة، بيدَ أنَّ ذلك لا يتمُّ إلا بتطويع كلِّ ما جعله الله وسيلةً مشروعةً لتحقيق هذا المفهوم، وسْط دُنْيَا ينبغي أن يحكمها المجتمع المؤمنُ باسم الله، وعلى بركة الله وفضله، من خلال الحكمِ بما أنزل الله شريعةً ومنهاجاً، وإحياءِ شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتذليلِ السُّبُلِ في الدعوة إلى الله عز وجل، والجهادِ في سبيله وابتغاءِ مرضاته. وبمثل هذا يُقضى على الجفوة بين مفهومي الحضارة والإسلام، ويُرْأَبُ الصدع، وتُسَدُّ الثُّلْمة؛ لتصل سفينة المجتمع المسلم الماخرة إلى شاطئ العزِّ والتمكين.

كما أنه يجبُ أن يكون واضحاً جليًّا: تقريرُ أن الفضائل والعبادات التي شرعها الله لنا لا تعوق ازدهار الحياة وتقدُّمَها الماديَّ وَسْطَ المجتمعات المسلمة؛ لأن الإنسان عقلٌ وقلب، ومن يظنَّ أنَّ صحوة القلب لا تتمُّ إلا مع خمول الفكر وتهميش الدنيا من كلِّ جوانبها، فهو مخطئ خطأً فاحشاً، كما أنَّ مَنْ يظنَّ بأنَّ سيادة العقل وبلوغ الأرب في التقدُّم الماديِّ لا يتمُّ إلا بتنحية الإيمان بالله وفصلِهِ عن واقع الحياة، فهو مخطئ أيضاً خطيئةً كبيرة؛ ولذا فإن زكاة الروح قد تتمّ بدون جمال الجسد، وضمان الآخرة والتشمير لها قد يتمُّ بدون ضياع الدنيا وخسرانها، ولقد صدق الله: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ

﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

أيها المسلمون، إنه لا يشكُّ عاقلٌ ألبتة في أن تخلُّف المسلمين اليومَ عن الإمساك بزمامِ الأمور في الأرض كما كان أسلافهم، وفي الاتصاف بالتبعية والاستجداء مع ما يصاحبُ ذلك من قلقٍ متنامٍ، وتوجُّسٍ مكابد، وشعورٍ بأنهم وَسَطَ عنق زجاجةٍ يُصْعِدون فيها ولا يلوون على شيء، أنَّ ذلك كلَّه بسبب بُعدهم عن دينهم، وتنحية شرع الله عن الواقع، وخَفرِ العهود والمواثيق؛ كما قال النبي ﷺ لبعض المهاجرين محذِّراً: «**وما خَفَرُوا العهدَ إلا سلَّطَ اللهُ عليهم عدوًّا من غيرهم، فأخذوا بعضَ ما في أيديهم، وما لم يعملْ أئمتُهم بما أنزلَ الله في كتابه إلا جعلَ اللهُ بأسَهم بينهم**» [رواه البيهقي وابن ماجه].

ثم اعلموا ـ يا رعاكم الله ـ أن ثَمَّةَ سببين اثنين ينخران في جسد الأمة بِنَهَمٍ لتلحق بركاب القَعَدة العاجزين:

وأوَّلُ هذين السببين: هو اللَّهَث وراء التيَّارات الغربيَّة القائمة على فلسفة التفوُّق الماديِّ، والفكر التحرُّري، الذي لاقى رجعَ الصدى وسطَ الغوغاء من أبناء الأمة المسلمة، مُتْرَفِهم ومثقَّفِهم، بل وحتى مَنْ كان على فراش الإملاق منهم، إلى أن صاروا أُذناً وعيناً، ولساناً وقلماً لنهجهم وفكرهم، سياسةً وحضارة، وثقافةً وإعلاماً، فأصلحوا بإفساد، وداوَوْا بالطاعون، وتقدَّموا بالتأخُّر، فهُضِمَتْ حقوقُ المسلمين، واغتيلت مروءاتهم بتقليد أعمى، ولهثٍ بليد، فتحقَّق فيهم قولُ الرسول ﷺ: «**لتتبَّعُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم حذوَ القُذَّة**

بالقذَّة حتى لو دخلوا جُحْرَ ضبٍّ لدخلتموه»، قالوا: يا رسول الله، اليهودَ والنصارى؟ قال: «فمن؟» [رواه البخاري ومسلم].

وأيُّ تبعيةٍ أقبح من أن تشبَّه بدخول جُحْرِ الضَّبِّ المظلم مع ما فيه من ضيقٍ وقوارص، ألا إنَّ ذلك دليلٌ على التبعية مع عَصْبِ العينين على وجه الانتحار غيلة: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩]، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «ما أشبهَ الليلة بالبارحة! هؤلاءِ بنو إسرائيل شُبِّهنا بهم»، ويقول ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: «أنتم أشبهُ الأُممِ ببني إسرائيل سَمْتاً وهدياً، تتَّبعون عملَهُمْ حذوَ القُذَّة بالقذَّة، غيرَ أني لا أدري أتعبُدون العجلَ أم لا».

ثم إنَّ ثاني السببين ـ عباد الله ـ: هو ذلكم الجاثومُ الكابِت، الذي يعمل على تذويب الهُوِيَّةِ الإسلامية للأمة المسلمة وتميُّزِها، المتمثِّلِ في الاستعزاز بالإسلام وبما فرضه الله عليها من الولاء والبراء، والحبِّ في الله والبغضِ فيه، وجَعْلِ المسلمين بعامَّة خاضعين لمصالح مشتركة أيًّا كان نوعها، حتى ولو كانت خارجَ الإطار المشروع مادامتْ تصبُّ في مصالحَ دوليةٍ، وقوالبَ ماديَّة للأفراد والجماعات، فيجرُّها هذا الجاثومُ طوعاً أو كَرْهاً إلى فلَكها، عبرَ بنود يصعُبُ التراجُع عنها أو الإخلالُ بها، بناءً على ما تقتضيه مصلحةُ الفرد أو المجتمع من أعباء الحياة، التي يصبحون من خلالها في غير غِنًى عن الغرب ومادَّته

وفلسفته وسيادته.

وفي كلا السببين ـ عباد الله ـ تتضاءل إن لم تتلاشَ صلةُ المسلم بربِّه ودينه، وينحصرُ الأفراد والجماعات داخلَ بوتقةٍ من ضيق الأفق؛ فلا يرون فيها إلا مصالحهم الخاصة، ويندفع جهدُهم كلُّه وراء المنفعة العاجلة، بقطع النظر عمَّا يحكم ذلك من حلال أو حرام، والله جل وعلا يقول: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ولقد بايع جريرُ بنُ عبدالله البَجَلِيُّ رضي الله تعالى عنه النبيَّ ﷺ على أن ينصحَ لكلِّ مسلم، ويبرأ من الكافر. [رواه أحمد].

ومن هذا المفهوم ـ عباد الله ـ يوقنُ كلُّ منصف أنَّ أهلَ الكفر والإلحاد لم ينتصروا بقواهم الخاصَّة، قَدْرَ ما انتصروا بفراغ قلوب المسلمين، من خلال شهواتهم اليقظة، وإخلادِهم إلى الأرض، واتباع الهوى، والسُّعَارِ إلى اللذات والرغبات، وافتقارِ صفوفهم إلى ما يجمعها ولا يفرِّقها، وإلى ما تعتزُّ به من الدين لا ما تستحيي منه أو تخجل بسببه، ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ۝١٣ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٣، ١٤].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإيَّاكم بما فيه من الآياتِ والذِّكْرِ الحكيم، قد قلتُ ما قلتُ، إنْ صواباً فمن الله، وإن خطأً فمِنْ نفسي والشيطان، وأستغفرُ الله؛ إنه كان غفَّاراً.

الخطبة الثانية

الحمد لله وليِّ الصالحين، ذي الأسماء الحسنى والصفات العُلَىٰ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، صلى الله وسلَّم وبارَكَ عليه، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

أما بعــد:

فيا أيها الناس، إنَّ في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ما يكشف أسبابَ الانكسار، ويبرزُ دواعيَ الانشطار، الذي يصيب المسلمين بعامَّة بين الحين والآخر، ومثل هذا لا يعدُّ بدعاً في أُمم الإسلام دون غيرها من الأُمم؛ فقد بيَّن الله في محكم التنزيل ما يدلُّ على ناموسه وسننه في الناكصين والظلمة، والمتسلِّلين عن دينهم لواذاً في كلِّ زمان ومكان: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٢، ٥٣]، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

ومع هذا كلِّه: فإنَّ الباري جلَّ شأنه بَرٌّ بعباده، رحيمٌ بهم،

يمنُّ عليهم بفضله ورحمته، ويُسْبِغُ عليهم سِتْرَهُ ونعمتَهُ، ويصبِّحهم ويُمسِّيهم بالتوفيقِ والبركة في الحكم والرزق، غيرَ أنَّ كثيراً من المجتمعات قد تُحْسِنُ الأخذ ولا تحسن الشكر، تمرح بالنعم ولا تَقْدُرُ الله حقَّ قدره، ومثلُ هذا الاستغفال حين يبلغ مداه ـ إضافةً إلى الإصرار عليه، والإحساسِ بإمكانية الاستقلال دون تصحيح أو محاسبة نفس ـ فعندئذٍ تدقُّ قوارعُ الغضب أبوابَ الأمم، فتُظْلِمُ الوجوه بهزائم الدنيا، وتجرُّع الخوف فيها قبل حساب الآخرة ونكالها، والله جل وعلا لا يبدِّلُ أمنَ الأُمم قلقاً، ولا رخاءَها شدةً، ولا صحَّتها سقماً، ولا عزّها ذُلاًّ، من باب الظلم لهم أو التشفِّي بهم، كلا؛ فإنَّ الله واحدٌ لا يتغيَّر، ولكن الناسَ هم الذين يتغيَّرون، كما أن الله عادلٌ لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسَهم يظلمون؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

إن رياح التغيير ـ عباد الله ـ لا تَهُبُّ عليلةً دون كدرٍ أو قتر، كما أنها لا يمكن أن تهبَّ إلا مِنْ داخل صفِّ المسلمين أنفسهم، ومستقبلُ المسلمين لا يمكن أن يصنعَهُ مَنْ لا يخاف الله، ولا يؤمنُ بشرعته، بل لابدَّ أن يصنعَهُ المسلمون أنفسُهم انطلاقاً من شِرْعتهم الغرَّاء، وخارجاً عن إطار القوميَّات والإقليميات والعُبِّيَّات الجاهلية.

وإنَّ المسلمين متى ما أَرَوُا اللهَ من أنفسهم صدقاً في التصحيح، وعَلِمَ الله فيهم خيراً في حسن المقصد، وصدقِ اللجوء إليه، مهما كان الواقعُ الأليم الذي يعيشونه ويعانون فيه الأمرَّيْن، فإنَّ ذلك ليس بمانعهم أن يقلبَ الله كربَهم فرجاً، وتَرَحَهم فرحاً، يقول الله جل وعلا عن أسرى بدر من المشركين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠].

فالعودة إلى الله سببٌ في الفلاح، وسرٌّ في النجاح، غيرَ أن العودةَ لا يمكن أن تكون بمجرَّد شَقْشَقَةِ لسان، أو حركة بنان، أو بوعودٍ كاذبة في التصحيح والاستقامة فورَ انكشافِ الكربة وانقشاع الغياية؛ كلاَّ! فتلك وعودٌ كاذبة، لو انطلت على بعض البشر، فإنها لا تخفىٰ على ربِّ البشر؛ ولذلك أعقب الله حديثَهُ عن الأسرى بقوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧١].

فالحاصل ـ عباد الله ـ أنَّ استقامةَ المجتمع وفلاحَهُ ونجاحَهُ في سياسته العامة، وبلوغَهُ المكانة العالية، إنما تجيء من الحرص على التكامل وتهذيب النفوس من الوحشة والنفرة، بعد تحقيق الصلة بالله.

ولدى المسلمين في وقتهم الحاضر كنوزٌ مشحونة بمثل هذه

المعاني الغضَّةِ تسعُ أهلَ الأرض جميعاً لو قُسِّمَتْ بينهم، ولكنهم عن ذلك ذاهلون، وفي نيل الغاية السامية مفرِّطون، ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝٩٢ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [النمل: ٩١-٩٣].

اللهم، صَلِّ على محمد وعلى آل محمد؛ كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد؛ كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد.

اللهم، أَعِزَّ الإسلام والمسلمين، وأَذِلَّ الشرك والمشركين. . .

❋ ❋ ❋

الثبات في الفتن

الخطبة الأولى:

الحمد لله الرحيم الرحمن، علَّم القرآن، خَلَقَ الإنسان، علَّمه البيان، له مقاليدُ السمٰواتِ والأرض، سبحانه كلَّ يوم هو في شان، وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، سيدُ ولد آدم أجمع، وخيْرُ مَنْ صلَّى ورَكَع، وأبلغُ مَنْ دعا إلى الله فأسمع، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الأتقياء البرَرَة، ورضي عنهم وعن التابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس بتقوى الله سبحانه، والتوكُّل عليه، والاستعانةِ به، والاعتمادِ عليه، والتذلُّلِ بين يديه، فبذلك تكون الرفعة، وتحصُلُ المِنَّة، وتنال الدرجة، وتكونُ العاقبة المحمودة في الأولى والآخرة، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

أيها الناس، إنَّ المترقِّب في مجموع العالَمِ اليوم، بقَضِّه وقضيضه، والذي يُلْقِي بثاقب نَظَرِه صَوْبَ الفُلُكِ الماخرة، وسط زوابعَ يموجُ بعضها في بعض، ونوازلَ تتلاطمُ كموجٍ مِنْ فوقه موجٌ من فوقه سحاب؛ - لَيُوقِنُ من خلال سَبْرِهِ للأحداث العامَّة،

والمُدْلَهِمَّات المتكاثِرة، على كافَّةِ مناحي الحياة بلا استثناء، نعم إنه ليوقِنُ: أن مبدأً ما من المبادئ، أو حركةً ما من الحركات، أو دعوةً ما من الدعوات المنبثقة هنا وهناك، يمكن أن تكبح جِمَاحَ المظالمِ بشتَّىٰ صورِها، مهما زُوِّقَتْ وزُيِّفَ للناس مفادها، أو أن تسدَّ ثُلْمة المجتمعات الشارخة، دون أن يكون ذلك كلُّه من خلال الإسلام، وروح الإسلام، وشريعة الإسلام. مَنْ يفهم خلاف ذلك، فهو شاذ برمَّته، إما أنه مريضٌ خرَّاص، أو عِرْقٌ دخيل دسَّاس، لا يعوَّل على مِثْلِه ولا يوثقُ به.

إن الإسلام في صميمه ـ عبادَ الله ـ شريعةٌ حرة، قد حرَّرت العباد من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد، ودلَّت على أن العِزَّة مرهونة بها، والهوان والدون نتيجةٌ للنأي عنها، يبدأ ذلك جليًّا من ضمير الفرد، وينتهي في محيط ضمير المجتمعات بأسْرِها.

ومهما يكن الأمر: فإنَّ الإسلام لا يمكن أن يعمر قلباً بحلاوته، ثم هو يدعه مستسلماً، خاضعاً لسلطان في الأرض غير سلطان الواحد القهَّار، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وتلك لعَمْرُ ربِّي، هي صِبْغَةُ الله ومَنْ أحسن مِن الله صِبْغَة؟!

إننا أيها المسلمون، إذا ما رأينا المظالمَ تقعُ على الأرض حثيثة، وإذا ما سمعنا المنكوبين، وذوي الديار المغتَصَبة،

والأراضي المتخطَفة، يَئِنُّون ويصرخون، ويُهْرَعون ويتوجَّعون، حتى تلامس صيحاتُهُمْ أَسماعَ أمةِ الإسلام، غير أنها لم تلامسْ أسماعَ نَخْوةِ أمةٍ حاضرة، تهبُّ لرفع ما نزل، ودَفْعِ ما قد يقع، فلنا حينئذٍ أن تساوِرنَا الشكوك جميعاً تجاه خللٍ ما، هو السرُّ الكامن في وجود هذا الوهن العظيم، وسكونِ من له حق، وحراكِ مَنْ لا حقَّ له، والذي من خلاله فُتَّ عضدُ الأمة، ونكئت جراحها، وجُعِلَتْ شَذَر مَذَر، ولا جرم أن من استطبَّ لواقعه فلن يعدم معرفة الداء ومحله.

نعم أيها المسلمون: النسيم قد لا يهبُّ عليلاً داخل المجتمعات المسلمة على الدوام، فقد يتعكَّر الجو، وقد تثور الزوابع، وتضطرم فُوَّهات البراكين، كما أن ارتقاب الراحة الكاملة إنما هو نوعُ وَهْمٍ وطَيْفٍ وتخيُّل، ومِن العقل والحكمة: توطينُ النفس على مواجهة بعض المضايقات على الإسلام والمسلمين، والاستعدادُ لتحملها، والوقوفُ بحزم أمامها، وتركُ إضاعة الأوقات في التعليق المرير عليها، والذي قد لا يَفْقَأُ عيناً، ولا يقتل صيداً.

ثم إن الفتن التي تعترض أُمَّة الإسلام حيناً بعد آخر، إنما هي في حقيقتها تمحيص وابتلاء، ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وقد شرع الله لنا أن نقابل ابتلاءه بالسرَّاء، بقوله عن سليمان: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠]، وكذلك أن

يكون موقفنا في الضرَّاء، مغايراً لما ذكره الله على وجه الذم بقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١]، وقوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت: ١٠].

إن غير المسلمين عباد الله: لن يرضَوْا عن أمة الإسلام إلا أن تترك دينها، وتبتعد عن شريعتها، أو لا أقلَّ مِن أن تتراجع، أو أن تقدِّم تنازلات قد لا تبقي من الإسلام إلا اسمه، وهذا أمر ينبغي ألا يختلف فيه اثنان، ولا يجادل فيه متفيهقان!! جاء عند أحمد وابن أبي شيبة، من حديث جابر رضي الله عنه؛ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه عليه، فغضب، وقال: **«لقد جئتكم بها بيضاءَ نقيَّةً، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحقٍّ فتكذِّبوا به، أو بباطلٍ فتصدِّقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وَسِعَهُ إلا أن يتَّبعني»**.

ومن هذا المنطلَق عباد الله: فإن المساومةَ على الانتماء للدين صورةً ومعنى، أو المساومةَ على الثوابت التي لا تقبل الخلافَ والجدل، والتي يخضع لها كلُّ زمن، وليست تخضع هي لكل زمن، إن المساومة على مثل هذا لهو خيانةٌ عظمَىٰ، وجنونٌ لا عقل معه، وإغماءٌ لا إفاقة فيه، إذْ شرف المرء وشرف المجتمع إنما هو في الانتساب إلى الإسلام، والعملِ به، والدعوةِ إليه،

والثباتِ عليه حتى الممات، فمن غيَّرته صروفُ الحياة أو هز كيانه خطوب وتداعيات، ورغبة أو رهبة، ثم زلَّت قدمه عن دينه بعد ثبوتها، فإنما هو مفرِّط ضائع، ناقضٌ بعد غزل، وحالٌّ بعد عقد، حتى يصبح فريسةَ الحَوْر بعد الكور، والذلِّ بعد العز؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥ ـ ٢٨].

فمن هنا عباد الله: جاءت شريعة الإسلام بالتحضيض على الثبات على الدين، والعضِّ عليه بالنواجذ حتى الممات، ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، وكان من دعاء النبي ﷺ قوله: «**اللهمَّ إذا أردت بالناس فتنةً، فاقبضني إليك غير مفتون**» [رواه مالك في الموطأ].

بل كان ﷺ يُحَدِّث عن المؤمنين ممن قبلنا فيقول: «**كان الرجلُ فيمنْ كان قبلكم يُحْفَرُ له في الأرض فيجعلُ فيه، فيجاء بالمنشار فيوضعُ على رأسه، فيشقُّ باثنتين وما يصدُّه ذلك عن دينه، ويُمْشَطُ بأمشاط الحديد، ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصدُّه ذلك عن دينه**» [رواه البخاري ومسلم].

فالعجب كل العجب عباد الله: ممن يعلم خطورة الركون إلى

غير الإسلام، أو ميل القلب أو العاطفة تجاه مَنْ هُمْ على غير ملة الإسلام، مهما كانت الظروفُ التي تحيط بالواقع، ودوافعُ الرغبة أو الرهبة الداعية إلى مثل هذا؛ فإنَّ هذا ـ وإن كان لا يعدُّ مسوِّغاً للميل إليهم، والخنوعِ لهم، وتحبيرِ الأقلام والأفهام لهم أو الانسياق خلفَ مطامعهم وتطلعاتهم، أو الاستجابةِ لدعواتهم المتكررة في لمز دين الإسلام وهمزه، أو التنازلِ عن بعض ثوابته وعماده، أو التشكيكِ المزوَّق في مناهج التعليم الشرعية، وثمارِ الصحوة المأتية ـ فإن الانسياق مع مثل هذا جرمٌ فاضح، وإحسانُ الحديث عنه زُورٌ وبهتان، وما محبُّو مثل هذا في عالمنا الإسلامي إلا كأنوف أزكمها غبار الافتتان، فاستوَتْ عندها الروائح، أو كجسومٍ تندَّتْ ولم ينزع مبلولها، فما هي إلا الحُمَّىٰ ما منها بد.

وإن تعجبوا عباد الله: فعجبٌ تلك الإفهامُ التي تحمل اسم الإسلام، وما يخطه بنانها وتلوكه ألسنتها غريبٌ كلَّ الغرابة عنه، يدفعهم إلى مثل هذا كونُهُمْ منهومي المال، مفتوني الجاه، أو راغبين شهوات مشبوهة، قد ركبت تركيباً مزجيًّا، يمنعهم من الصرف والعدل، وإنْ أُحْسِنَ الظنُّ بهؤلاء، فهم من صرعى الأفئدة المقلّدة، الذين لا يفرقون بين الثوابت والمتغيرات، أو ممن يضيفون المسبَّبات إلى غير أسبابها، ويستسمنون كل ذي ورم، ثم هم يَغْفُلُون عن حقيقة هذا وذاك، فلو سرق إنسان في المسجد، لَعَلَتْ صيحاتهم تدعو إلى هدم المساجد أو إغلاقها؛ لئلا تتكرَّر

السرقة زعموا، ولو أن امرأة محجبة غشَّتْ وخدعت، لتنادَوْا إلى نزع الحجاب، وبيانِ خطره، وأنه مظنَّة الغش والخِداع، فلا هم في الحقيقة قطعوا يد السارق، ولا عزَّروا تلك التي غشَّت وخدعت، وإنما دَعَوْا إلى هدم المسجد، ونزعِ الحجاب، وهذا هو سرُّ العجب، وهو ما يثير الدهشة حينما نرى مثَل هذا الفكر المقلوب، الذي لا صحيحَ فيه، إلا أنه غيرُ صحيح، وأحسَنُ ما فيه أنه غير حسن.

قَدِمَ أبوسفيان رضي الله عنه المدينةَ قبل أن يسلم، فدخل على ابنته أم حبيبة زوجِ النبيِّ ﷺ ورضي عنها، فلمَّا ذهب ليجلس على فراشِ رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنيَّةُ، ما أدري أرغبتِ بي عن هذا الفراش؟ أم رغبتِ به عني؟ قالت: بل هو فراشُ رسولِ الله ﷺ وأنتَ رجُلٌ مشرك نجس.

هكذا فَعَلَتْ أم المؤمنين رضي الله عنها في أبيها، بكلمة حَقٍّ خرقَتْ بها مثلاً عربيًّا مشهوراً: «كُلُّ فتاةٍ بأبيها مُعْجَبَهْ». وما فِعْلُهَا هذا عبادَ الله، إلا لأنَّ الإيمان لم يخامِرْ قلب أبيها، وكلمةُ التوحيد لم ينطقْ بها لسانه، ولم يكنْ لنسب الأبوَّة حقٌّ عندها في أن يلامس مجرد الفراش.

ألا إن رسالة المصطفى ﷺ كفراشه، فمَنْ أجلس عليه من ليس منه، أو طواه حياءً أو استجداء، فما رعى حق الله، ولا حق نبيه ﷺ، ولا حقَّ دينه وأمته.

ولأجل هذا، فمن البدهي قطعاً أنه لا يمكن أن نتصور نضجاً

إنسانيًا مع انقطاع الصلة بالله، وإضمار الكراهية لشريعته.

وما يشاع بين الفينة والأخرى ـ من أن ثمةَ أفكاراً ومستجدات، تضع إمكانية مقاطعة المرء المسلم لدينه، أو مجاملته بكلمات باهتة، أو مجرَّد التمسك بخيط واحد من حبله المتين، ثم هو يختط لنفسه طريقاً لا يعرف من خلاله المسجد، ولا يقيم وزناً لحدود الله ـ **لهو فكرٌ خطير الملمس**، يثير تساؤلات واسعة النطاق، من قبل الباحثين عن الحق! هل قضيةُ الإيمان بالله من السهولة بمكان، بحيث يستوي فيها النفي والإثبات، والأخذُ والترك، والشرك والتوحيد؟ هل هذه القضية من خفة الوزن بحيثُ لا يفرق فيها بين الثابت والمتغير، وبين العدل والجور، وبين الصدق والريبة؟ إننا لو سمعنا برجل ما يقول: إن الأرض مربَّعة، أو يزعم أن مياه البحار والمحيطات غايةٌ في العذوبة، فإننا ولا شك نزري بعقله، ونرميه بالجنون والسفه، فإذا كان الخطأ في فهم بعض الحقائق الدنيوية له هذا الوزن في الإنكار، فكيف بالخطأ الجسيم في الحقائق العلوية المتصلة بمن استوى على العرش ويعلم السر وأخفى، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

فيا ليت شعري! أين ذوو الأقلام النيِّرة، والأفهام السوية، يدلُّون الناس على ما يحفَظُ لهم دينهم، ويحصِّن كيانهم، ويزرع الثقة في مبادئهم وشريعتهم ومناهج تعليمهم، ويحذرونهم من

شرور المبغضين وحسد الحاسدين، ويقيمون لهم ميزانَ العدل في القول والعمل، فيرجعون عقلاء مميِّزين، يعرفون ما يأخذون وما يَذَرُونَ؟! فبلاد الإسلام مستهدفة، وثوابتُ الشريعة الغراء تواجه تضليلاً وتشكيكاً من خارجها وداخلها، بل وممَّن على أرضها ويتكلَّمون بلغتها.

وبلادُ الحرمَيْن الشريفين مَهْبِطُ الوحي، ومعقلُ الإسلام المعاصر، لم تسلَمْ براجمها من هذه الأوخاز حتى طالتها الاتهامات والهجمات، غير أنها بحمد الله، لن تكون علكاً ملتصقاً، يلوكه كلُّ مشكِّك في دينها وثوابتها، وصحوتها ومناهجها الشرعية، وصحوتُهَا من شبابٍ وكهول، إنما نهلوا تربيةً إسلامية غير معوجَّة، وأفكارهم وأطروحاتهم مبنيةٌ على ركائز العقيدة الصحيحة، والولاءِ لله والبراءِ فيه، وهم في ذلك ثمرةُ علمائها وشعبُ حُكَّامها، ولن يكون أهلها بإذن الله أبواقاً ينفخُ من خلالها المغرضون، ومطايا يمتطيها الحاقدون ضد هذه البلاد، ومناهجها الشرعية، وعقيدتها الراسخة، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولله الأمر من قبل ومن بعد، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، وأشهد أن لا إله إلا هو، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه.

وبعــد:

فإن لكل نظام من النُّظُمِ على أرض الواقع: فلسفتَهُ وفكرَهُ، وحله وعقده، وله حلوله الخاصة التي يواجه بها مشكلاته، بقطع النظر عن صحتها من سقمها، أو زينها من شينها، بَيْدَ أنه ليس من المنطق ولا من المعقول ـ فضلاً عن أنه ليس من الإنصاف جدلاً ـ أن تقحم الشريعة الغرَّاء متهمةً في مشكلات وتبعات، لم تُنْشِئها أمة الإسلام، وليست هي من بابتها، وإنما فجَّرتها نظمٌ وممارسات أجنبية عن أمة الإسلام، ثم تريدُ هي من أمة الإسلام أن تفكِّر بعقلها لا بالعقل الإسلامي، وأن تُحِسَّ بقلبها لا بالقلب الإسلامي.

ولكي نعمق الولاء للإسلام والبراء فيه، ونردم الوهدة التي تفصل الكثيرين عن ماضيهم ومجدهم الزاهر، والوقوفَ أمام كل نابتة تنبت في هذا الخِضَمِّ المائج، ولئلا تقدِّمَ الأمةُ تنازلات فكرية، أو عقدية أو تعليمية، غير مبرَّرة ولا مفهومة، بل هي من نسج الحاقد، واضحة النشوز في مسار الصحوة الفكري، ورفض التبعية والتغريب؛ إنه لأجل أن ندرك ذلك كلَّه، فلابد لنا أن نضع

الحقائق التالية نُصْبَ أعيننا:

أولها: أن عقيدتنا أيها المسلمون، أساسها التوحيدُ لله، والانقيادُ له بالطاعة، والخلوصُ من الشرك، وهيهاتَ هيهات أن يكون أي تجسيد عقدي سواه أرجَحَ منه وأولى بالقبول؛ ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وثانيها: أنه لا يمكن إدراك تضامن إسلامي ناجح بين أفراد ومجتمعات بعضها يبغض بعضاً، أو ينفِّر من بعض، أو يكره الإسلام، أو يرفض بعض تعاليمه في ساحات كثيرة أو قليلة.

وثالثها: أنه ينبغي لأي وحدة منشودة، أو تمازج مقترح في المصالح الشرعية، أو في درء المفاسد، أن يتفق في الوسيلة أو في الغاية، وفق الحَقِّ والشريعة، وإنَّ أي وحدة صف، أو أي هدف منشود، فإنه يعتبر وهماً مع هذا الخروج على المقرَّرات الإسلامية، والثوابت الشرعية.

ورابعها: أن التراجع والتخاذل بين المسلمين، إنما يجيء بالدرجة الأولى مِنْ داخل النفس، قبل أن يجيء مِنْ ضغوط مِنْ سواهم، ولسنا أول أمة ابتُلِيَتْ وفَرَضَ الله عليها أن تثبُتَ على دينها، وتكافحَ لأجل أن تحيا عزيزة شمَّاء.

وخامسها: أن تكون ثقافتنا المذاعة والمنشورة، قائمةً على

التقريب بيننا لا على المباعدة، وعلى الرتق لا الفتق، وعلى الاعتزاز لا الابتزاز، وعلى دعم القِيَم الدينية، وردِّ الشبهات التي تُثار حول أمة الإسلام ومناهجها، وعلى أن تكون دعوتُها لإحياءِ وحدة المسلمين، في أن تميت صيحات الجاهلية، وأن تُبْرِزَ العنوان الإسلامي وحده، أساساً للنهضة البنّاءة والفكر السوي، ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ [القلم: ٣٥ ـ ٣٨].

اللهم، صَلِّ على محمد وعلى آل محمد...

* * *

الغارة على المسلمين

الخطبة الأولى:

الحمد لله فالِقِ الحَبِّ والنَّوىٰ، مُخْرِجِ الحيِّ من الميت ومخرج الميت من الحي، عالِمِ كلِّ نجوى، وكاشِفِ كل بلوى، سبحانه يخلق ما يشاء ويختار، له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه المرجع والمآل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الكبيرُ المتعال، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، وخيرته من خلقه، بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهَدَ في الله حقَّ جهاده، فصلواتُ الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الأتقياء البرَرَة وعلى مَنْ سارَ على طريقهم واتَّبَعَ هداهم إلى يوم المعاد.

أما بعـد:

فيا أيها الناس، أوصيكم ونفسي بتقوى الله سبحانه، والاعتصامِ به، واللجوءِ إليه، فلا يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، ويجعلكم خلفاء الأرض إلا هو، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

أيها المسلمون، إن مقارنة سريعة يقوم بها أي امرئ عاقل، بين واقعِ الفرد المسلم اليوم، وبين واقع مثيله في صدر الإسلام الأول، لتُوَضِّحُ لنا بَوْناً شاسعاً بين الواقعين، دون بذل حدس أو كبير تأمل.

نعم أيها المسلمون قد نرى المسلم اليوم، أفخر ملبساً، أو أدسَمَ مطعماً، أو أرفَهَ مركباً، ولكنه من حيث الخصائصُ الروحية أقلُّ فؤاداً، وأضعفُ وازعاً، وقولوا مثل ذلك ـ عباد الله ـ في مقارنة مثيلة بين المجتمعات المسلمة في القديم والحديث؛ إذ أُمَّتنا في الصدر الأول كانت قائدةً لا منقادة، متبوعةً لا تابعة، دافعة لا مدفوعة، يدها هي اليد العليا وليست اليد السفلى، بل كانت أمةَ العدل والقسط والخيار، لها ألقابُ مَمْلَكة ودولة، قد وضعت موضعها، ولم تكنْ يوماً ما كَمِثْل سِنَّوْرٍ يحكي انتفاخاً صَوْلَة أسد هصور، أو كمثل جمل قد استنوَق، أو صُرَدٍ استنسَرَ.

كلا!! فلم يصلْ بها الحد إلى ضرب من ضروب قلب المعايير، أو الخلط واللَّبْسِ وعدمِ وضوح الهدف وإنزالِ الأمور منازلها؛ كما هو مصاب أمة الإسلام في هذا الزمن، الذي تحكي بعض مآسيه: بأن الرويبضة يجب أن يُلَقَّب بالعالِم، وسائقَ السيارة بالمهندس، والحلاقَ بالطبيب، والذي من أجله كثرت آلام أُمَّتنا المعاصرة، ونكئت جراحها حتى استُبِيحَتْ حُرُمَاتها؛ فتجرَّعت مجتمعاتها جراحها في صياصيها، وقُذِفَ في قلوب بنيها الرُّعب، وهي لا تكاد تسيغ ذلك، ويأتيها الموت من كل مكان، بل إنها تُدَعُّ إلى الاستكانة والاستجداء دَعًّا، وتُؤَزُّ من قبل أعداء الإسلام أَزًّا، إلى أن تعترف مُكْرَهة حيناً ومستسلمة حيناً آخر، بأن حقَّها باطل، وأن باطل غيرها حق؛ على تخوُّف ومضض.

والحقيقة أن هذا كله لم يكن بِدْعاً من الأمر، ولا كان طفرة بلا

مقدمات، وإنما هو ثمرةُ خَلَلٍ وفُتوق، وضرام وميض قد كان بادياً خلل الرماد، وسط ميدان الأُمة الإسلامية، بعد أن بُحَّتْ فيها أصوات الناصحين والمنذرين، غير أن أمة الإسلام لم تستبن النُّصْحَ إلا ضحى الغد، وهذا كله ـ عباد الله ـ ليس غريباً، وإنما الغريب كل الغرابة أن تضع الأمة كل أنواع الاستفهام في مسامعها حيناً بعد آخر، ثم هي لا تهتدي إلى السبب الرئيس لكل هذه البلايا، فصارتْ كالعيسِ في البيداءِ يقتلُهَا الظَّمَا، والماءُ فوق رؤوسها محمولُ، وهذا السبب الرئيس هو الذي ذكره الله جل وعلا في خمس كلماتٍ لا سادسةَ لهنَّ، لم ينسب الباري ولا في كلمة واحدة سَبَبَ الهوان إلى جيش أو معسكر، ولا إلى تحرُّف في قتال، وإنما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ألا وإن من المعلوم يقيناً: أن الله كتب على نفسه النصر لرسله وأوليائه؛ فقال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، غير أن هذا الوعد والعهد، لا يمكن أن يأتي هكذا جُزافاً، دونما قيد أو شرط، بل قد علَّق الله هذا النصر بالإيمان واستيفاء مقتضياته في كل مناحي الحياة، تشريعاً وسياسة واقتصاداً، وإعلاماً وتعليماً، دون فصل بعضها عن بعض، وهذه هي سُنَّة الله في النصر، وسُنَّته سبحانه لا تحابي أحداً ولا تصانعه، وحين تُقَصِّرُ الأمة وتُفَرِّطُ وتتخاذل، أو تأخذ من الإسلام ما تشاء وتُهَمِّش ما تشاء كيفما

اتفق، فإنما هي تدقُّ نواقيس الخطر على أعتابها، وتكشفُ أسقيتها لكل ناهب والغ، ثم هي الهزيمة ما منها بُدٌّ، ومِنْ ثَمَّ فإن على الأمة أن تتجرَّعَ النتيجةَ المُرَّةَ على شَرَق، وهي وإن كانتْ أمةً مسلمة في الأصل، إلا أن ذلك لا يقتضي خرق السُّنَن، وإبطالَ النواميس الإلهية، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٣].

أيها المسلمون، إننا في هذه الأيام العصيبة، نعيش وسط زوابع، يموج بعضها في بعض، وفي ثنايا نوازل، تتلاطم آحادها كموج بحر ﴿لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ [النور: ٤٠].

نعم، أيها المسلمون؛ فإن النسيم قد لا يهبُّ عليلاً داخل المجتمعات المسلمة على الدوام، فقد يعلو القَتَر، ويطغى الكَدَر، أو ترمق في سماء المجتمعات المسلمة غيايات فوَّهات البراكين المضطرمة، غير أن من العقل والحكمة توطينَ النفس على مواجهة بعض النوازل على أمة الإسلام، والتي تمثَّلت في تضييق الخِنَاق على الإسلام والمسلمين مِن قِبَلِ أعدائهم، بل والاستعدادَ النفسيَّ والحِسِّيَّ لمجابهة أصابعِ الاتهام وعباراتِ اللوم لديار المسلمين بعد كل حدث سانح.

إن علينا جميعاً أن نقف أمامها بشجاعة وإقدام، وقناعةٍ واعتزاز بهذا الدين القويم؛ كما أن علينا أيضاً ترك إضاعة الأوقات، في مجرد التعليق المرير عليها دون عمل جاد في رفعها أو دفعها بحزم وعزم؛ لأن مجرد التعليق لا يفقأ عيناً، ولا يقتلُ صيداً، فلا يصح أن تكون أمة

الإسلام أمام الغارة الكاسحة من اتهامات أهل الكفر كالرِّيشَةِ في مهب الريح، تتهاوىٰ بها في كل اتجاه، حتى تكون لقمة سائغة لتمرير قناعات التنازل عن أمور الدين، أو التخلِّي عن بعض ثوابته، أو التشكيكِ فيها، أو الاقتناع بإعادة النظر في هيكلة التربية والتنشئة والتعليم، التي أثمرتْ صحوةً مرضيَّة، ومعرفةً سويَّة لدى الجمهور من الناس؛ إنه لا ينبغي أن يكون ذلك لمجرَّد تهويش وتشويش يذكيهما الخوف والقلق من المصير، فيصدق فينا حينئذٍ قول ربنا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]، وقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]، **ولأجل هذا عباد الله، كان لزاماً علينا أن نحذر أمرين مهمَّيْنِ خطيرَيْن:**

أولهما: الحذر من الحملة المسعورة الشعواء، على أمتنا وحياضها، من خلال تشكيك الأعداء بسموِّ رسالتنا الإسلامية، أو الاستجابة لشيء من المساومة مع غير المسلمين في عقيدتنا ومناهجنا؛ لأن ذلك خيانةٌ عظمى، وجنونٌ لا عقل معه، وجرمٌ ما بعده جرم، فضلاً عن كونه نقضاً بعد غزل، وحَوْراً بعد كَوْر، يستحق صاحبه وصف الباري جلَّ شأنه لمثل هذا بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ

إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥ ـ ٢٨].

جاء عند أحمد وابن أبي شيبة، من حديث جابر رضي الله عنه؛ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبيَّ ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه، فغضب، وقال: «**لقد جئتكم بها بيضاء نقية...**» الحديث، إلى أن قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حيًّا، ما وسعه إلا أن يتبعني**».

فحذار حذار ـ عباد الله ـ من خطورة الركون إلى غير الإسلام، أو ميل العاطفة والقلب مع غير دين الله، أو التسلُّلِ لِواذاً عن شعار الإسلام ولُبِّهِ، مهما كانت الظروف التي تحيط بالواقع، ومهما كانت دوافع الرغبة أو الرهبة مائلةً إلى مثل هذا؛ فإن ذلك لا يعد مسوغاً للميل عن دين الله، أو التنازل عن بعض ثوابته وعماده؛ فقد صحَّ عن النبي ﷺ أنَّ مَن كان قبلنا يؤتىٰ له بالمناشير، ويقطع نصفَيْنِ؛ ما يصده ذلك عن دينه، وفي حادث أصحاب الأخدود قال كبيرهم: مَنْ رجَعَ عن دينه فدعوه، وإلا فأقحموه في النار، فجاءتِ امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعسَتْ أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أماه؛ فإنك على الحق.

أما الأمر الثاني عباد الله: فهو أن نحذَرَ اختراقَ صفوف المسلمين، أو هَزَّ كِيَانِهِمْ من قبل جبهات داخلية منهم ممَّن هم من بني

الجلدة، ويتكلَّمون بذات اللغة، والذين يعرفهم أولو الألباب في لحن القول، والله يعلم إسرارهم، تَرَوْنهم كالقُطْعان، يَهْرِفون بما لا يعرفون، والله أعلم بما يوعون، هم في الحقيقة لصوصُ حروب، ونشَّالون وسط الأزمات، يجعلون من النوازل والتداعيات فُرَصاً سانحة لِفَتِّ العَضُدِ من داخلِ المجتمع، وقَلْبِ الحقائق، وإشعالِ فَتِيلِ تغيير الواقع المسلم؛ ليخرجَ عن إطاره المشروع، يعد أمثالهم في دول كبرى (طابوراً خامساً) حسب قواميسهم؛ فهم يتقونهم في مجتمعاتهم بكل ما يملكون من سُبُل، وهؤلاءِ هم أشدُّ خطراً من العدو الخارجي، بل إنهم يقومون بما يسمى (الحرب بالوكالة)؛ فهم أعرف بلغتنا وعلمنا وواقعنا من الأجنبي عنا، فبالتالي يكون أثرهم أشد بلاء، وأوقع فتكاً.

وإن تعجبوا عباد الله: فعجبٌ أفهامُ مثل هؤلاء، كيف يحملون اسم الإسلام، وما تخطه أيديهم وتلوكه ألسنتهم غريبٌ كلَّ الغرابة عنه، فهم يشكِّكون في بعض ثوابت الدين، تشكيكاً مزوقاً، يلمزون مناهجه التعليمية الشرعية، ويهمزون صحوتنا المعتدلة المباركة، ويمشون على أهل الإصلاح بنميم، عقولهم في أقلامهم، وألسنتهم لا في أفهامهم وحجاهم، فهم في الواقع كمثل السوس، أو كطبع السوس يأكل مِنْسَأة المجتمع حتى يَخِرَّ صريعاً على وجهه؛ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]، وقد حذَّر الله نبيه ﷺ من أمثال هؤلاء بقوله: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم

مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠ ـ ٦٢].

يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: هذه سُنَّةُ الله في المنافقين، إذا تمرَّدوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه، أن أهل الإيمان يسلَّطون عليهم ويقهرونهم.

ولأمثال هؤلاء نقول: إن الشرعةَ شرعةُ الله، والمِنْهَاجَ منهاجُهُ، فهي شريعةٌ خالدة، لا نرى فيها عِوَجاً ولا أَمْتًا؛ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]، ونحن نقول: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢ ـ ٢٤].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيماً لشانه، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله الداعي إلى رضوانه، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه.

أما بعــد:

فيا أيها الناس، ما أحوَجَنَا وسطَ هذه المستجدَّات والمتغيرات الملتهبة، إلى كلمة سواء بيننا، تجمعُ قلوبنا، وتشدُّ من أزرنا، وتلم شعثنا، ولا يمكن أن تكون هذه الكلمة إلا في كلمة التوحيد الجامعة، «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، بكل ما تحمله من مدلولات ولوازم ومطابقات، والتي من لوازمها: الألفة والتآخي، والتضامن والتآزر بين المسلمين، أفراداً وجماعات؛ إذ كيف نجتمع وبعضنا يبغض بعضاً؟! وكيف نأتلف وبعضنا ينكر بعضاً؟! بل كيف نتمازج في مقترحات ومصالح، أو في وسائل وغايات، على دعاوى وهمية، ومتعلقات عُبِّيَّة، ليست من الإسلام ولا هي من بابته؟!

ثم إن تراجع المسلمين وتخاذلهم إنما يجيء بالدرجة الأولى من داخل أنفسهم، قبل أن يجيء من ضغوط مَنْ سواهم، ولسنا في الحقيقة أول أمة تعالج الرزايا والبلايا، ثم تؤمر بأن تثبت على دينها،

وتكافح من أجل إعلاء كلمة الله عزيزةً شمَّاء.

كما أن علينا جميعاً أن نَنْخُلَ مصادر ثقافتنا ووعينا المشبوهة، لنستبعد الغثَّ والسمين، وكلَّ ذي ورم، ونستبقي النافع الرافع، الذي يكون مبنيًّا على التقريبِ لا التغريب، والتصحيحِ لا الإفساد، والرتق لا الفتق، وعلى دعم القيم الدينية، والمُثُل الاجتماعية، والقضايا التربوية السويَّة، ورد الشبهات التي تُثار حول الإسلام ومناهجه الحقَّة، وعلى أن تكون دعوتنا لإحياء وَحْدة المسلمين، مرهونةً بإماتة صيحات الجاهلية، والأطروحات اللامِلِّيَّة، وأن نبرز العنوان الإسلامي الصحيح كمصدر وحيد، لا مجرد مصدر رئيس من عدة مصادر، كما هو الحالُ في كثير من ديار الإسلام. إنه بمثل هذا تكون النصرة، وتحصُلُ الرفعة، ويسمو الفكر السوي. هذه هي شرعةُ ربنا الحق، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٨، ٢٩].

اللهم، صَلِّ على محمد وعلى آل محمد. . .

❊ ❊ ❊

تأملات في حجة النبي ﷺ

الخطبة الأولى:

الحمد لله جامعِ الشتات، وباعثِ الرفات، وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، شهادةً تكتب بها الحسنات، وتمحى السيئات، وأشهد أنَّ محمداً عبد الله ورسوله المبعوثُ بجوامع الكلمات، والآياتِ البينات، صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه، ومن سار على طريقه واقتفى أثره إلى يوم الدين.

أما بعـد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله سبحانه؛ فاتقوا الله ربكم، واشكروه على ما أولاكم من نعمه العظيمة، وآلائه الجسيمة؛ فلقد تأذَّن سبحانه بالمزيد لمن شكر من عباده، ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٧ - ١٩].

أيها المسلمون، حجاج بيت الله الحرام، الحج في الإسلام الأغر، يعد نقطة ارتكاز في ميدان التجرُّد والإيثار، والأخوة والمساواة، إضافةً

إلى دقة أحكامه الشرعية، ومسائله الفقهية كباب من أبواب العبادات.

وعامةُ أهل العلم: مطبقون على أن النبي ﷺ لم يَحُجَّ إلا مرة واحدة، وهي حجة الوداع المشهورة قبل وفاته بأشهر، غير أن آحاد هذه الحجة وصورها كانت وما زالت منهلاً للاعتبار، ومنبعاً للادكار، ومرتعاً خصباً لجمع الأوابد فيها ولقط النِّثَار، المتمثِّل كله في الدروس والعبر، والمواقف الموقظة للضمير المسلم الحي، المهيَّأ للنهل من سيرة المصطفى ﷺ، واتباعها حذو القذة بالقذة، مع اعتقادنا الجازم: بأن هذه الدروس والعبر برمتها، لا يمكنُ أن تستوعب في مجرَّد خطبة واحدة، أو كليمات عابرة، ولا جرم: فإنَّ حجته ﷺ هي كالبحر من أي النواحي أتيته، فإنما لجته المعروف، وساحله البر والتقوى.

عباد الله، الرأفة والرحمة، والحرصُ على راحة الغير وسلامته من الأذى، أمرٌ منشود بين أهل الإسلام على وجه التأكيد، ولربما ازداد هذا التأكيدُ بوضوح إذا كان الالتقاء الأخويُّ يسوده جَوٌّ من أجواء العبادات الروحية، وفي حجة النبي ﷺ يُسْمَعُ التوجيه المبارك من النبي ﷺ إلى الفاروق رضي الله عنه حينما وجَّهه لتقبيل الحجر الأسود، ونهاه أن يزاحم الناس؛ فإنْ وجد فُرْجة وإلا فليستقبله ويكبر ولا يزاحم؛ كما روى ذلك الطبراني وغيره. وفي هذا الموقف يتجلَّى حرص النبي ﷺ ودعوته لعموم المؤمنين في التخلق باللين والرحمة والرأفة والرفق، وألا يكونوا سبباً في الإيذاء أو المزاحمة، أو التنغيصِ لأجواء العبادة التي لا تكتمل إلا بالطمأنينة والصفاء، والبُعْدِ عن كل ما

من شأنه تكديرها وتشويشها.

ومن ذلكم عباد الله: المزاحمة والاقتتال في حال أداء بعض النسك في الحج؛ كتقبيل الحجر، أورمي الجمرات، أو سد الطرقات في المساجد والممرات، دون مراعاةٍ لأجواء السكينة في العبادة، أو احترامٍ لشعور الآخرين وحقوقهم، والنبي ﷺ يقول: «**إن الرفق لا يكونُ في شيء إلا زانه، ولا ينزعُ من شيء إلا شانه**» [رواه مسلم]. وتحصيل الأجر في النسك عباد الله لا يبلغُ الكمال إلا بالرفق واللين؛ لأن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف؛ كما صح الخبر بذلكم عن النبي ﷺ عند مسلم في صحيحه.

أيها المسلمون، في حجة الوداع المباركة يصعد النبي ﷺ على الصفا، فينظر إلى الكعبة؛ فيستقبلها، ثم يوحد الله ويكبره، ويقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»؛ بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه، لقد قال هذه الكلمات في أرض أمن وأمان، في زمن استقر فيه سلطانه، وغلبت فيه رسالته، وهو حينما يذكر الله بهذه الألفاظ إبان النسك، فإنما هو بهذا يثير في النفس كوامنَ الإيمانِ بقوة الله وقدرته، وأثر الاعتماد عليه وحده، ونسبة القوة والغلبة له سبحانه دون سواه؛ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، إن النبي ﷺ حينما يكبر الله عند كل شوط

في الطواف، ويكبره عند الصفا والمروة، وعند رمي الجمار، وفي أيام التشريق، لهو يبعث في النفوس شعوراً عميقاً، واستحضاراً أسيفاً لقيمة ذكر الله وتكبيره في حياة المرء المسلم، وإن كلمة «الله أكبر» لهي رأس الذكر وعماده، وهي أول ما كلِّف به النبي ﷺ حين أمر بالإنذار، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ١ ـ ٣].

الله أكبر الله أكبر الله أكبر، إنها لكلمة عظيمة تُحْيِي موات النفس الهامدة، لصوتها هديرٌ كهدير البحر المتلاطم، أو هي أشد وقعاً؛ بل إنها سلاح فتاك، في وجوه أعداء الملة ولصوص الأرض، وهي سيف الحروب الذي لا يثلم، كيف لا وقد ذكر النبي ﷺ أن مدينة تفتتح في آخر الزمان بهذه الكلمة، فقد قال ﷺ: **«فإذا جاؤوها، نزلوا ـ أي المسلمون ـ فلم يقاتلوا بسلاح، ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إله إلا الله، والله أكبر؛ فيسقط أحدُ جانبيها، ثم يقولوا الثانية: لا إله إلا الله، والله أكبر؛ فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولوا في الثالثة: لا إله إلا الله، والله أكبر؛ فيفرج لهم فيغنموا. . .»** الحديث. [رواه مسلم].

وعلى صخرات الصفا والمروة ـ عباد الله ـ يذكر النبي ﷺ نعمة ربه عليه وعلى المؤمنين، ويحمده على أن رد كيد الأحزاب وحده، ونصر عبده، وأعز جنده، وذلك يوم الخندق، الذي قال عنه الباري جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ

بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٩-١١].

إن الإيمان بقدرة الله وحده وقهره وغلبته، هو الشعور الذي ينبغي أن يخامر قلوب المسلمين في كل حين؛ لأن ذلك يثمر الإقدامَ والاعتمادَ عليه وحده، ويبعثُ في النفس خلق الشجاعة وعدمِ الاستخذاء لصروفِ الأيام وتكالبِ الأعداء وتحزُّبهم ضد أمة الإسلام، وأنه لا ينبغي أن تكون الآذان رجع صدى للذين يقولون: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، بل ينبغي أن يزيدهم ذلك إيماناً مع إيمانهم، وتعلُّقاً بالله ويقولوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، ولا غرو أن من يعتقد أن الأجَلَ محدود، والرزق مكفول، والأشياء بيد الله يقلبها كيف يشاء، فلن يرهب الموت والبلى، ولن يخشى الفقر والفاقة، مهما طقطقَتْ أرجلُ الأعداء الحاقدين، بل سيكون حديثه تترا قولَ الله: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾ [التوبة: ٥١]، أو قوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢] يعنون بذلك: كسب المعركة بالنصر، أو الموتَ دون الظفر بها، وهو حَسَنٌ كذلك؛ لأنه شهادةٌ في سبيل الله، وما عند الله خير وأبقى، أما الذين لا إيمان لهم بالله ولا بقضائه وقدره، بل طغَوْا وبغَوْا، وعتَوْا عتوًّا كبيراً، فهؤلاء إن انتصروا أو انهزموا، فهم بين عذابَيْن: آجل أو عاجل: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢]، وأمثالُ هؤلاء يسيحون بأفئدةٍ هواء، تلعب

بهم الأحداث والظنون، وتقف لهم أشباح الموت والمصائب عند كل أفق، بل هم ﴿قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٦، ٥٧].

أيها المسلمون، حجاج بيت الله الحرام، لما غربت شمس يوم عرفة، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القُرْص، دفع النبي ﷺ من عرفة وقد شنق لناقته القصواء الزمام حتى لا تسرع، وهو يقول بيده اليمنى: «**أيها الناس، السكينةَ السكينةَ**».

إن هذا الموقف الجليل، الذي تتسابق فيه النفوس إلى الخير، وهي أينما حلَّت في عرصات المشاعر، فهي في نسك، ومع نسك، ووسط نسك، غير أن الهدوء والطمأنينة، والتأني والسكينة وعدم الاستعجال، هو الشعور الإيجابي المربي، وهو الطريق المباركة لكل نجاح أمثل، فالسكينة لا يعدلها شيء، إذ العجلةُ هي داء المجتمعات، وهي الألغام الموقوتة التي لا تثمر إلا الأشلاء والدماء، بل هي من مقتضيات حظوظ النفس البغيضة، والجهل بالعواقب وسوء المغبة، وذلك لخروجها عن الإطار المشروع حتى في حال العبادة؛ يقول الباري سبحانه: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، بل حتى في أدق مواضع العبادة يقول النبي ﷺ: «**إن الله يستجيب لأحدكم ما لم يعجَلْ، يقولُ: دعوتُ فلم يستجَبْ لي**» [رواه البخاري ومسلم].

لقد جاء لفظ العجلة في القرآن متصرفاً في سبعة وثلاثين

موضعاً، كلها على سبيل الذم إلا موضعاً واحداً، وهو قوله جل شأنه: ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، فالعجلة - عباد الله - من الخِلال المذمومة في أعمال المرء العبادية والحياتية، والواجبُ على العاقل: أن يلزم التأني في الأمور كلها؛ لأن الزيادة على المقدار في المبتغَىٰ عيبٌ كما أنَّ النقصان فيما يجب من المطالب عجز، ومن لم تصلحه الأناة فلن تنفعه العجلة بل تضره.

وصفاتُ العَجِل: أنه يقول قبل أن يعلم، ويجيبُ قبل أن يفهم، ويحمد قبل أَن يجرِّب، ويذم بعدما يحمد. المرء العجل: تصحبه الندامة، وتخذله السلامة، وقد كانت العرب في القديم تكنِّي العجلة: «أم الندامات»؛ ففي العجلة الندامة، وفي التأني السلامة، ولقد صدق الله: ﴿ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

ألا فاتقوا الله معاشر المسلمين وحجاج بيت الله الحرام، وخذوا من هدي نبيكم ﷺ؛ تفلحوا، وتحسنوا، ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وأصحابه.

أما بعـــد:

فلقـد تمثَّل النبي ﷺ في حجته بـأعظم معـانـي التيسير والتسهيل، والرحمةِ للعالمين والرأفةِ بالمؤمنين، ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه حريصاً أشدَّ الحرص على أمته بألا يكلفهم ما لا يطيقون، أو يفعلوا ما لا يستطيعون؛ ففي يوم العيد يوم الحج الأكبر، ما سئل عن شيء قدِّم أو أخِّر في ذلك اليوم إلا قال: «افعَلْ ولا حرج»، فجاء رجل وقال: لم أشعُرْ فحلقْتُ قبل أن أذبح؟ فقال: «اذبحْ ولا حرج»، وجاءه آخر قال: لم أشعُرْ فنحرْتُ قبل أن أرمي؟ قال: «ارم ولا حرج». فما سئل يومئذٍ عن شيء قدم ولا أخر إلا قال: «افعل ولا حرج» [حديث متفق على صحته].

ويقول ﷺ: «نحرتُ هاهنا ومِنًى كلُّها منحر؛ فانحروا في رحالكم، ووقفتُ هاهنا وعرفةُ كلها موقف، ووقفتُ هاهنا وجَمْعٌ كلها موقف» [رواه مسلم].

هذا هو ديدنه ﷺ؛ فلقد كان يأمر دعاته ورسله باليسر والتيسير، فقد قال عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري، لما بعثهما إلى اليمن: «**يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا**» [رواه البخاري].

وهذا التيسير منه ﷺ هو فيما كان جارياً وَفْقَ الشرع والعدل، لا وفق الأهواء والرغبات؛ إذ لو كان الأمر كذلك، لَمَا كان هناك تكليف أصلاً؛ لأن في التكليف نوعَ مشقَّة ونصب؛ فالواجب على الناس بعامة أن يراعوا مثل ذلك فلا يضيِّقوا على أنفسهم بما جعل الله لهم فيه سعة، كما ينبغي ألا يضيِّق المرء على نفسه في وقت يخصِّصه للطواف مثلاً فيزاحم ويشاقق، وقد جعل الله له فسحة في الوقت يتخير أيسره وأرفقه، وقولوا مثل ذلك في الهدي، وفي الرمي، ونحوهما.

كما أنه ينبغي للمفتين والمرشدين في الحج ألا يعسِّروا على الناس بفتاوى لم يصحَّ الدليل فيها، أو بفهمٍ شخصيٍّ للمسألة دون دليل يجب الرجوعُ إليه، أو أن يتوسَّعوا في فتاوى ليس لهم فيها سعة، أو أن يستقلَّ بعضهم برأي أو فتيا تتعلَّق بمصير كثير من الحجاج دون تَرَوٍّ أو مراعاة لنصوص الشريعة، وبدون المشورة العامة لأهل العلم، لاسيما في موسم الحج، لئلا يحدُثَ الخلل بين الحجيج، ويقعوا في التذبذب بين الفتاوى والآراء، فالمفتون

مسؤولون أمام الله عن فتاواهم، وقد قال النبي ﷺ: «**مَنْ أُفْتِيَ له بغير علم، كان إثمُهُ على من أفتاه**» [رواه أبوداود].

وإن من الأخطاء المشهورة بين بعض المرشدين: عَدَمَ التفريق بين الدم في ترك الواجب، وبين التخيير في فدية الأذى، أي: في ارتكاب محظور من محظورات الإحرام عدا الجماع؛ حيث يفتي بعضهم في الجميع بالدم، وهذا خطأ بيِّن؛ فإن الحاج إذا ارتكب محظوراً عدا الجماع، فإنه مخيَّر بين أن يذبح شاة، أو يصوم ثلاثة أيام، أو يطعم ستة مساكين؛ بنصِّ حديث النبي ﷺ، وأما إيجاب الدم استقلالاً: فإنما هو في حق من ترك واجباً من واجبات الحج؛ كالمبيت بمنى، أو ترك رمي الجمار، ونحو ذلك؛ كما قرره جمهور أهل العلم.

تقبَّل الله من الحجاج حجَّهم، ويسَّر نسكهم.

اللهمَّ، صَلِّ على محمد وعلى آل محمد؛ كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم...

* * *

شـــهر التوبـــة

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي علا بحوله، ودنا إلى عباده بِطَوْله، مانحِ كلِّ غنيمة وفضل، كاشفِ كلِّ عظيمة وضيق، نحمده على سوابغ نعمه، وواسع كرمه، وأشهد أن لا إله إلا الله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله إلى الثَّقَلَيْنِ الإنس والجن بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسِراجاً منيراً، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعـــد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله سبحانه، فما أنتم في هذه الدنيا إلا غرضٌ تنتضل فيه المنايا، مع كل جرعة منها شرق، وفي كل أكلة غصص، لا تنالون منها نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يحيا لكم أثر إلا ماتَ لكم أثر، ولا يتجدَّد جديد إلا بعد أن يَبْلَىٰ لكم جديد، وقد مضت أصولٌ نحن فروعها، فما بقاءُ فرعٍ بعد ذهاب أصله؟

أيها الناس، إن شهركم هذا قد بدا إدباره وآذن بوداع، وإن ما بقي منه فسيمرُّ مثلَ طرفة عين أو كلمح بصر أو هو أقرب، وهو عند ذوي العقول كفَيْءِ الظل، بينما تراه سابغاً حتى قلص، وزائداً

حتى نقص، ولا جرم ـ عباد الله ـ فإن الشيء يُتَرَقَّبُ زواله إذا قيل تم ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

ألا فإن ما بقي من الشهر اليوم هو المضمار، وغداً السباق، والسبقة الجنة، والغاية رؤية الله سبحانه؛ أفلا تائبٌ من خطيئته قبل ختام شهره؟! ألا عاملٌ لنفسه قبل يوم بؤسه؟! ألا إنكم في أيام أمل من ورائه أجل، فيا وَيْحَ طالب الجنة إذا نام! ويا بؤس الهارب من النار إذا غفا، ثم هو لا يتخوّف قارعة حتى تحل به! ومَنْ هذه حاله فليس هو من عُمَّار الشهر في مراح ولا مغدى.

عباد الله، إن في هذا الشهر أناساً أشغلوا أنفسهم عن ذكر الله وطاعته، حتى قصروا غاية برِّهم به في جعله موسماً حوليًّا للموائد الزاخرة، وفرصةً سانحة للهو والسمر الممتدَّيْنِ إلى بزوغ النهار، فصبحُهُمْ مثل ليلهم، وأجواؤهم سود، وأجفانهم جَمْرٌ يومض؛ جعلوا من هذا الشهر محلاًّ للألغاز الرتيبة، والدعايات المضللة، أو المواعيد المضروبة لارتقاب ما يستجدُّ من أفلام هابطة، وروائيات مشبوهة، ترمي بشرر كالقصر لإحراق مابقي من أصل حشمة وعفاف، أو تديُّن يستحق التشجيع والإذكاء.

وبذلك تخسر الأمة في كل لحظة مواطناً صالحاً، يضلُّ ضلالة يغشُّ بها ويخدَعُ ويسرق ويحتال، تمتُّعاً بهذا المرئي والداء المستشري، ولسانُ حال هؤلاء يقول: صفدت شياطين رمضان إلا شياطينهم، حتى صاروا بذلك يَطْلُبون ولا يُعْطُون، ويشتهون ولا

يصبرون، ويحسنون الجمع في حين أنهم لا يعرفون القسمة، إلى أن تحطَّمت فيهم روح المغالبة والمقاومة، فلا عجب حينئذٍ إذا لم يجد هؤلاء بهذا الشهر المبارك ما يجده المؤمنون الصادقون.

وفي المقابل عباد الله: فإن لهذا الشهر أناساً غضَّ أبصارَهُمْ ذكرُ المرجع، وأراق دموعهم خوفُ المحشر، فهم بين شريد هارب من الكسل والخذلان، وخائفٍ مقهور، وداعٍ مخلص، وثكلان موجع.

ألا فاتقوا الله أيها الصائمون القائمون، وتنفَّسوا قبل ضيق الخناق، وانقادوا قبل عنف السياق، فـ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، وإلا فما يصنع بالدنيا من خلق للآخرة؟! وما يصنع بالمالِ مَنْ عمَّا قليل سيسلبه وتبقى عليه تبعاته وحسناته؟! فالله الله وأنتم سالمون في الصحة قبل السقم، وفي الفسحة قبل الضيق، ويالفوز من سَعَوْا في فكاك رقابهم من قبل أن تغلق عليهم رهائنها، ألا إن لله عتقاء من النار في هذا الشهر المبارك.

وأما هذه الدنيا: فهي غرارة ضرارة، حائلة زائلة، لا تعدو أن تكون بزخرفها كما قال الله تعالى: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

إنه ما بين أحدنا وبين الجنة أو النار إلا الموتُ أن ينزل به، وإنَّ غايةً تَنْقُصُهَا اللحظةُ، وتهدمها الساعة، لجديرةٌ بقصر المدة

مهما طالت، وإنَّ غائباً يحدوه الجديدان الليل والنهار، لحريٌّ بسرعة الأوبة، فرحم الله امْرَأً قدَّم توبته، وغالب شهوته، فإن أجله مستور عنه، وأمله خادع له، والشيطان موكَّل به، يزين له المعصية والتفريط ليركبهما، ويمنِّيه التوبة ليسوفها، ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

فالبدارَ البدارَ قبل مفاجأة الأجل، فلو أن أحداً يجد إلى البقاء نفقاً في الأرض أو سلَّماً في السماء، دون أن يقضى عليه بالموت، لكان ذلك لسليمان بن داود عليهما السلام، الذي سخَّر الله له ملك الجن والإنس، و﴿ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٦ ـ ٣٨]، هذا مع نبوّته وعظيم زلفته، غير أنه لما استوفى طعمته، واستكمَلَ مدته، رماه قوسُ الفناء بنبال الموت، وأصبحت الديار منه خالية، وورثها قوم آخرون.

وإنَّ لكم في القرون السالفة لعبرة؛ وإلا فأين العمالقة وأبناء العمالقة؟! وأين الفراعنة وأبناء الفراعنة؟! أين أصحاب مدائن الرس؟! وأين عادٌ وثمودُ وإرمُ ذاتُ العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد؟!

فيا مؤخِّراً توبته بمطل التسويف، لأي يوم أجَّلْتَ توبتك وأخرت أوبتك؟! لقد كنت تقول: إذا صمت تبت، وإذا دخل رمضان أنبت، فهذه أيام رمضان عناقد تناقصت، لقد كنتَ في كلِّ

يوم تضع قاعدة الإنابة لنفسك، ولكنْ على شفا جرف هار.

ويحك أيها المقصر، فلا تقنعُ في توبتك إلا بمكابدة حزن يعقوب عن البين، أو بعبرة داود ومناداة أيوب لربِّه في ظلمات ثلاث: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، أو بصبر يوسف عن الهوى، فإنْ لم تطق ذلك فبذلِّ إخوته يوم أن قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩٧].

نعم أيها المذنب المقصِّر، لا تخجلْ من التوبة، ولا تستح من الإنابة، فلقد فعلها قبلك آدمُ وحواء حين قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وفعلها قبلك إبراهيم حين قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وفعلها موسى حين قال: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القصص: ١٦]، وقد قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أيوبَ نبيَّ الله لَبِثَ في بلائه ثماني عشرة سنةً، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلَيْنِ من إخوته، كانا من أخصِّ إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلَمُ والله، لقد أذنَبَ أيوبُ ذنباً ما أذنبه أحدٌ من العالمين، قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنةً لم يرحمْهُ الله فيكشف ما به؛ فلمَّا راح إليه، لم يصبر الرجل حتى ذكَرَ ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقول، غير أن الله يعلم أني كنتُ أمرُّ على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله، فأرجعُ إلى بيتي فأكفِّر عنهما كراهيةَ أن يذكر الله إلا في حق، قال:

وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضى حاجته أمسكَتِ امرأته بيده، فلمَّا كان ذات يوم أبطأ عليها فأوحى الله إلى أيوب في مكانه: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص: ٤٢] فاستبطأتْهُ فبلغته، فأقبلَ عليها قد أذهَبَ اللهُ ما به من البلاء، فهو أحسنُ ما كان، فلمَّا رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيتَ نبيَّ الله هذا المبتلى، واللهِ على ذلك ما رأيتُ أحداً كان أشبَهَ به منك إذْ كان صحيحاً، قال: فإني أنا هو، وكان له أندران: أندر القمح، وأندر الشعير، فبعث الله سحابتَيْن، فلما كانت إحداهما على أندر القمح، أفرغتْ فيه الذهب حتى فاض، وأفرغتْ في الأخرى على أندر الشعير الورق حتى فاض».

فلا إله إلا الله! من يمنع المذنب من التوبة؟! ولا إله إلا الله، من يقنَطُ من رحمة ربه إلا الضالون؟! يقول ابن عباس رضي الله عنهما: دعا الله إلى مغفرته مَنْ زعم أن عُزَيْراً ابنُ الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول لهؤلاء جميعاً: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٤].

ألا فإن التوبة للمرء كالماء للسمك، فما ظنُّكم بالسمك إذا فارق الماء؟! جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إني قد زنيت فطهِّرني، فردها النبي ﷺ، فلمَّا كان الغد، قالت: يا رسول الله لِمَ تردُّني؟ فلعلك أن تردَّني كما رددت ماعزاً، فوالله إنِّي

لحبلى، قال: «**أما لا فاذهبي حتى تلدي**»، فلما ولدت، أتته بالصبي في خرقة، قالت: هذا قد ولدته، قال: «**اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه**»، فلما فطمته، أتته بالصبي في يده كسرة خبز، حرصاً منها على التوبة وإقامة الحد، فقالت: هذا يا رسول الله، قد فطمته، وقد أكل الطعام، فدفع الصبيَّ إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها، فتنضح على وجه خالد فسبَّها، فسمع نبي الله سبه إياها، فقال: «**مهلاً يا خالد، فوالذي نفسي بيده! لقد تابتْ توبةً لو تابها صاحبُ مكس، لغفر له**»، وصاحب المكس هو الذي يأخذ الضريبة من الناس. وفي رواية: «**لقد تابتْ توبةً لو قُسِّمَتْ بين سبعين من أهل المدينة، وسعتهم، وهل وجدَتْ شيئاً أفضَلَ من أن جادَتْ بنفسها لله عز وجل؟!**».

إن صاحب الذنب مهما غفَلَ عن التوبة، أو تناءى عنه الوصولُ إليها، فسيظلُّ أسير النفس، قلقاً لا قرار له، متلفتاً لا يصل إلى مبتغاه، ما لم يفتحْ له بابُ التوبة ليطهِّر نفسه من كلكلها، ويخفف من أحمالها.

إلهنا، إلهنا! يا مَنْ يرى مَدَّ البعوضِ جناحَهَا في ظُلْمةِ الليلِ البهيمِ الأَلْيَلِ، ويرى نِيَاطَ عروقها في نَحْرِهَا والمُخَّ في تلك العظامِ النُّحَّلِ، امنُنْ عليَّ بتوبةٍ تمحو بها ما كان منِّي في الزمان الأوَّل.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً كثيراً مباركاً فيه، كما يحبُّ ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه.

أما بعد:

فيا أيها الناس، في يوم من الأيام صَعِدَ رسولُ الله ﷺ درجات المنبر، فلما رَقِيَ عتبةً قال: «آمين»، ثم رقي عتبة أخرى فقال: «آمين»، ثم رقي عتبة ثالثة فقال: «آمين»، ثم قال: **«أتاني جبريل فقال: يا محمد، مَنْ أدركه رمضان فلم يُغْفَرْ له، فأبعده الله، قلت: آمين»** الحديثَ، [رواه ابن حبان وغيره].

صدق رسول الله ﷺ بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه، لقد خسر وفرَّط ورغم أنفه مَنْ ضيع فرصة رمضان، ونكص على عقبيه، ألا أين أنتم أيها التائبون؟! عقلكم يحثكم على التوبة، وهواكم يمنعكم!! والحربُ بينهما سجال، فلو جهزتم جيش عزم، لَفَرَّ العدو منكم، تنوون قيام الليل فتتكاسلون، وتسمعون القرآن فلا تبكون، بل أنتم سامدون، ثم تقولون: ما السبب؟! ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ألا فاتقوا الله معاشر المسلمين، وتوبوا إلى ربكم توبةً نصوحاً، توبوا إلى الله فُرَادَىٰ وجماعات فما توبة الأمة بأدنى شأناً من توبة الأفراد إذ يقول الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، ألا تَرَوْنَ - يا رعاكم الله - ما قاله الباري جل شأنه في كتابه: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

فيا أيها المسلمون، ما هي إلا التوبة والاستغفار؛ وإلا فالمصير هو النار، والخسار، وما لهذا الجِلْدِ الرقيق صبرٌ عليها، فارحموا أنفسكم، فقد جربتموها في مصائب الدنيا، أفرأيتم جزَعَ أحدكم من الشوكة تصيبه والرمضاءِ تُحْرِقه؟! فكيف إذا كان بين طابقَيْنِ من نار، ضجيع حجر وقرين شيطان في نار يحطم بعضها بعضاً، لا تسمع فيها إلا تغيظاً وزفيراً، كلَّما نضجتْ فيها الجلود، بدَّلها الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب، ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٥ ـ ١٨].

يقول الرسول ﷺ، فيما يرويه عن ربه عز وجل: «**يا ابن آدم، إنك ما دعوتَنِي ورجوتَنِي، غفرتُ لك على ما كان منك ولا أُبالي، يا ابن آدم، لو بلغَتْ ذنوبُكَ عَنَانَ السماء ثم استغفرتَنِي، غفرتُ لك ولا أُبالي، يا ابن آدم، لو أنك أتيتَنِي بِقُرَابِ الأرض**

خطايا، ثم لقيتَنِي لا تشركُ بي شيئاً، لأتيتُكَ بقرابها مغفرة» [رواه الترمذي].

﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦].

اللهم، صَلِّ على محمد وعلى آل محمد؛ كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم...

* * *

تعليق حول أحداث التفجير

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعـــد:

فاتَّقوا الله أيُّها المسلمون، واعلموا أنَّ أحسن الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمّد ﷺ، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وعليكم بجماعة المسلمين؛ فإنَّ يدَ الله على الجماعة، ومَن شذَّ عنهم؛ شذَّ في النار.

أيُّها الناس، إنَّ مَنْ يسبُر التاريخ الغابرَ والحاضر، ببداهةِ فهمه واتزان نظرِه، ويتعرَّف على واقع الأُمم السالفة، والمجتمعاتِ

الحاضرة: فلن يتطرّق إليه شكٌ ألبتَّة في وجود حقيقةٍ ثابتة ومبتغىً ينشدُه كلُّ مجتمع، وأُسٍّ لا يتغيَّر ولا يتبدَّل مهما توالت عليه العُصُور وعَصَفَت به رياح الأيَّام التي يداولها الله بين الناس، ألا وهو مطلب الأمن والأمان. الأمن الذي يهنأ فيه الطعام، ويسوغ فيه الشراب، ويكون فيه النَّهار معاشاً، والنَّوم سُباتاً، والليل لباساً.

عباد الله، إنَّه متى اختلَّ إيجادُ الضمانات الواقعية والإعدادات الشُّمولية ضدَّ ما يعكِّر الصفوَ في أجواء الحياة اليوميَّة للمجتمعات المسلمة، إنه متى اختلَّ ذلكم يوماً ما؛ فاحكموا على أمان النَّاس واستقرارهم بالغَيبة والتِّيه المفرِزَين للممارسات اللامسؤولة والإخلال المرفوض بداهةً بكلّ ما له مساس بالأمن، والذي يهدِّد رسوّ سفينة المجتمع المسلم الماخرة، في حين أنَّه لا قبولَ له بأيِّ صفة كانت، مهما وُضِعت له المبرِّرات والحيثيَّات التي يرفضها كلُّ ذي عقلٍ حيّ وفؤاد ليس له هواء، وإن استُعمل في نفاذ مثل تلكم الممارسات بعضُ بني أُمَّتنا ومِمَّن يتكلَّمون بلغتنا، ليجعلوا نتيجة الممارسات النشاز في المجتمع المسلم عرضةً لحتفِهم قبل حتفِ مَنْ سِواهم.

ومتى دبَّ في الأمة داءُ التسلُّل أو الافتيات الأمني من قِبَل بعض أفرادِها فإنما هم بذلك يهيلون الترابَ على مفهوم الاستقرار، ويقطعون شرايينَ الحياة عن الأجيال الحاضرة والآمال المرتَقبة.

هذا إن لم تكن تلك الممارسات تكأةً يتكئ عليها أعداء الإسلام من الكفرة الحاقدين، ومبرِّراً سائغاً لهم في تنفيذ ما مِنْ شأنه إيجاد المسوِّغات المشروعة - بمفهومهم - في الضغوط المتتالية على حِياض المسلمين، فتأتيهم مثلُ هذه الإخلالات على طبقٍ من ذهب ليجتاحوا بلاد المسلمين بأدنى الحِيَل.

إنَّ الجوَّ العامِر بالثقة والأمان، والتَّفاهم البنَّاء الخاضع لشِرعة الله، لهو الجوّ الذي يستطيع أن يحيا فيه دين الله وينتعِش؛ لتحلّ الأوليّات والقضايا الواضحات محلَّها الذي ينبغي أن يوجدَ مكانه لكافَّة أفراد المجتمع المسلم؛ ولذا فقد جاءت شريعة الإسلام بِحَسْمِ مادَّة الأمن، وأنَّها غيرُ قابلة للتردُّد أو النزاع أو المساومة؛ فقد قال ﷺ: «**إذا مرَّ أحدكم في مسجدنا، أو في سوقنا، ومعه نبلٌ فليمسك على نصالها** - أو قال: - **فليقبض بكفّه أن يصيبَ أحداً من المسلمين منها بشيء**» [رواه البخاري]، وفي «الصحيحين» أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مَن حمل علينا السلاح، فليس منا**»، وفي «الصحيحين» أيضاً قوله ﷺ: «**سِباب المسلم فُسوق، وقتاله كفر**»، وفي الحديث الصحيح: «**المسلم مَنْ سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده**».

أيُّها المسلمون، بقِي معنا هنا أن ندركَ مفهومَ الأمن بمعناه الشموليّ والواقعيّ، وألا يكونَ محلاً لضيق العطنِ أو الفهم المقلوب لأبعاده وصُوَره أو لهما معًا، وذلكم من خلال قَصر

مفهوم الأمن على نطاق ضيّق متمثّلٍ في مجرّد حماية المجتمع من السَّرقة أو النَّهب أو القتل وأمثال ذلك، كلا، فالأمن له مفهوم أعمّ من ذلكم وأجلّ، بل إنَّ أوّلَ وأعظم مفهومٍ للأمن هو في أن ينطلقَ المجتمع المسلم على تقرير أنَّ عقيدةَ المجتمع: ارتباطُهُ الوثيق بربّه، والبُعد عن كلّ ما مِن شأنِه أن يخدشَ تلكم العقيدةَ الغرَّاء أو يثلمَها أو ينقضَ بعضَ عُراها، هذا هو أوَّل الواجبات الأمنية التي بها يتحقَّق الوازع الديني المانعُ من كلّ ممارسةٍ تخالف دين الله وشِرعته، متمثّلاً ذلكم الوازع في البعد عن الشرك بالله في ألوهيته وربوبيّته وأسمائه وصفاتِه، والبُعد عن الشرك به في حُكمِه، أو الكفر بملّة الإسلام والإلحاد فيها، أو تنحية شِرعة الباري - جلّ شأنه - عن واقع الحياة، أو مزاحمة شرعةٍ غير شِرعة الله مع شرعتِه، ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]، ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

ألا إنَّ الأمنَ بصورته المطلقة الواسِعة لا يمكن أن يتحقَّق بدون ذلكم، ولا أن يقرّ قرار المجتمعات المسلمة في الرضا عن النّفس وعن الدين وعن الواقع والحال إلا من خلال ما ذكر الله بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ

وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

كما أنَّ مفهومَ الأمن ـ عباد الله ـ ينبغي ألا يُنحَّى عن مراكز القوى في المجتمعات المسلمة، أو يدبَّ التجاهل فيه؛ لينسينا أثرَ هذه المراكز الملموسة في أمن المجتمعات سلباً وإيجاباً. فهناك ما يسمَّى: مفهوم الأمن الغذائي، والأمن الصحي الوقائي، وهناك ما يتعلَّق بالضوابط الأمنية في مجال التكافل الاجتماعي، وتهيئة فُرص العمل والإنتاج، والقضاء على البطالة، والعناية بالنشء في كل ما يفيد ولا يضرّ، وحسم مادَّة البطالة الفكريّة، والفراغ الرُّوحي أيًّا كان نوع ذلكم؛ لكونِه مثمِراً الخللَ والفوضى في الشُّبه والشَّهوات، إضافةً إلى فهم النواحي الأمنية المنبثقة من دراسة الظواهر الأسرية، وما يعتريها من ثقوبٍ واهتزاز في بنيتها التحتية، كما أنه يجب ألا نغفل عمَّا يُعدُّ هاجساً أمنيًّا لكل مجتمع وصماماً للفتح أو الإغلاق لمادة الإخلال بالأمن، ألا وهو الأمن الفكري الذي يحمي عقول المجتمعات ويحفظها من الوقوع في الشبهات بغفلةٍ أو العبِّ من الشهوات بنَهم.

ومثل هذا النَّوع من الأمن لا يتسنَّى له التَّمام إلا من خلال مراعاة محورين أساسيين:

أولهما: محور الفكر التعليميّ التربويّ.

وثانيهما: محور الأمن الإعلامي الثقافي.

إذ يجب على الأمة ألا تقع في مزالق الانحدار والتغريب أو التبعيَّة والإخلال عبرَ هذين المحورين، حيث إن الأمن على العقول لا يقل هاجساً عن أمن الأرواح والأموال، فقد نرى للعقول لصوصاً ومختلسين كما نرى للبيوت لصوصاً ومختلسين، فينبغي أن يُحمَى التعليم بين المسلمين عن أن يتسلَّل لِواذاً عن هويَّته، بل ويُحمى من خلال إيجاد الآلية الفعَّالة التي توفِّر سُبُل العِلم النافع الداعي إلى العمل الصالح، والبُعد عن التبعيَّة المقيتة أو التقليل من شأن العلوم الدينيَّة النافعة، أو استثقالها على النفوس، أو الاعتراف بها على الاستحياء والتخوُّف المفرزَين الفتونَ الذي يتردَّد بين الحدث والآخر عن مدى جَدوى الأخذ بها والإبقاء لها على مضَضٍ مُقلِق.

وأما محور الفكر الإعلامي فهو مقبض رحى المجتمعات المعاصرة وأقنوم تأثيرها الأساس؛ إذ به يبصَّر الناس ويرشَدون، وبه يخدَع النَّاس ويغرَّبون، به تُخدم قضايا المسلمين وتنصَر، وبه تُطمس الحقائق وتهدَر. بالفكر الإعلاميّ تُعرف المجتمعات الجادّة من المجتمعات المستهترة، فما يكون فيه من اعتدالٍ وكمال يكون كمالاً في بنية الأمن الإعلاميّ واعتدالاً؛ ولذا فإنَّه يجب على كلّ صاحب لسان فصيح مسموع، أو قلم سيَّال مقروء أن يتحدَّثوا عن شؤون المسلمين بكلّ مصداقيَّة وواقعيَّة وعدلٍ وإنصاف، وألا

تستهجنهم الحوادث وردود الأفعال ويستهويهم الشيطان، فينطلقون من خلال الحديث المشنَّج، والسِّباب المسترسِل، والخصام الحاجب للقضيَّة الأُمّ الذي قد يفقأ العين ولا يقتُل العدو، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الرعد: ١٧].

إنَّ عزوَ الأمور إلى مسبباتها الحقيقيَّة، ووضع النقاط على الحروف: ينبغي أن يكونَ هو أوَّل طُرق معالجة المعضلات، والقضايا المزعجات، وإنَّ تجاهلَ الأسباب والبواعث، أو عزوَها إلى غير مصادرها: لا يزيد الأمورَ إلا تعقيداً، والشرورَ إلا اتِّساعاً، وإنَّ العقولَ السليمة لتستخفُّ بالطَّبيب يعزو سببَ الطاعون إلى شرب الماء أو استنشاق الهواء؛ لأنَّ نتيجة التشخيص أيًّا كانت فعاقبتها ستطالُ نفسي ونفسَك أيها المسلم، أو ولدي وولدك وبنتي وبنتَك وأسرتي وأسرتَك؛ كما أنه ينبغي أن تكونَ هذه المعالجة مِنْ قِبَل ذوي الاختصاص من العلماء الأفذاذ، والحكماء الموثوقين في دينهم وأمانتهم، دون تشويش أو تهويشٍ، أو قيل وقال، وظنٍّ وخرص؛ فالله يقول: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ [الذاريات: ١٠، ١١]، يقول قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخرَّاصون هم أهل الغِرَّة والظنون».

إنَّ إطلاقَ اللسان، وسيَلان الأقلام خائضةً في المدلهِمَّات، ولاتَّةً في النوازلِ دونَ زِمام ولا خِطام: لمِن شأنِه أن يُحدث

البلبلة، ويوغِر الصدورَ، وأن يُخرج المجتمعَ المسلم من تشخيص النَّازلة الواقعة إلى التراشق والاختلافِ، وتصفيةِ الحسابات الكامنة في النفوس، ولا تسألوا بعد ذلك عن محاولة الفكّ لرموز اللَّمز والغمز، والهمز بنميم، من قِبَل مشكِّكين في تديُّن المجتمع المسلم، وسلامة المنهَل الإسلامي العذب فيه من كلّ تهمةٍ تصيبه أو تحلّ قريباً من داره، فيكثر اللَّغَطُ ويقلّ استحضارُ العلم، فتضمحلّ العافية والسّلامة من الخطأ، فضلاً عن عدم القدرة في تقديم حلٍّ عاجِل سوى الخلط والجَهل والتضليل، ومن ثمَّ تُزال المشكلة بأشكَل منها، وعلى سبيل المثال: لو سرَق إنسان في المسجد، لعَلَت صيحاتُ بعضِ اللّهازم أو المبغضين مناديةً بإغلاق المساجد أو هدمِها قطعاً لدابر السَّرقة، ولو أنَّ امرأةً محجَّبة غشَّت وخدعت، لسُمِع رجعُ الصدى للمناداة بنزع الحجاب حسماً لمادَّة الغشّ والخداع زعموا، فلا هم في الحقيقة قطعوا يدَ السَّارق ولا عزّروا تلك التي غشَّت وخدعت، وإنَّما دعَوا إلى هدم المسجدِ ونزع الحِجاب، وهذا هو سِرّ العجب، وهو ما يثير الدَّهشةَ وينشئُ الغلوّ وردودَ الأفعال، فيتصارع الإفراط والتَّفريط على حساب الاعتدال المنشود في المجتمعات المسلمة.

والإسلام ـ عباد الله ـ يكرَه الثرثرةَ الفارغة التي قد تخلو من ضرر ملحوظ في الباطن، فكيف بالضّرر المتحقِّق في الظاهر

والتناوش المفرّق، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩].

إنَّ الإسلامَ شديد الوضوح في تحديد موقفه من حريَّة النَّقد والحوار، فهو لا يرى أنَّ ذلك حقّ مباح لكلّ إنسان، ولا أنه يكتب ويقول ما شاء بما شاء كيف شاء، غيرَ منضبطٍ بضوابط الشّرع وحدوده، وإنَّ من المؤسِف أن يكونَ مفهومُ حريَّة التعبير وحريَّة الحوار قد شاع مقلوباً في أذهان الأغرار من حَمَلة الأقلام، وعليمي اللسان، فظنُّوه لا يعدو إرسال الكلام على عواهنه، وتسويدَ الصفحات بضروبٍ من الهَرّ يضرّ ولا ينفع.

إنَّ الأمنَ الإعلاميَّ في المجتمعات لهو أحوجُ ما يكون إلى دراساتٍ موسَّعة تقتنص الهدفَ الواعي؛ من خلال دراسةِ أوساط المجتمعات المسلمة، والرَّبْطِ بينها وبين الخلفيَّات الشرعيَّة والاجتماعية للطبقة الممارسة لمثل هذه الأنشطة الإعلامية الفعَّالة. كما ينبغي تحليلُ الأفعال وردود الأفعال بين معطيات المتطلَّبات الشرعيَّة والاجتماعيَّة، وبين متطلَّبات الرَّغبات الشخصيَّة المحفوفة بالشّبهات أو الشّهوات، وأثر تلك المشاركات في إذكاء الحِسِّ الأمنيّ الإعلاميّ، والكفاية الإنتاجيّة لاستقرار المجتمع العائد للأُسَر والأفراد بالنَّفع العام والهدوء اللامحدود في الدَّارين.

فالواجب علينا جميعًا - أيها المسلمون - أن ننظرَ إلى

الحقيقة الأمنيَّة من أوسع أبوابها وأقربِ الطُّرق الموصلة إليها، وأن ننزّل الأمور منازلَها في كلّ المستجدَّات، وألا نقحمَ أنفسنا في القضايا الكِبار التي لا يصلح لها إلا الكِبار، كلٌّ بما أوكل الله إليه من مصالحِ المسلمين ورعايتهم، وإقامةِ الحق والقسط فيمن استرعاهم الله، فالله الله أن نزاحمَ بفضول الكلام والقيل والقال، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، قد قلت ما قلت، إن صوابًا فمِن الله، وإن خطأً فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله؛ إنَّه كان غفَّاراً.

* * *

الخطبــة الثانيــة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَنْ لا نبيَّ بعده.

وبعــــد:

فاتَّقوا الله أيُّها المسلمون، واعلموا أن ثَمَّةَ مسلَّماتٍ وثوابت، ينبغي أن تدركَها المجتمعات المسلمة بعامّة، نعني بذلك المجتمعاتِ التي جعلت شرعة الله غايتَها وبغيتها، وهذا التأكيد ينبغي أن يتكرَّر كلَّما سنَحَت فرصة وادلهمَّت خُطوب.

فمِن تلك الثوابِت ـ عبادَ الله ـ: أنَّ عقيدةَ المسلمين أساسُها التَّوحيد لله، والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك، وهيهات هيهاتَ أن يُفلِح أيّ تجسيد عقديّ سواه، ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

وثابتٌ آخر: يؤكِّد أنَّ الشريعة الإسلاميَّة شريعة ثابتةٌ مستقرَّة، تصلح لكلِّ زمان ومكان، ويخضع لها كلُّ شيء، ولا تخضع هي لكلِّ شيء، منذ بعثة النبيِّ ﷺ إلى يومِنا هذا، وقد كان المسلمون عبرَ هذه القرون يعيشون بينَ انتصارات يتواضعون عندها، وبينَ هزائمَ وخسائر يسترجعون فيها ويحوقِلون، وهم صابرون على ذلك

حتّى يأتيَ الله بالفتح أو أمرٍ من عنده، وشريعتُهم باقية لا تتبدَّل ولا تتغيَّر.

ومِن الثوابتِ أيضاً: أنَّ الأمَّة الإسلاميَّة مهما بلغت من أوج التسلُّح العسكريِّ، والثورة الصناعيَّة، والعولمة الحضاريَّة، فإنَّها لا غِنى لها عن العلماء الربانيين، والدعاة الصادقين، الذين تجتمع عليهم القلوبُ، وتتألَّف حولهم النفوس، ينطلقون من فهمٍ صحيح ثابتٍ لكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، فهم النجوم الثواقبُ، والبدور المضيئة، ولولاهم بعد الله لمادت الأرض بأهلِها، ولكن هُمْ فيها أوتادٌ ورواسي، فهُم عُدّة الأمَّة في مكافحة الفكر الإلحادي المنحرِف، والدعوات المضلِّلة المسعورة، وهم عُدَّتها في كَبح جِماح الغلوّ وتنشيط المفرِّطين، والعلماءُ والدعاةُ لن يتمكَّنوا مِن القيام بهذه المهمَّة في ظلّ غياب الثقة أو الاعتزاز بهم وسطَ مجتمعاتهم.

ومِن الثوابت ـ عبادَ الله ـ: أنَّه لا يمكن إدراك أيِّ تلاحم وترابط أو تمازج مبذول في المصالح الشرعيَّة أو في درء المفاسد الطارئة دون أن تكون الوسيلة أو الغاية المتَّفق عليها وفقَ الحقِّ والشريعة، وإنَّ أيَّ تصحيح مطروحٍ، فإنَّه يُعَدُّ وهماً مع هذا الخروج على المقرَّرات الإسلاميَّة، والثوابت الشرعيَّة، بل إن مثلَ هذا الخروج يُعَدُّ خيانة عظمى وجنوناً لا عقل معه، وإغماءً لا إفاقة

فيه؛ إذ شرفُ المرء وشرف المجتمع إنما هو في الانتساب إلى الإسلام، لا في الصدّ عنه، ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

هذا وصلُّوا ـ رحمكم الله ـ على خير البريّة، وأزكى البشريَّة، محمّد بن عبدالله بن عبدالمطلب، صاحبِ الحوض والشفاعة، فقد أمركم الله بأمر بدأ فيه بنفسه، وثنّى بملائكته المسبِّحة بقدسه، وأيّه بكم ـ أيها المسلمون ـ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهمَّ، صلِّ على محمَّد وعلى آل محمَّد؛ كما صلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنَّك حميد مجيد. . .

* * *

الفهـــرس

* * *